

صفحة مشرقة من تاريخ العلم
علماء أغنياء آثروا العلم على المذاهب

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

صفحة مشرقة من تاريخ العلم

عُلَمَاءُ أَغْنِيَاءُ

آثَرُوا الْعِلْمَ عَلَى الْمَلَدَّاتِ

تأليف

أحمد الجوهري عبد الجواد

صفحة مشرقة من تاريخ العلم
علماء أغنياء آثروا العلم على الملذات

المؤلف / أحمد الجوهرى عبد الجواد

جميع الحقوق محفوظة

دار المازيري

للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني : Dar. maziri@gmail. com

الهاتف : 0021625953466

0021671253524

العنوان : 1 نهج الحبيب ثامر- رادس
12 نهج السبيخة - باب الجزيرة

الجمهورية التونسية

الصندوق البريدي : 2040

عدد الصفحات : 408

قياس الكتاب : 21×14 سم

الرقم الدولي : 978-9938-908-88-4

الطبعة الأولى: 1438 هـ- 2017

هذا الكتاب

الفقر قرین العلم، هكذا قيل، وقيل -أيضاً-: لا يبلغ أحدٌ من العلم منزلةً إلّا بعد أن يضرّ به الفقر، حتى لكانَ إذا قال العلم: إني ذاهبٌ إلى فلان، قال له الفقر: خذني إلّي معك!

والواقع يؤكد ذلك ويقرّره؛ إذ الأعم الأغلب في أهل العلم وطلابه أنهم فقراء، وقد زخرت كتب الترجم والتاريخ والأدب بأقوال العلماء في العلاقة بين الفقر والعلم، فهذا قائل منهم يقول: قلت للفقر أين أنت مقيم

قال لي في عيّام الفقهاء
إن بيني وبينهم لإخاء

وعزيز علي ترك الإخاء

وآخر يشير إلى التلازم بين الفقه والفقير، حتى ليجعل لفظ الفقه هو لفظ الفقر بعينه، لكن رأي الفقر استدارت فصارت هاءً، وصار الناس ينطقوها (الفقه)، بدل (الفقير)، يقول:

إن الفقيه هو الفقير وإنما

رأي الفقير تجمعت أطرا فها

وقد عقد العلامة ابن خلدون باباً كبيراً في مقدمته، تحدث فيه عن طرق تحصيل المعاش ووجوه الكسب والصناع، وما يكون منها له المورد العظيم والثروة الكبيرة، وما لا يكون منه ذلك، ثم عقد في ذلك الباب فصلاً خاصاً بين فيه سبب قلة المال في أيدي العلماء، عنونه بقوله: الفصل السابع في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامية والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب⁽¹⁾.

هكذا، كأنما صار الفقر لأهل العلم شعاراً ودثاراً، وصار القرآن بين الفقر والعلم قاعدة!

فلا ريب أنّ لكلّ قاعدةٍ استثناءً، والاستثناء هنا أراه كبيراً، فكما من شخص عظيم الثراء، واسع الغنى، رفيع المنصب قد نبغ في العلم وبرع فيه، حتى صار إماماً من الأئمة، وربما أصبح مجتهداً عصره ومجدّد زمانه!

وبين يديك - أخي القارئ - سيرةٌ ثلّةٌ كريمةٌ من نوابع العلماء، جيّعهم أفراد في هذا الاستثناء؛ إذ إنهم جمعوا بين العلم والثروة الهايلة، فلم تصرفهم أبّهة المنصب وبمحبوحة العيش عن طلب العلم والنبوغ فيه، بل إنهم آثروا العلم على سائر الملذات.

(1) مقدمة ابن خلدون (ص 429).

وقد جمعت لك شيئاً من أخبارهم هو كالدليل لما وراءه، فهم
مخبرون عنمن سواهم، وجميع ذلك برهان يقرر ويؤكّد على أنّ لهذا
الباب -باب العلم- لذة يرثوها كُلّ عاقل، وفيه جاذبية تأسّر كُلّ
لبيب!

وقد وقفت مع بعض الفوائد وال عبر الواردة في هذه السير
فاستجلّيت منها ما تقرّ به عين كُلّ كريم، ولن أتعجّل فأفضّلي لك ما
استودعّت هذا الكتاب من كنوز، لكنّي أعدك أنك ستري فيه
عجبًا، حتى لتوّقّن أنك ما قرأت الذي قرأت منه قبل هذا، فضلاً
عما لم تسمع به في حياتك!

فدونك؛ التّذّ بجميل أخبارهم، وعش ساعة في ظلّ أمجادهم،
وأقبس شذرًا من هديهم.

أحمد الجوهري





تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

إهلاع

إلى... والديّ الكريمين... أطال الله عمرهما في
أحسن العمل وأخلصه.

وزوجتي الوفية أم حفصة... جمعنا الله في الدنيا
والآخرة على المودة والرحمة.

وبنياتي حفصة وريحانة وخدیجہ... أنتہنَّ اللہ نباتاً
حسناً وکفلہنَّ المعلمات القانتات.

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

مقدمة

ذهب أهل الدُّثور بالدرجات الْعُلَى والنعيم المقيم، أولئك الذين جباهم الله الثروة، فعرفوا فضل الله عليهم تجاهها، فاتقوا فيها ربّهم، وأدّوا إلى إخوانهم منها حُقُّهم، إلى جانب ما يؤدون من فرائض الله وسنن رسول الله ﷺ، فساواوا غيرهم من المسلمين في أجر هذه وانفردوا عنهم بأجر تلك!

وذلك فضل الله يؤتى من يشاء!

وأولئك الأغنياء الشاكرون -أيضاً- ليسوا سواء، بل فضل الله بعضهم على بعض:

فمنهم من وقف جزءاً من ماله على رعاية يتيم أو مسكين، ومنهم من بني مسجداً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، وهكذا كُلُّ فيها هيأة الله له من أبواب البر والخير والإحسان العديدة.

ومنهم من ارتفع فوق هذا درجات؛ إذ راح يضرب بسهم مع كُلِّ أصحاب غاية من هذه الغايات، وينضم إلى الرفقة تحت كل راية من هذه الرايات.

ومنهم من لم يقنع بهذا كله وقد فعله؛ إذ سمت عزيمته وعلت

همته إلى ما هو فوقه، فتطلع إلى أن يكون حادي ركب الأغنياء ومقدمهم إلى كل هدى وخير، فراح لأجل ذلك يبني ركبه بين يدي العلماء ويجد في الطلب عندهم؛ ليحصل أعظم منزلة بعد منزلة النبوة، وأفضل درجة بعد درجة الرسالة؛ ليكون وريث الأنبياء والرسل وحامل مشعل المداية من بعدهم، يقود سفينية العالم الحائرة في خضم المحيط إلى شاطئ النجاة لملوكوت رب العالمين، وهو يردد مع سيد الرسل الكرام: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَتَّةُ الْأُنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأُنْبِيَاءَ لَمْ يُورِثُوا دِينَارًا وَلَا دُرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَحَدَ يَهُدِّي حَظًّا وَأَفِرِّ»⁽¹⁾.

وكيف لا؟

اليس العلم هو النور الذي يبصّر الناس بدينهم، ويعرّفهم بربهم، ويهديهم إلى صلاح دنياهم وآخرتهم؟ فقد راموا أن يكونوا من حملته! يا حادي الركب في درب العلا شرُفتُ

بك المعالي ودرب الدين متصلُ

وأولئك هم سادة الأغنياء، وأولوا العزم فيهم.

(1) أخرجه الترمذى (2682)، وأبو داود (3641)، وصححه الألبانى فيه (1079/2).

مِنْ ثُمَّ كَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ الْمَنَازِلُ، وَأَعْظَمُ الْأَجْوَرِ، أَمْ تَرَى
إِلَى مَا رَوَى التَّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي كَبِشَةَ الْأَنْهَارِيِّ، أَنَّهُ
سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَّزَقَهُ اللَّهُ مَالًا
وَعِلْمًا، فَهُوَ يَنْقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُّ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًا، فَهَذَا يَأْفَضُ
إِلَى الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ رَّزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ الْبَيِّنَاتِ، يَقُولُ: لَوْاَنَّ
لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلٍ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ...»⁽¹⁾.

إِنَّ اللَّهَ عَرَّفَ جَلَّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ؛ يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الْمَالَ، وَيَهْبِطُ
لِمَنْ يَشَاءُ الْعِلْمَ، أَوْ يَجْمِعُهُمَا -مِنْ شَاءَ- مَعًا، وَسُبْحَانَ الْمَعْطِيِّ!
مَالِكُ الْمَلَكِ إِذَا وَهَبَ!

فَأَيُّهَا عَبْدٌ رُّزْقُ الْعِلْمِ وَالْمَالِ كَانَتْ تِلْكَ إِرَادَةُ خَيْرِ مِنَ اللَّهِ بِهِ،
فَحَرَّيْتُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيهِمَا؛ لِيَنْالَّهُمَا أَرْفَعَ الْمَنَازِلِ!

وَهَذِهِ الْحَالُ هِيَ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْغُبْطَةُ الْمُذَكُورَةُ فِي حَدِيثِ
النَّبِيِّ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي الْثَّنَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلْطَانًا عَلَى هَلْكَتِهِ
فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا»⁽²⁾.

إِنَّ مَنْ اقْتَرَنَ مَالَهُ بِعِلْمٍ هُوَ السَّعِيدُ؛ لَأَنَّهُ سَيَعْمَلُ فِي مَالِهِ
بِعِلْمِهِ، وَجَدِيرُ بِهِذَا أَنْ يَتَبَوَّأَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرْفَعَ الْمَنَازِلِ!

(1) أخرجه أَحْمَدُ (4/231) بِرَقْمِ (18194) وَالْتَّرْمِذِيُّ (2325)، وَصَحَّحَهُ
الْأَلْبَانِيُّ فِي *صَحِيحِ الْجَامِعِ* (3024).

(2) مُتَقَوِّلٌ عَلَيْهِ؛ أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (73)، وَمُسْلِمٌ (1865).

وبعد، عزيزي القارئ!

هذه صفحات ضمّت أخبار ثلّة كريمة من ذلك الصنف المجتبى، الذين جمع الله لهم المال والعلم معًا، فكانوا بالمال من الأغنياء؛ ملوّگاً، وزراء، وذوي ثروة هائلة وأموال طائلة، وكانوا بالعلم من العلماء؛ محدثين، ومفسرين، وفقهاء، ومفكّرين!

لقد تبأوا أرفع المناصب وأسمى المنازل، فلم تصر فهم أجهةُ الملك وفخخةُ الدولة، ولا بحبوحةُ العيش ورغدُ النعيم عن خدمة العلم والدين، بل استفادوا من هذه المناصب والنعم؛ لتحقيق الهدف الأسمى والغاية الرفيعة، ولئن ارتاح بالهم من كد العيش والسعى وراء الرزق بسبب المنصب والمال، فإنهم ما لبثوا أن وظفوا هذا كله في التفرّغ للعلم وتحصيله، والتأليف فيه والتصنيف.

وقد كنت - حين شرعت أصنّف هذا الكتاب - أحسب أنّي أحصي كلّ من كانت صفتة كذلك؛ لقلة بهم أو ندرة ظنّتها في البداية، فلما أخذت في القراءة والاطلاع رأيتهم كثرة كاثرة، لا تسعهم خطّة هذا المصنّف، ولا ضعفه، حتى إنّي اكتفيت بمن دونتهم هنا كنموذج لمن وراءهم.

والحمد لله على فضله.



تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

الليث بن سعد

لا تسعفنا كتب السير والترجم من أخبار هذا الإمام
وحياته، ولو طالت سيرته وكثرت أخباره لبقي قارئها في شوقٍ
لمزيد منها؛ ففي كلّ خبر منها لذة لا تنقضي ومتعة لا تنتهي، وفيها
فوائد كبيرة وعبر كثيرة؛ ييد أنّ هذه الأخبار قليلة وهذه السيرة
قصيرة؟

وكيف لا تلتذ النفس و تستمتع الروح وهي تقرأ أخبار رجل عظيم من كبار أتباع التابعين، هوت شخصيته شمائل وفضائل لا تجتمع إلا في جمٍّ كبيرٍ من العظام؟

لقد كان إمامنا الذي نتحدث عنه في هذه السطور فقيه مصر -يفوق في فقهه فقه الإمام مالك-، وكان مفتياً الأعظم الذي ترأس الفتوى في زمانه⁽¹⁾، وحديثها الأكبر الذي تعد مروياته أعلى روایات الحديث النبوي إسناداً في عصره⁽²⁾، وهو -إلى جانب

السُّر (1) / 8 (161).

السر (2) (159 / 8) .

ذلك كله- محترم مصر ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم
كله⁽¹⁾.

ولقد عجبت حين قرأت أنّ حاكم مصر وقاضيها وناظرها
جميعهم كانوا تحت أوامرها؛ يرجعون إلى رأيه ومشورته، ولا
يقضون أمراً في شئون مصر جميعها حتى يراجعوه⁽²⁾، فإن رأى هو
من أحدهم مخالفة وعذه وأمهله لإزالتها، وإلا كتب إمامنا بشأنه
إلى الخليفة، فسارع الخليفة إلى عزل ذلك المخالف عن منصبه
وتعيين آخر يرضاه إمامنا مكانه.

وإمامنا الذي نتكلّم عنه في هذه السطور هو شيخ الإسلام
«الليث بن سعد» الذي عرض عليه «أبو جعفر المنصور» أن يلي
حكم مصر، لكنه اعتذر عن قبول ذلك.

ولندعه يحك لنا ما كان بينه وبين أبي جعفر في ذلك يقول: قال
لي أبو جعفر: تلي لي إمرة مصر؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، إني
أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالى، فقال أبو جعفر: ما بك
ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل لي⁽³⁾.

(1) السير (137 / 8).

(2) النجوم الزاهرة (2 / 82).

(3) السير (143 / 8).

ومع قول أبي جعفر بهذا، وسكت الليث عن جوابه وهو إقرار له، فقد مضى الليث، وأما أبو جعفر فلم يعقب إلا بالثناء والدعاء فقال له: «قد سرني ما رأيت من سداد عقلك، فأبقي الله في الرعية أمثالك»، وكان شعيب ابنه الذي نقل هذا الكلام عنه يقول: كان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حيًّا⁽¹⁾.

لكن الليث وإن لم يقبل بحكم مصر، إلا أنه كان حاكماً الفعليّ والمسيّر لشئونها، فأيّ رجل كان الليث؟

كان «أبو الحارث الليث بن سعد» من الموالى، ولم يكن من العرب، لكنه علمه سوده ورفع مكانته فوق جميع أهل مصر، هكذا العلم يرفع الله به أقواماً ويضع بعدهم آخرين، وصدق من قال: العلم يرفع بيتاً لا عهاد له

والجهل يهدم بيت العز والكرم

ولله در القائل:

تعلم فليس المرء يولد عالماً

وليس أخو علم كمن هو جاهل

(1) تاريخ بغداد (10/13).

صغير إذا التفت عليه الجحافل

وإنَّ كَبِيرَ الْقَوْمَ لَا عِلْمَ عِنْهُ

كَبِيرٌ إِذَا رَدَّتْ إِلَيْهِ الْمَحَافِلْ



ولد «الليث» في قلقشندة - إحدى قرى مركز طوخ التابعة لمحافظة القليوبية بمصر - في شعبان سنة (94)، لأسرة من الفرس من أصبهان، فكان الليث يقول: أصلنا من أصبهان، فاستوصوا بهم خيراً⁽¹⁾.

تلقى «الليث» العلم على أيدي التابعين في مصر، ثم رحل في العشرين من عمره إلى مكة للحج سنة (113)، فسمع من علماء الحجاز⁽²⁾.

ثم عاد إلى مصر وقد علا ذكره، وجلس للفتيان حتى استقل بالفتوى في زمانه، وعظمّه أهل مصر وهو يومئذ حديث السنّ، قال

(1) السير (145/8)، ولوالد الليث ذكر في تاريخ أصبهان، أو أخبار أصبهان (389/1) أبو نعيم.

(2) تاريخ دمشق (351/50).

يجيى بن بکير: حدثنا شرحبيل بن جمیل قال: أدرکت الناس أيام هشام الخليفة، وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبید الله بن أبي جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن یزید، ویزید بن أبي حبیب، وابن هبیرة، - وهؤلاء يومئذ رعوس العلماء -، وإنهم یعرفون للیث فضله، وورعه، وحسن إسلامه عن حداثة سنہ، ثم قال ابن بکير: لم أر مثل الليث⁽¹⁾.

وإذا كانت هذه حالة فلا نعجب أن نرى الولید بن رفاعة - والی الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك على مصر - وقد حضرته الوفاة سنة (117هـ)، فأراد أن یوصي فإذا به سند وصيته لابن عمه عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي، وإلى الليث بن سعد، وليس للیث يومئذ من العمر إلا أربع وعشرين سنة!

ومن عجیب أمر الليث - وكل أخباره معجبة! - أنه ظل يرحل في طلب العلم ويعاني ويلات السفر ومشقاته طوال حياته لتحصیل الزيادة منه متمثلاً قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

[طه: 114].

لم يكتف الليث بن سعد بالعلم الذي حصله والأحاديث التي

(1) السیر (8/146).

جمعها وحفظها في مصر والمدينة، بل كان الترحال دأبه، يساعده
ثراؤه الواسع على بلوغ مرامه وإشباع نهمه... حتى مع كبر سنّه
وعلوّ منزلته، وكثرة ما جمعه!

إنّ ذلك كله لم يمنعه أن يطلب الزيادة في العلم من الآفاق،
وهذه سفرة جديدة تسجلها له كتب الترافق، ولم تكن هذه المرة إلى
المدينة أو أي من بلاد الحجاز، لكن إلى العراق، ولم تكن رحلة
كباقي رحلاته السالفة؛ إذ إنّ المتأمل في تاريخها وقد مضى إليها في
سنة (161) يدرك على الفور أنّ عمر الليث وقتها كان (67) سنة!
وهذه لعمر الله همة عظيمة في النهم بالعلم والرغبة في طلبه
وحبّ الرحلة في سبيل تحصيله، كما أنها تنم عن تواضع جم فلم
تنعنه مكانته و منزلته و سنّه أن يستزيد من طلب العلم!

يقول كاتبه أبو صالح: خرجت مع الليث إلى العراق سنة
إحدى وستين ومائة، خرجنا في شعبان، وشهدنا الأضحى ببغداد،
قال: وقال لي الليث -ونحن ببغداد-: سل عن منزل هشيم
الواسطي، فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام، ويسألوك
أن تبعث إليه شيئاً من كتبك، فلقيت هشيمًا، فدفع إلي شيئاً، فكتبنا

منه، وسمعتها مع الليث⁽¹⁾.

لقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شغوفاً بطلب العلم، مولعاً بأهله، محباً للترحال في سبيله منها كلفه ذلك من مال أو عناء.

مع أن مقامه وحاله يغنيانه عن ذلك كثيراً، وفيهما المقنع لو أراد. ولنستمع إلى يعقوب بن داود -وزير المهدى- وهو يحكى لنا ما قاله المهدى بشأن الليث لما سمع منه وخبر ما عنده في هذه السفرة، يقول يعقوب: قال أمير المؤمنين -لما قدم الليث العراق:-
الزم هذا الشيخ؛ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل
منه⁽²⁾.

الله! لقد كان أهل الأرض من المسلمين جمياً يعرفون فضل علم الليث، وينزلونه مكانته، حتى إن الخليفة ليقول عنه هذا!
لكن الليث رَحْمَةُ اللَّهِ كَانَ وَهُوَ أَسْتَاذٌ يَدْرِسُ الْعِلْمَ، يَحْبُّ أَنْ يَكُونَ تَلَمِيذًا يَتَلَقَّى عَنِ الْعُلَمَاءِ!

ولهذا السبب كثُرَّ أَساتِذَةُ الْلَّيْثِ، وَتَنَوَّعُوا، وَلَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ
فِيهِمْ (50) شِيَخاً مِنَ الْتَّابِعِينَ، وَ(150) مِنْ تَابِعِي التَّابِعِينَ، هُؤُلَاءِ

(1) السير (8/145).

(2) تاريخ بغداد (5/13).

جيمعاً أدركهم الليث، فجمع علمهم كله، حتى قال ابن حجر العسقلاني في «الرحمه الغيشية في الترجمة الليثية»: «إن علم التابعين في مصر تناهى إلى الليث بن سعد»⁽¹⁾.

وكذا قد التفّ حوله الكثير من طلّاب العلم.



كان الليث بن سعد عظيم العلم، محيطاً بدلائله، قويّ الحجة فيه، يقول ابن بكر: قال عبد العزيز بن محمد: رأيت الليث عند ربيعة يناظرهم في المسائل، وقد فرفر أهل الحلقة⁽²⁾.

فلا غرو أن قال العلماء: لم ير مثل الليث⁽³⁾، ولم يدركوا مثل الليث، بل قالوا أعظم من ذلك:

قال ابن بكر: كان الليث فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة، فما زال يذكر خصالاً جميلة، ويعقد بيده، حتى عقد عشرة: لم أر مثله⁽⁴⁾.

(1) الرحمه الغيشية بالترجمة الليثية (ص 4)، ط. المطبعة الأميرية بمصر.

(2) تاريخ دمشق (50/355).

(3) السير (8/146).

(4) تاريخ بغداد (6/13)، والوفيات (4/130).

وكان الليث على صلة عظيمة بالإمام مالك رضي الله عنهما وتلقى مالك عنه وروى، وفي كتبه الكثير من حديثه، وكان يروي عنه بطريقة فيها ثناء وترزية، يقول «ابن وهب» - وهو الخبير بمالك -: «كل ما كان في كتب مالك: وأخبرني من أرضي من أهل العلم، فهو الليث بن سعد»⁽¹⁾.

يقول ابن وهب: لولا مالك والليث هلكت، كنت أظن كل ما جاء عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يُعمل به»!⁽²⁾

بل كان يقول: لولا مالك والليث لضل الناس⁽³⁾.

نعم فقد أكرم الله تعالى أهل مصر بالليث بن سعد فأحياهم به وردهم من بعد رفضهم إلى السنة والهدى فقد كان أهل مصر ينتقصون عثمان، حتى نشأ فيهم الليث، فحدثهم بفضائله، فكفوا⁽⁴⁾.

قلت: ربّ رجلٍ أحيى الله به أمّة؛ وقف موقعاً يحبّه الله، أو ربّي صغيراً فشاء الله أن يكون حين بلغ من أولي الأمر، أو أقام على دعوه يبلغها حتى وصل بها مبتغاها .. إلخ.

والأمثلة على ذلك كثيرة: قال عثمان بن صالح - في الخبر

(1) تاريخ بغداد (13 / 7).

(2) السير (8 / 148).

(3) تاريخ بغداد (13 / 7).

(4) تاريخ بغداد (13 / 7).

الماضي نفسه-: «وكان أهل حمص ينتقصون عليه، حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدثهم بفضائل علي، فكفوا عن ذلك». هكذا كان الليث رجلاً بأمة، يتمثل أهل مصر كلهم فيه! وقد كان الليث -إمام أهل مصر في زمانه- صاحب مذهب فقهى له أتباع كثر؛ يصارع مذاهب الأئمة الأربع المشهورين، أو يفوق ذلك، فالعلماء متذمرون على أن الليث كان يفوق في علمه وفقهه مالكًا بن أنس، غير أن تلامذة الليث لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق، مثلما فعل تلامذة مالك، فاندثر مذهب الليث وضاع!

(1) لقد علت منزلة الليث في الفقه حتى استقل بالفتوى في زمانه! ولما جاء الإمام الشافعي رحمة الله إلى مصر يطلب علم الليث عند تلامذته، لمس آثاره وخبر فقهه، فكان يقول عن فقهه قوله المشهورين؛ قوله: «الليث بن سعد أتبع للأثر من مالك بن أنس»⁽²⁾، وقوله: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»⁽³⁾.

(1) تاريخ دمشق (50/345، وما بعدها).

(2) السير (8/156).

(3) طبقات ابن سعد (7/517).

ولعلنا نقف عند هذه المسألة متنبهين ومنبهين؛ متنبهين إلى أن ليس كُلَّ الذي غاب واندثر يقال فيه: «لو كان خيراً لبقي»، أو: «لو صَحَّتْ نية صاحبه لدام»!

فربَّ خير لم يصلنا لذنبنا، وربَّ نافع مخلص فيه لسنا أهلاً له فحرمناه، وثواب صاحبه عند الله موفور!

ومنبهين على دور الطلاب في الحفاظ على علم شيخهم؛ إن واجب الطلاب عظيم في نقل علوم شيخهم إلى الأجيال، وذلك من جملة بَرْهُم به، جزاء لما طُوقَ رقابهم من جميله بعلمه.

أما أن يضيع الطلبة ذكر شيخهم وعلمه! فإنه والله لعقوق، وهو عقوق قديم حديث، يتجدد بتجدد العاقِّين من الطلاب لشيوخهم، فهذا الليث ضاع فقهه، وهذا بقي ابن مخلد ضاع مسنده، وهذا ابن حزم ضاع كتابه المجل، وأئمة كثُر ضاعت بعض كتبهم، وربما جميعها، وفي العصر الحديث أئمَّة وشيوخ أحياء وأموات ضاع علمهم أو هو يضيع، لأن تلامذتهم لم يقوموا بهم، ومن هؤلاء الشيوخ:

الشيخ تقي الدين الهملاي، والشيخ بوخبزة، والشيخ محمد عمرو عبد اللطيف، والشيخ أبو مالك باقشيش، والأستاذ أنور

الجندى، وغيرهم من قضى نحبه ومن ينتظر⁽¹⁾.

ولعلنا نعود إلى التساؤل من جديد: لماذا ضاع مذهب الليث وعلمه؟

إنّ سبب ذلك لا ينحصر في تلامذته؛ فإنهم قد دونوا حديثه ونشروه في الآفاق، فكان أصح حديث وأصدقه.

والحق أنّ شيئاً من ذلك يعود إلى الإمام نفسه؛ فإنه لم يدون كتبه، ولعله لم يكن يميل إلى هذا.

وقد أرجع الأستاذ أحمد أمين في كتابه «ضحي الإسلام» سبب ضياع مذهب الليث إلى عدم اهتمامه بتدوين مذهبه في كتب⁽²⁾.

نشأ الإمام الليث بن سعد في بحبوحة من الرزق وسعة من العيش، فقد كان أبوه واسع الغنى؛ يملك في قرية قلقشندة بريف مصر -مسقط رأس الليث بن سعد- وما حوالها ضياعة واسعة

(1) اقرأ للمؤلف: «دور الطالب في الحفاظ على علوم شيوخهم»، مقال منشور بموقع الألوكة، على الشابكة.

(2) انظر: ضحي الإسلام (2) / 88.

خصبة تتح خير الشمار من زرع وفاكهه، وملك هو بعد ذلك مساحات شاسعة من الأرضي، تدرّ عليه دخلاً كبيراً، يصل إلى (٨٠) ألف دينار سنوياً^(١).

ورغم ذلك كله لم تجب عليه زكاة فقط في ماله؛ لسعة إنفاقه في أوجه الخير، ولأنه كان يعمل في ماله بالجود والعطاء ويسخرها في الكرم والسخاء؛ يعطي الفقراء في أيام السنة، فلا ينقضي الحال عنه حتى ينفقها ويتصدق بها، وكان له جود في الشتاء وجود في الصيف؛ كان يُطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السُّكَّر.

ومن جميل عطائه أنه كان يصلّي في المسجد كل صلاة، يجيء على فرسه ويتصدق في كل صلاة على ثلاثة مسكين^(٢).

ولقد جاءته امرأة مرة، إثر درسه، فقالت: يا أبا الحارث! إن ابناً لي عليلٌ، واحتله عسلاً، فقال: يا غلام، أعطها مرطاً (المرط مائة وعشرون رطلاً) من عسل، وكان مع المرأة إناء صغير الحجم، فلما رأه كاتب الليث راجع الليث قائلاً، إنها تطلب قليلاً من

(١) انظر: صبح الأعشى (٣/٤٥٨).

(٢) السير (٨/١٥٨).

العسل، فقال الليث: إنها طلبت على قدرها، ونحن نعطيها على قدرنا، وأمره أن يعطيها المرط⁽¹⁾. وغير هذا من القصص المشهورة التي تناقلتها كتب السير والترجم.

لقد كان الليث عظيم الجود، على الناس جميعاً، وعلى أهل العلم منهم خصوصاً، يصلهم بمال الجزيل، سيما الإمام مالك فأخباره معه في هذا الجانب ما يفوق كل جود ويربو على كل كرم. إذ كان يصل الإمام مالك بن أنس بمائة دينار في كل سنة، فكتب مالك إليه أنّ عليه ديناراً فبعث إليه تلك السنة بخمسين دينار⁽²⁾.

ومن طريف ذلك أن الليث قدم المدينة زائراً بعد حجّه، فبعث إليه مالك بن أنس بطبق فيه رطب، فجعل الليث على الطبق ألف دينار، ورده إليه⁽³⁾.

وكتب مالك إلى الليث -مرة- يسأله أن يرسل إليه شيئاً من عصفر لزواج ابنته، فبعث إليه الليث بثلاثين جملًا من عصفر، فصبغ منه لابنته، وباع منه بخمسين دينار، وبقى عنده فضيلة⁽⁴⁾.

(1) الوفيات (131/4).

(2) السير (148/8).

(3) السير (150/8).

(4) حلية الأولياء (319/7).

هذا عطاوه مالك رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْهُمَا، وكذا كان يجزل العطاء لغيره من العلماء، يقول منصور بن عمار: أتيت الليث فأعطياني ألف دينار، وقال: صن بهذه الحكمة التي آتاك الله تعالى أن تقف بها على أبواب السلاطين⁽¹⁾.

وفي هذا الخبر ما يشير لنا بوضوح عن نية الليث في بعض عطائه، لقد كان يحب أن يصون العلماء عن الحاجة، ويعزهم عن السؤال، وألّا يحوجهم الفقر إلى عطايا السلاطين!

وفي هذا إتاحة الحرية للعلم ليقول ما يملئه عليه علمه، غير خائف على رزق تقطنه الدولة أو الحاكم ولا وجل على وظيفة يعزل عنها.

ولنا أن نتصور كيف تكون مواقف العلماء ومؤسساتهم في كثير من القضايا الحية، لو صينت لهم أوقفهم واستقلوا في مواردهم، وهذا بعض ما أدركه الليث الفطن الليبي!

وكذلك كان الليث يُعين العلماء على ما ينوبهم من نواب

(1) تاريخ بغداد (13 / 8).

الدهر ومصابيه، كما ورد في مختصر تاريخ دمشق أنه لما احترقت
كتب ابن هبعة بعث إليه بـألف دينار⁽¹⁾.

بل لقد بلغ من جوده وكرمه أنه كانت تأتي عليه السنة أحياناً
وعليه دين.

ليست العطایا فقط ما كان يحرص عليه الليث، بل كان
يحرص على أنواع من البر كثيرة، ومن بين أعمال البر هذه شراء
الأراضي، في نواح من البلدان، يشتريها ويقفها على وجوه البر،
وكان فعله ذلك أساساً للأوقاف في مصر⁽²⁾.

فهو بهذا المؤسس الأول للأوقاف، وليته كان يعلم ما سوف
تنتهي إليه أوقاف المسلمين فيها بعد ذلك!

أما هو فكان -رغم سعة ثروته هذا- زاهداً، يأكل الخبز
والزيت.

أحسب أن الله يدفع عن حاضرنا بما عمله صالحو المتقدمين
من أمتنا، ولو لا ذلك لجاءنا العذاب قبلاً!

(1) السير / 8 / 148.

(2) انظر: صبح الأعشى / 4 / 39، و (11 / 8 / 248).

كان للّيث بن سعد مجلس يعقده كل يوم، ويقسمه إلى أربعة

أقسام:

الأول: للوالي، يستشيره في حوائجه، فكان الليث إن أنكر من القاضي أو الوالي أمراً كتب إلى الخليفة فيأتي أمر العزل.

والثاني: لأهل الحديث.

والثالث: عام للمسائل الفقهية يُفتّي السائلين.

والرابع: للناس من يسألونه المال، فلا يرد أحداً مهماً كبرت حاجته أو صغرت⁽¹⁾.

لم يصلنا من مصنّفات الإمام الليث بن سعد سوى شذرات نقلت عنه، ولم يُؤلّفها، فقد نقل عنه كتاب «عشرة أحاديث من الجزء المنتقى الأول والثاني من حديث الليث»، وهذا الجزء كان مضموماً في كتاب «الفوائد» لابن منده، وكذا نقل إلينا عنه كتاب: «جزء فيه مجلس من فوائد الليث بن سعد»، ورسالتان موجّهتان

(1) السير (150/8).

منه إلى الإمام مالك رَحْمَةُ اللَّهِ هُمَا نِمُوذْجَانَ رَائِعَانَ لِأَدْبِ الْحَوَارِ
بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.

توفي الإمام العظيم «الليث بن سعد» رَحْمَةُ اللَّهِ فِي مِصْرِ سَنَةِ (175)، وَكَانَتْ جَنَازَتْهُ عَظِيمَةً، وَحَزَنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ حَتَّى إِنَّهُمْ
كَانُوا يَعْزِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَبْكُونَ.

«قال خالد بن عبد السلام الصدفي: شهدت جنازة الليث
مع والدي، فما رأيت جنازة قطّ أعظم منها!!.. ورأيت النّاس كلهم
عليهم الحزن، وهم يُعزّون بعضهم بعضاً ويبكون، فقلت: يا أبي
كأنّ كل واحدٍ من الناس صاحب هذه الجنازة! فقال: يا بني لا
ترى مثله أبداً»⁽¹⁾.

وُدُفِنَ الليث بن سعد في مقابر الصدفيين في القرافة الصغرى،
وَقَبْرٌ مشهور.

بعد أن ملأ الدنيا من حوله بالعلم والمعرفة، على مدى اثنين
وثلاثين عاماً، وقد نبغ من نسل الليث بن سعد: ابنه شعيب،

(1) السير (162/8).

وحفيده عبد الملك بن شعيب، وكلامها من رواة الحديث النبوى
المعروفين.

ودكى ابن خلكان أنه سمع قائل يقول يوم مات الليث:
ذهب الليث فلا ليث لكم

ومضى العلم غريباً وفقيراً

فالتفتوا فلم يروا أحداً⁽¹⁾.



(1) وفيات الأعيان (1/439).

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد



عبد الله بن المبارك

كبير التجار

وسيد العلماء

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

أمتنا أمة ولادة، لا يكفي رحمة أن يبهر العالم بمخرجهاته من العظام والنباهء في جوانب الحياة وشئونها المختلفة، وكثير من أولئك لم ينبعوا في واحد من هذه الجوانب بل فيها جميعها، ورفيق رحلتنا هذه واحد من أولئك النابغين في نواحٍ كثيرةٍ، في الدنيا والدين على سواء، فهو إمام مجاهد وعالم مجتهد، بل أستاذ من أساتذة الأئمة وسيد من سادات المسلمين في جانب الدين.

وهو تاجر ثري و Maher غني، ليس من أغنياء العلماء فحسب، بل هو من أغنياء زمانه وأوانه، حتى إنه ليحج كثيراً ويجahد كثيراً، يحجّ من بلاده البعيدة جداً من الحرم، فيكتفيه ماله لنفقاته ونفقة أعداد معه، إضافة إلى جود وعطاء وكرم وبذل وسخاء على أهل العبادة والجهاد والعلم والزهد، لم ينقطع عن تلك النفقه طول حياته!

هذا العالم الثريّ هو أمير المؤمنين في الحديث عبد الله بن المبارك، فللله هو! كم كانت سعة ثروته!

لقد بدا لي يوماً أن أتصورها، فحسبت «كم كان يستغرق
الناسُ من وقت لحج البيت الحرام قدِّيماً؟»

لقد كانت الرحلة من «الرياض» إلى مكة تقطع في (25) يوماً
بركوب الجمال في القوافل، فكيف بمن كان يأتي من مرو - وهي
اليوم عاصمة منطقة ماري في تركمانستان -؟

لا ريب أنَّ الرحلة من خراسان إلى البيت الحرام تستغرق
شهرًا عديدة؛ قرأت في رحلات بعض العلماء أنها استغرقت (6)
أشهر كاملة.

فكِّم كانت تكلفة هذه الرحلة على الفرد الواحد؟ وكيف إذا
تصوّرنا أن ابن المبارك رَحْمَةُ اللهِ تعالى كان يصحب أهله، ورفاقه،
وجملة من الفقراء والمساكين يحجّ معه جميع هؤلاء على نفقته الخاصة؟
أيّة ثروة يحتاجها الإمام ليتكلّل بنفقات هذه القافلة من
الحجاج؟

واقرأ معي هذا الخبر، يقول محمد بن عليٍّ بن الحسن بن شقيق:
سمعت أبي يقول: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحجّ اجتمع عليه
إخوانه من أهل مرو فيقولون: نصْحِبُك يا أبا عبد الرحمن، فيقول
لهم: هاتوا نفقاتكم فـيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صُندوقٍ فيقول

عليها، ثم يكتري لهم ويُخْرِجُهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء، ثم يُخْرِجُهم من بغداد بأحسن زَيْ وَأَجْلَى مروءَة، حتى يَصِلُوا إلى مدينة الرسول ﷺ فإذا صاروا إلى المدينة قال لِكُلِّ رجُلٍ مِّنْهُمْ: ما أَمْرَكَ عِيالَكَ أَنْ تَشْتَرِيَ لَهُمْ مِّنَ الْمَدِينَةِ مِنْ طَرْفَهَا؟ فَيَقُولُ: كَذَا، فَيَشْتَرِي لَهُمْ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ إِلَى مَكَّةَ، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَى مَكَّةَ وَقَضُوا حَجَّهُمْ قَالَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمْ: ما أَمْرَكَ عِيالَكَ أَنْ تَشْتَرِي لَهُمْ مِّنْ مَتَاعِ مَكَّةَ؟ فَيَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَيَشْتَرِي لَهُمْ ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِّنْ مَكَّةَ، فَلَا يَزَالُ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يَصِيرُوا إِلَى مَرْوَ، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَى مَرْوَ جَصَّصَ أَبُواهُمْ وَدُورُهُمْ⁽¹⁾.

فَإِذَا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ صَنَعَ لَهُمْ وَلِيْمَةً وَكَسَاهُمْ، فَإِذَا أَكَلُوا وَسَرَّوْا دُعَا بِالصِّندوقِ فَفَتَحَهُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنْهُمْ صَرَّتِهِ بَعْدَ أَنْ كَتَبَ عَلَيْهَا اسْمَهُ، قَالَ أَبِي: أَخْبَرْنِي خَادُمُهُ أَنَّهُ عَمِلَ آخِرَ سَفَرِهِ سَافَرَهَا دُعْوَةً، فَقَدِمَ إِلَى النَّاسِ خَمْسَةً وَعَشْرِينَ خَوَانِيًّا فَالْوَذْجَ، قَالَ أَبِي: وَبِلْغَنَا أَنَّهُ قَالَ لِلْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ: لَوْلَاكَ وَأَصْحَابَكَ لَمَا اتَّخَذْتَ، قَالَ أَبِي: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى الْفَقَرَاءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَائَةُ أَلْفِ دَرْهَمٍ⁽²⁾.

(1) تاريخ بغداد (10/158).

(2) السير (399/8).

هذا عن حجّ ابن المبارك، ومثله في جهاده؟

لقد كان ابن المبارك محبًا للجهاد شغوفًا به، يخرج في الجهاد، ويدعو الناس إليه قولاً وفعلاً، فقد ألف كتاباً عنه، وكان يعين المجاهدين بنفقة كبيرة، وينخرج من ماله في تجهيز احتياجات الجيش، ويحفظ لنا التاريخ هذه القصيدة التي تنسج نوراً بعث بها ابن المبارك وقت خروجه للغزو يدعو بها شيخه ورفيق دربه في العلم والزهد والنسك والورع «الفضيل بن عياض» ويدركه فيها بفضل الجهاد على ما هو فيه من الانقطاع للعبادة، يقول محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة: أملّ عليّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، ودّعه للخروج، وأنفذها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة، أو سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عبدَ الْحَرَمَينَ لَوْ أَبْصَرْتَنَا

لَعْلَمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضُبُ خَلَدَه بِدَمِهِ

فَنَحْرُرُنَا بِدَمِنَا تَخْضُبُ

أَوْ كَانَ يَتَعَبُ خَيْلَه فِي بَاطِلٍ

فَخَيْرُنَا يَوْمَ الصَّبِيحةِ تَتَعَبُ

رَبِّ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا

رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالْغَبَّارُ الْأَطِيبُ

وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالٍ نَبِيًّا

قَوْلٌ صَحِّحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ

لَا يُسْتَوِي غَبَّارُ أَهْلِ اللَّهِ فِي

أَنْفِ امْرَئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلَهُبُ

هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطُقُ بَيْنَنَا

لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمِيَتٍ لَا يَكْذِبُ

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما
قرأه ذرفت عيناه، وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال:
أنت من يكتب الحديث؟، قال: قلت: نعم، قال: فاكتب هذا
الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا، وأملأ على الفضيل
بن عياض قال: حدثنا منصور عن أبي صالح عن أبي هريرة أن
رجلًا قال: يا رسول الله! علمني عملاً أتال به ثواب المجاهدين في
سبيل الله؟، فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا
تفطر؟»، فقال: يا رسول الله! أنا أضعف من أن أستطيع ذلك،
فقال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طوّقت ذلك ما بلغت
ثواب المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد ليس تن

في طوله فيكتب له بذلك الحسنات⁽¹⁾.

هكذا كان غرامه رحمة الله بالجهاد ودعوه إليه!

وهذه نفقة فيه: قال عمر بن حفص الصوفي: خرج ابن المبارك من بغداد يرید المصيصة فصاحبه الصوفية، فقال لهم: أنتم لكم أنفس تحشمون أنْ يُنفق عليكم، يا غلام، هات الطَّست، فألقى على الطَّست منديلاً، ثم قال: يُلقي كُلُّ رجلٍ منكم تحت المنديل ما معه، قال: فجعل الرجل يُلقي عشرة دراهم، والرجل يُلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المصيصة -بلد-، فلما بلغ المصيصة قال: هذه بلاد نفير، فنقسم ما بقي، فجعل يُعطي الرجل عشرين ديناراً، فيقول: يا أبا عبد الرحمن، إنما أعطيت عشرين درهماً، فيقول: وما تنكر أنْ يُبَارِكَ الله للغازي في نفقة!

كان عبد الله بن المبارك غنياً شاكراً، وكان رأس ماله نحو الأربعين ألف، وله رحمة الله في غير الحجّ والجهاد نفقات متواصلة لا تنتهي!

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم (1/448) لابن كثير، والسير (412/8)، والتذوين في أخبار قزوين (3/236)، لأبي القاسم الرافعى القزوينى، وتاريخ دمشق (32/449)، وقد قال بعض العلماء بضعفها، انظر: تحذير الداعية من الأحاديث الواهية، (ج1/ قصة رسالة إلى عابد الحرمين في موسم حج «179هـ») على حشيش.

فإما في صدقة على فقراء، أو في قضاء دين محتاج، أو في صلة لأهل العلم في كل مكان، إلى غير ذلك من أعمال البر والإحسان!

يروى أنه كان كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شابٌ مختلفٌ إليه ويقوم بحواره ويسمع منه الحديث، قال: فقدم عبد الله الرقة مرّةً فلم ير ذلك الشاب وكان مستعجلًا، فخرج في النغير، فلما قفل من غزوه ورجع الرقة سأله عن الشاب، فقالوا: إنَّه محبوسٌ لدينِ ركبَه، فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلاً وزن له عشرة آلاف درهم، وحلفه ألا يخبر أحدًا ما دام عبد الله حيًّا، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس، وأدليج عبد الله، فأخرج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان هنا وكان يذكرك وقد خرج، فخرج الفتى في أثريه فللحظه على مرحلتين أو ثلاثٍ من الرقة فقال: يا فتى أين كنت؟ لم أرك في الخان، قال: نعم يا أبا عبد الرحمن، كنت محبوسًا بدينِي، قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجلٌ فقضى ديني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتى، احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك، فلم يخبر ذلك الرجل

أحداً إلا بعدَ موت عبد الله⁽¹⁾!

وقال حبان بن موسى: رأيتُ سُفراة ابن المبارك حُملت على عجلةٍ.

وقال أبو إسحاق الطالقاني: رأيتُ بعيرين محملين دجاجاً مشوياً لسفرة ابن المبارك.

وروى عبد الله بن عبد الوهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن سهم، قال: كنت مع ابن المبارك، فكان يأكل كل يوم، فيشوى له جدي، ويَتَّخِذُ له فالوذج، فقيل له في ذلك، فقال: إني دفعت إلى وكيل ألف دينار، وأمرته أن يُوسع علينا⁽²⁾.

وأمام هذه الأخبار التي تفوق الخيال أراني أتساءل في عجب: كيف يدعى الكرم حاتمياً وفي التاريخ مثل عبد الله ابن المبارك؟ أرأيت إلى هذا الثراء والمال الذي ينفقه ابن المبارك جوداً وكرماً؟ إنه لم يكن أحد خصاليه، بل هو أحددها، أما عن بقيتها فاعلم أن خصال الرجل كانت كثيرةً جداً.

يحكى الحسن بن عيسى بن ماسرجس أن جماعة من أصحاب

(1) تاريخ بغداد (10 / 168).

(2) السير (409 / 8).

ابن المبارك اجتمعوا، فقالوا: عُدُوا خصالَ ابن المبارك، فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والشجاعة، والشعر، والفصاحة، وقيام الليل والعبادة والحج، والغزو والفروسيَّة، وترك الكلام فيها لا يعنيه، والإنصاف وقلة الخلاف على أصحابه⁽¹⁾.
ومع كثرة مال ابن المبارك إلى هذا الحدّ كان ابن المبارك من أشدّ الزَّهاد، وهذا -لعمَّر الله!- الرَّهاد الحقيقى.

يقول إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرضِ مثلُ عبد الله بن المبارك، ولا أعلمُ أنَّ الله خلقَ خصلةً من خصالِ الخيرِ إلا وقد جعلَها في عبد الله بن المبارك، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة، فكان يطعمهم الخبisc -المعمولُ من التَّمر والسمَّن- وهو الدَّهر صائمٌ.

فأي إنسان كان ابن المبارك؟ الله دره ودر أبيه!

وعليه فإننا لا نعجب حين نقرأ قول سفيان بن عيينة عنه: نظرت في أمر ابن المبارك وأمر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فما رأيتمهم يفضلون عليه إلا في صحبتهم رسول الله ﷺ⁽²⁾.

(1) السير / 8 (397).

(2) البداية والنهاية (13 / 610).

وليس ذلك بمبالغة في قدر ابن المبارك الذي حُصّل الناس
عنه علماً وخلقاً ما زالت الأجيال تتوارثه، وما كان مثل سفيان أن
يجامل على حساب دينه، ولا لنا أن نقبل قوله إن كان مبالغة!
بل سفيان يدرى ما يقول وابن المبارك أهل لما يقوله سفيان فيه.

بين خلافتي هشام بن عبد الملك الأموي وهارون الرشيد
العباسي عاش ابن المبارك، إذ ولد في سنة (118 هـ)، ومات سنة
(181 هـ) وبذلك يكون قد عمر (63) عاماً، ولهم كانت حياته
تلك حياة كريمة مباركة!

والده: كان المبارك -والد عبد الله- تركياً، وإليه كان ابن
المبارك ينزع في الشبه، وشبه الأتراء كان بيناً فيه.

والدته: وكانت والدة عبد الله بن المبارك خوارزمية⁽¹⁾.

قال العباس بن مصعب في «تاريخ مرو»: كانت أم عبد الله بن
المبارك خوارزمية، وأبواه تركياً، وكان عبداً لرجل تاجر من همدان،
من بني حنظلة، فكان عبد الله إذا قدم همدان يخضع لوالديه
ويعظمها.

(1) نفسه.

وألق السمع إلى هذا الذي يحكي الأئمة عن أبيه في تلك الفترة: إنه كان يعمل في بُستانٍ لمولاه، وأقام فيه زماناً، ثم إنَّ مولاه جاءه يوماً وقال له: أريد رماناً حلواً، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها رماناً، فكسره فوجده حامضاً، فحرَّد عليه وقال: أطلبُ الحلُّو فتحضر لي الحامض! هاتِ حلواً، فمضى. وقطع من شجرة أخرى، فلماً كسره وجدَه أيضًا حامضًا، فاشتَدَّ حرُّه عليه، وفعل كذلك دفعَةً ثالثة، فقال له بعد ذلك: أنتَ ما تعرفُ الحلُّو من الحامض؟ فقال: لا، فقال: كيف ذلك؟ فقال: لأنَّني ما أكلتُ منه شيئاً حتى أعرفه، فقال: ولمَ لم تأكلْ؟ قال: لأنَّك ما أذنتَ لي، فكشفَ عن ذلك فوجَد قوله حقًّا، فعَظَمَ في عينِه وزوَّجه ابنته، ويُقال: إنَّ عبدَ الله رُزقَه من تلك الابنة، فنَمَتْ عليه بركة أبيه⁽¹⁾.

وكان ابن المبارك إذا قدم همدان أحسن إلى ولد موالٍ أبيه،
الذين كان والده يخدمهم !!

فسبحان الله يعطي ويمُنِعُ ويفقرُ، ويُعزُّ ويذلُّ يرفعُ
أقواماً ويخفضُ آخرين، كلَّ يومٍ هو في شأنٍ !

(1) وفيات الأعيان (3/34).

كان ابن المبارك طلاباً للعلم، نادر المثال في ذلك، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه⁽¹⁾.

وقال أبوأسامة الحافظ: ما رأيْتُ رجلاً أطلبَ للعلم في الآفاق من ابن المبارك .. هو أمير المؤمنين في الحديث.

وليس أدل على ذلك من أنه حين عزم على طلب العلم وكانت سنة إذ ذاك عشرين سنة! كان أول شيوخه هو الربيع بن أنس البكري - أحد صغار التابعين وعالم مَرْو في زمانه -، وكان الربيع سجينًا في سجن «مرُو» وظل حبيسًا فيه ثلاثة سنين⁽²⁾.

فكيف لقيه ابن المبارك؟ لقد تحيل ودخل إليه إلى السجن، فسمع منه نحوًا من أربعين حديثًا، فكان ابن المبارك يقول: ما يسرني بها كذا وكذا.

وإنها والله لحمة عالية سامة، تجعلني أزيل العجب من آخرة ابن المبارك التي تبأ بها مكانة الإمامة والقدوة في العلماء لا في العامة فقط؛ إذ من كانت هذه بدايته فلا عجب أن تكون تلك

(1) انظر: موسوعة أقوال الإمام أحمد في رجال الحديث وعلمه (2/ 283) السيد أبو المعاطي النوري وآخرون، ط. عالم الكتب.

(2) انظر في سيرته: طبقات ابن سعد (7/ 102)، والسير (6/ 169-170)، وتهذيب التهذيب (3/ 239).

نهايته، وإن كان قد بدأ العلم متأخراً وهو ابن عشرين! أخذ ابن المبارك إذاً عن العلماء في بلده، ثم ارتحل إلى أصقاع الدنيا وأكثر من الترحال والتطواف في حواضر الإسلام المشهورة بالعلم والعلماء في عصره، فلم يدع يمناً، ولا شامًا، ولا مصرًا سواهما إلا أتاها.

حتى صار إمام الدنيا، قال أبو إسحاق الفزارى: ابن المبارك إمام المسلمين، وعن إسماعيل بن عياش قال: ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك.

وملأتأت أحاديثه الآفاق، قال ابن معين: كان ثقةً مثبتاً، وكانت كتبه التي حَدَثَ بها نحوً من عشرين ألف حديث، وقال يحيى بن آدم: كنت إذا طلبتُ الدقيقَ من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أيسَت منه.

وقد كان الإمام ابن المبارك ينشد العلم حيث رأه ويأخذه حيث وجده، لا يمنعه من ذلك مانع، فقد كتب عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وتجاوز ذلك حتى كتب العلم عمن هو أصغر منه.

بل عمن يستبعد الناس أن ينتفع عنه، ومن ذلك أنه مات له ابن فعزاه مجوسى فقال: ينفي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد أسبوع، فقال بن المبارك: اكتبوا هذه.

إنَّ «المعلومة» رَيْ طالب العلم وذهب حَرَّ عطشه! فَأَنَى
وَجَدَهَا تَعْلَمُهَا وَقِيَدَهَا وَلَا يَحْتَرُ شَيْئًا مِنْهَا، مِمَّا رَأَهُ قَلِيلًا، وَإِنَّ
كَانَ رَيْ الْعِلْمِ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِهِ! فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيِّ الْكَلْمَاتِ الَّتِي
كَتَبَهَا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا!

وَلَقَدْ بَلَغَ بَعْدَ اللَّهِ بْنِ الْمَبَارِكَ وَلَعِهِ بِكِتَابِ الْعِلْمِ مِلْعَانًا جَعَلَ
النَّاسَ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، فَقَدْ قِيلَ لَهُ مَرَّةً: كَمْ تَكْتُبُ؟ قَالَ: لَعِلَّ الْكَلْمَةِ
الَّتِي أَنْتَفَعَ بِهَا لَمْ أَكْتُبَهَا بَعْدَ.

وَقَدْ تَعْجَبَ قَوْمٌ لِكَثْرَةِ طَلَبِهِ الْحَدِيثِ فَسَأَلُوهُ: إِلَى مَتَى تَسْمَعُ؟
فَقَالُوا: إِلَى الْمَهَاتِ.

وَلَمْ يَكُنْ أَبْنَ الْمَبَارِكَ يَهْتَمُ بِالْجَانِبِ الْكَمِيِّ فِي جَمْعِ الْعِلْمِ
فَحَسْبٌ، بَلْ كَانَ اهْتِمَامُهُ يَتَوَجَّهُ أَيْضًا إِلَى الْإِنْتِقَاءِ النَّوْعِيِّ لِهِ، دَافِعُهُ
فِي ذَلِكَ أَمَانَةِ الْعِلْمِ وَالْإِسْتِبَرَاءِ لِلَّدِينِ، لِذَلِكَ كَانَ التَّثْبِيتُ الْعَلْمِيُّ
هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي التَّزَمَ بِهِ أَبْنُ الْمَبَارِكَ وَأَخْضَعَ لَهُ كُلَّ مَا كَانَ يَصْلِ
إِلَيْهِ مِنْ أَحَادِيثٍ، حِيثُ كَانَ يَتَحَرَّى مَا يَقْبَلُ مِنْهَا وَمَا يَرْدُّ مِنْ
خَلَالِ إِسْنَادِهَا.

كَمَا حَرَصَ عَلَى دراسةِ الصَّحِيحِ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَالاشتغالُ بِهَا عَلَى غَيْرِهَا، حِيثُ قَالَ: «لَنَا فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ
شَغْلٌ عَنْ سَقِيمِهِ».

وكيف لا؟ وهو صاحب الكلمة الذاخنة الشهيرة: الإسناد من الدين، ولو لا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وكان ثمرة هذا الجهد أحاديث كثيرة تملأ الصحاح والمسانيد والسنن والمعاجم، ومصنفات كثيرة مباركة خلفها هذا الإمام العظيم منها:

كتاب الزهد والرقائق، وكتاب الجهاد، وله مؤلفات أخرى لم تطبع بعد.

بقي الإمام عبد الله بن المبارك عمره في هذا إلى أن مات؛ طلب علم، وهمة في غزو، وإنفاق على الإخوان، وتجهيزهم إلى حج، أو جهاد⁽¹⁾، على نحو لا يستطيعه سواه، حتى لقد قال شيخ الإسلام شعيب بن حربٍ: لو جهدتْ جهدي أَنْ أَكُونَ فِي السَّنَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ على ما عليه ابنُ الْمَبَارِكِ؛ لَمْ أَقْدِرْ⁽²⁾.

توفي الإمام المبارك عبد الله بن المبارك في مدينة هيـت بـمحافظـة الأنـبار بـغـرب العـراق سنـة (181 هـ).

السر (1) (398 / 8).

.(2) تذكرة الحفاظ (6 / 29-260)

رَحْمَةُ اللَّهِ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ وَجَزَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

وَفِي سِيرَةِ ابْنِ الْمَبْارِكِ عَبْرُ وَعَظَاتِ كَثِيرَةٍ تَسْتَحْقُ الإِشَادَةِ،
نَعْجَزُ أَمَامُ الْوَقْوفِ عَنْهَا كُلُّهَا لِكَثْرَتِهَا وَتَشْعُبُهَا، وَيَلْفَتُ نَظَرَنَا
مِنْهَا أَنَّ الْمَطَالِعَ لِسِيرَةِ ابْنِ الْمَبْارِكِ يُشَعِّرُ بِحَرْكَةٍ دَائِمَةٍ لَا تَسْكُنُ،
وَدَأْبٌ مُتَوَاصِلٌ لَا يَقْرَرُ، فَعِلْمٌ وَعَمَلٌ، وَتِجَارَةٌ وَجُودٌ، وَحَجَّ وَجَهَادٌ،
وَبِطْوَلَاتٌ وَعِبَادَةٌ ... إِلْخٌ، وَهَذِهِ هِيَ حِيَاةُ الْمُسْلِمِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا، الْجَدِّيَّةُ وَالْمَحَافَظَةُ عَلَى وَقْتِهِ وَعُمْرِهِ، فَالْمُسْلِمُ
لَا يَعْرِفُ تَضِيِّعَ الْأَعْمَارِ سِبْهَلَلًا، وَلَا تَرْكَ النَّفْسِ فَارْغَةَ عَنِ شَغْلِ
هَمَّلًا.

نَعَمْ إِنَّ الْمَرْءَ لِيَعْجِبْ أَشَدَّ الْعَجَبِ، وَهُوَ يَجْمِعُ هَذِهِ السِّيرَةِ
الْعَطْرَةِ مِنْ بَيْنِ الْكِتَبِ، فَيَجِدُ صَاحِبَهَا قَدْ تَرَجَّمَ ضَمِّنَ حَفَاظِ
الْحَدِيثِ، وَفَقَهَاءِ الْمَذَهَبِ الْحَنْفِيِّ، وَذَكَرَ فِي طَبَقَاتِ الصَّوْفِيَّةِ، وَفِي
سَائِرِ أَبْوَابِ الْعِلْمِ مِنْ كِتَبِ التَّرَاجِمِ الَّتِي تَخْتَلِفُ فِي مَشَارِبِهَا وَتَجْتَمِعُ
عَلَى جَمِيلِ مَنَاقِبِهِ وَعَظِيمِ شَمَائِلِهِ، وَصَدَقَ ابْنُ الْعَمَادِ إِذْ يَقُولُ عَنْهُ: «عَدَّ
بَعْضُهُمْ مَا جَمَعَ مِنْ خَصَالِ الْخَيْرِ فَوْجَدَهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ فَضْيَلَةً!»⁽¹⁾

(1) شذرات الذهب (1/ 296).

ولهذا أفرد بعض الأئمة ترجمته بمؤلفات، وببعضها في مجلدات!

وصدق ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: كلما كانت النفوس أكبر وأهمة
أعلى كان تعب البدن أوفـرـ وحظـهـ منـ الـرـاحـةـ أقلـ والـزـمـنـ يـمـضـيـ
وـحظـكـ مـنـهـ ماـ كـانـ فـيـ طـاعـةـ اللـهـ.

ومن اللافت للنظر في سيرة هذا الإمام كذلك أنه كان حنفي
المذهب، قد تلقى الفقه عن إمام الأحناف أبي حنيفة النعمان، وهو
معدود في تلامذته.

وهذا يحdonـاـ إـلـىـ أـذـهـانـ
كـثـيرـ مـنـ طـلـابـ الـعـلـمـ،ـ أـلـاـ وـهـوـ:ـ هـلـ عـلـىـ طـالـبـ الـعـلـمـ اـتـابـ مـذـهـبـ
فـقـهـيـ مـعـيـنـ وـالـتـرـامـ بـهـ لـيـتـفـقـهـ،ـ أـمـ يـغـنـيـهـ الـأـخـذـ بـالـرـاجـعـ مـنـ
الـأـقـوـالـ فـيـ كـلـ الـمـسـائـلـ؟ـ

وقد أجبت عن هذا السؤال بتفصيل في كتابي «شجرة العلم»،
وأجمل لك القول - يا طالب العلم - في هذه المسألة بأن طالب الفقه
الذي لا يتمذهب لا يصل، ومن الشائعات العلمية التي تبنيـاـهاـ
فريق مشهور: «دعوة المتفقهين إلى التفقة من الدليل، بعيداً عن
المذاهب الأربعة»، بحجة نبذ الجمود والبعد عن التعصـبـ !!

وقد ثبت عند أهل التحقيق أنّ هذه الدعوة غير قابلة للتطبيق، وخير دليل على ذلك أن نتائجها -إلى يوم النّاس هذا- غير موجودة أو غير محمودة، فالذين حاولوا التفقة في الشريعة، على هذه الطريقة، ما حصدوا إلا الشتات وضياع الأوقات، ولم تنتج هذه الدعوة رغم الجهود التي بذلت في سبيلها شيئاً مذكوراً، فلا هي خرّجت فقيها بمعنى الكلمة، ولا هي أبرزت مجتهداً يتعامل مع الواقع المتغير بمنهجية ثابتة.

وليس المذهبية هنا العصبية لواحد من الأئمة المتبوعين.

ولكن المذهبية المقصودة هي التدرج في مراقي الصعود على نهج مذهب معين ابتعاه الوصول، وهي -رغم كل ما يثار حولها من مخاوف- الطريق المأمونة التي عبّدّها قبلنا الفحول المحققون، وأنا أعدّ كلّ ما سوى المذهبية فوضى علميّة بكلّ معنى.





المحافى بن عمران

رأس الأثرياء

وياقوته العلماء

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

إذا امتدح عالمٌ عالماً فقال فيه: «لم يُرِ مثُلُه»، فلا نحسب
المدحَ إلا إماماً من الأئمة العظام، وإلا لما قيل فيه هذا!

فكيف لو كان المادحُ أحد الأئمة؟ فمن نحسب ذلك المدحَ؟
هل بقي إلا أن يكون إمامَ الأئمة!

وقلائل أولئك الذين قال فيه أئمةٌ - لا علماء عاديون - إنهم
«لم يرِ مثلهم»، وقليل أيضاً أولئك الذين وصفوا بهذا اللقب: «إمامُ
الأئمة».

ومن هؤلاء الأقلّين: شيخ الإسلام أبو مسعود المعافى بنُ
عمران الموصلي⁽¹⁾.

وحقٌّ له، ولهُم، ما قالوه فيه، فقد جمع هذا الإمامُ جملةً من
الشمائل العزيزة الكريمة، على المستويين العلمي والشخصي، جعلته
جديراً بهذا اللقب.

(1) أخباره في: طبقات ابن سعد (7 / 487)، الجرح والتعديل (8 / 399)،
تاریخ بغداد (13 / 226)، والسیر (9 / 80 - 86) وغيرها.

وناهيك عن رجل يمتدحه سفيان الثوري - وهو بالمكانة التي لا تخفي - فيسميه: «ياقوتا العلماء»، ومعلوم أن الياقوت نادر الوجود، وكذلك قصد سفيان أنّ مثل المعاف بن عمران نادر الوجود.

ويدرك المطلع على حياة «المعاف» سرّ هذا المديح العالي؛ إذ يرى رجلاً جمع العلم والعمل، والفقه والأدب، والغنى والزهد، والتواضع والكرم، فتذهب عن المطالع دهشة التعجب من المدح، ويكسوه بريق الإعجاب بالمدح.

فأيِّ رجلٍ كان المعاف؟

لامتنا المصادر بكثير من أخباره، لكنّ ما بين أيدينا منها كافٍ في الإخبار عما وراءه، وهذه نبذة عنه، مفيدة:

ولد الإمام الثقة «المعاف بن عمران» بمدينة الموصل، في سنة (121هـ)، وأخذ العلم عن علماء بلده، وتحصص في الحديث الشريف، يجمعه ويدرسه على أيدي المتخصصين، ولم يكتف بعلماء بلده - وهم كثرة كثرة - فحين أيقن أنه جمع ما عندهم من العلم خرج يرتحل طلباً للمزيد، فأخذ يتنقل في البلاد طلباً للحديث عند أهله المعروفيـنـ بهـ، وهذا شأنـ ذويـ الـهـمـةـ الـعـالـيـةـ؛ـ لاـ يـكـتـفـونـ بالـغـنـيـةـ الـبـارـدـةـ الـعـاجـلـةـ،ـ بلـ يـسـعـونـ فيـ تـحـصـيـلـ ماـ تـطـالـهـ أـيـدـيـهـمـ وـإـنـ كـاـبـدـواـ فـيـ سـيـلـ ذـلـكـ الـشـاقـ،ـ وـأـجـهـدـتـهـمـ الـأـهـدـافـ،ـ وـأـضـتـهـمـ

الغاية، فلا يحجزهم ذلك عن بذل وسعهم:

كُلَّ يَوْمٍ لَكَ احْتِمَالٌ جَدِيدٌ

وَمَسَيْرٌ لِلْمَجْدِ فِيهِ مُقَامٌ

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا

تَعَبَّتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

وَكَذَا تَطْلُعُ الْبُدُورُ عَلَيْنَا

وَكَذَا تَقْلُقُ الْبُحُورُ الْعِظَامُ

هكذا النفس حينما تسمو غاياتها وتتبلي أهدافها فإنها ترتفع
مطالع الجوزاء! ويتعجب الحسُّمُ في تحقيق غاياتها ومطالبيها، وخير
من ضرب المثل في هذه الرحلة هم أئمة الحديث، فأخبارهم في هذا
لا تُحصى، ومنهم -إمامانا- المعافى بن عمران، قال أبو زكريا⁽¹⁾:
«المعافى رجل جليل القدر والخطر في العلم وعند أهل الحديث
والفهم به من أهل الأمصار، وكان من العلماء الحكماء الذين يخشون
الله تعالى إن شاء الله تعالى، رحل في طلب العلم إلى الأمصار،
فكتب عنمن أدرك من علماء الحجاز، وأهل البصرة، وأهل الكوفة،
وأهل الشام، ومصر، والجزيرة، والموصل، وكان كثير الكتاب،

(1) صاحب «تاريخ الموصل».

كثير الشيوخ جدًا، أخبرت عن ابن أبي نافع، أخبرني أبي وأبو عبد الله الأغر أن المعاف قال: لقيت ثمانمئة شيخ⁽¹⁾.

ثمانمئة شيخ! لا غرو فلقد رحل في الحديث إلى البلدان
النائية⁽²⁾!

لقد رحل إلى أراضي الإسلام الواسعة وحواضرها المعروفة بالعلم، فلقي علماءها، وأخذ عن شيوخها، وجمع ما في صدورهم ودواوينهم من حديث رسول الله ﷺ، ونقله إلى الأجيال التي تلته، وما تزال الدنيا تنتفع بتراثه إلى يومنا، وسيبقى إلى أن تقوم الساعة، فآية بركة عمرٍ وعلمٍ هذه؟

كان شيخ الإسلام «المعاف بن عمران» رحمة الله تعالى ثقة خيرًا فاضلًا، صاحب هدي وسنة.

وهو معدود في أsexاء العالم وكرمائه، فقد كان يعطي العطاء الجزييل ويحود بالمال الكثير، الكافي، الدائم، فقد كان واسع الغنى كثير الشراء، وقد ذكروا أنه لشدة كرمه وسخائه كان لا يأكل وحده.

(1) إكمال تهذيب الكمال (11/255).

(2) تاريخ بغداد (15/303).

وكان يكرم أهل العلم بهاله غاية الإكرام ويخصهم بجزيل عطاياه، قال الهيثم بن خارجة: ما رأيت رجلاً آدب من المعاف بن عمران، وبلغنا أن المعاف كان أحد الأسيخاء الموصوفين، أفنى ماله الجود والحقوق، كان إذا جاءه مَغْلُهُ، أرسل منه إلى أصحابه [يعني العلماء والمحدثين] ما يكفيهم سنة، وكانوا أربعة وثلاثين رجلاً⁽¹⁾.

قال بشر الحافي: كان المعاف صاحب دنيا واسعة وضياع كثيرة، قال مرة رجل: ما أشد البرد اليوم، فالتفت إليه المعاف، وقال: أستدفأت الآن؟ لو سكت، لكان خيراً لك⁽²⁾.

وما ذكره بشر يقصد به أن هذا المال والثراء لم يمنعه أن يتعلم العلم ويتفقه فيه ويعمل بعلمه ذاك في أحواله جميعاً، ثم ضرب مثلاً من حاله في فضول الكلام -التي لا يرتفع العاملون إلى مقام الاحتراز منها إلا بعد أدائهم الفرائض وإتيانهم النوافل وفعلهم المستحبات- يريد أنه بلغ من العمل قمته.

ويعلق الذهبي على هذا الموقف بقوله: قول مثل هذا جائز، لكنهم كانوا يكرهون فضول الكلام، وخالف العلماء في الكلام المباح، هل يكتبه الملكان، أو لا يكتبه إلا المستحب الذي فيه أجر،

(1) تاريخ الإسلام (978 / 4).

(2) السير (84 / 9).

والذموم الذى فيه تبعه؟

والصحيح كتابة الجميع؛ لعموم النص في قوله تعالى: ﴿مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْتَدٌ﴾، ثم ليس للملكين اطلاع على النيات والإخلاص، بل يكتبان النطق، وأما السرائر الباعثة للنطق، فالله يتولاه⁽¹⁾.

وقد أنفق المعاف ماله كله في هذه السبيل المرضية فما جزع على فقده، قال بشر بن الحارث: «من ابتي في زوجة أو مال أو ولد فتلك المنزلة الشريفة، ثم قال: لقد رأيت المعاف أصيب بماله، وكان يذكر، فقال: لا تذكروه لي، وقتل ابنه فصبر واحتسب، وما رؤي

(1) ومن العلماء من ذهب إلى أن الملائكة تعلم ما في النية والنفس والقلب، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى: «كَرَامًا كَيْبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ» [الأنفاط: 11-12]. قال البغوي: «كَرَامًا» على الله «كَيْبِينَ» يكتبون أقوالكم وأعمالكم، «يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ» من خير أو شر، وقال ابن أبي العز: «... ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية؛ لأنها فعل القلب، فدخلت في عموم: «يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ»، وقال السفاريني: «وظاهر النص: أنها يكتبان أفعال العباد من خير، أو شر، أو غيرهما، قوله كان أو عملأ أو اعتقادا، هماً كانت أو عزماً أو تقريراً، فلا يهمان من أفعال العباد شيئاً في كل حال وعلى كل حال»، وللتفصيل والاسترادة راجع الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (245، 246 / 19)، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز: (273).

جزعاً قط، فهذا من سمع العلم فأنتفع به، والحديث فأخذ به»⁽¹⁾.
ولم يعدمه فقدان المال أخلاقه فعن رباح بن الجراح العبدى
قال: ربما أتى المعاف بقصعة، فياكل هو وأصحابه حين خف ماله،
أفناه الكرم والحقوق⁽²⁾.

لقد كان «المعاف» إلى جوار هذا الغنى والثراء معروفاً بالورع
والزهد، فعلى الرغم من أنّ ماله حلال، خالص، طيب إلا أنّه زهد
فيه وزهد في متعه وملذاته!

فقد أنفق «المعاف» رحمة الله تعالى كلّه على العلماء وطلبة العلم،
ووسع عليهم بما أطاعهم منه، أما هو فلم يختص نفسه من ماله
بقليل أو كثير، وهذا علي بن حرب الطائي يحكي عن حاله الذي
رأه عليه فيقول: «رأيت المعاف أبيض الرأس واللحية، عليه قميص
غليظ وكمه يبين منه أطراف أصابعه»⁽³⁾.

(1) إكمال تهذيب الكمال (11/ 254 وما بعدها)، مغلطاي، ت. أبو عبد الرحمن عادل بن محمد، أبو محمد أسامة بن إبراهيم، ط. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

(2) إكمال تهذيب الكمال (11/ 255).

(3) تاريخ الإسلام (4/ 978).

هذا هو الزهد الحقيقى، ورب الكعبة؛ أن تزهد فيما تملك،
وأن تزهد في الدنيا بقلبك وهي بيده، فإن بعض من لم يفهم
الإسلام ظنّوه دعوة إلى الفقر وخلوّ اليد من المال، وراحوا يصوّرون
ذلك للناس ويحبّبونه إليهم! بحسن قصد أو سوء، وهو لا ريب
خطأ على الإسلام وافتراء عليه فمن فعل ذلك فقد كذب على الله
ونبيه ودينه!

إن تحسين الفقر وتزيينه للناس جرم، وفعل هذا التزيين على
أساس من الشرع هو كبيرة من الكبائر!

ولله در العالمة محمد الغزالى رَحْمَةُ اللهِ إِذْ يَقُولُ: «كل دعوة
تحبّ الفقر إلى الناس، أو ترضيهم بالدون من المعيشة، أو تقنعهم
بالهون في الحياة، أو تصرّفهم على قبول البخس، والرضا بالدنيا،
فهي دعوة فاجرة، يراد بها التمكين للظلم الاجتماعي، وإرهاق
الجماهير الكادحة في خدمة فرد أو أفراد وهي قبل ذلك كله كذب
على الإسلام، وافتراء على الله».

لقد ملك أئمة الإسلام المال - وقبلهم أصحاب رسول الله
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بل وملكه رسل الله وأنبیاؤه - داود وسليمان وأیوب...
إلخ - وهم لاء خيرة الدنيا وصفوتها، فلم نعلم أنهم أقوى من

بيوتهم وخرائتهم في عرصات الطريق يتبرأون منه، نعم نفضوه من قلوبهم، لكن بقي في أيديهم ينفعون به أنفسهم ويعينون به غيرهم في سبيل الجنة ودرجاتها العالية، ونعم المال الصالح للعبد الصالح⁽¹⁾!

هل كان «المعاف» إذا عالماً محدثاً فقيهاً، وثرياً غنياً، وكريماً سخياً، وكفى؟ لا، بل كان -إضافة إلى هذا كله- حليماً؛ من ثبت الناس قلباً، وأربطهم جأشاً، وأصبرهم على مصيبة، وأمكنتهم على رؤية الخير المستتر وراءها، حتى قيل: إنه كان في الفرح والحزن واحداً؛ يعنون بذلك أنه ما كان يجزع عند مصيبة، بل كان يظهر هادئاً البال، ثابت الجنان، قويّ النفس، يتصرّف في الأمر على إحاطة كاملة برؤيه الشرع الكريم وأحكامه، وكان كذلك عند الفرح!

فقد ذكروا أن الخوارج قتلت ولدين من أبنائه، فبلغه خبر مقتلهم وعنه جماعة من أصحابه، فما ظهر عليه الجزع، حتى أكرم وفادتهم، وبعدما انتهوا قال لهم: «آجركم الله في فلان وفلان»!⁽²⁾

(1) تقدم تخرّجه.

(2) تاريخ الإسلام (978 / 4).

وقدم إليه النّاس يعزونه فيها ف قال لهم: إن كنتم جئتم تعزوني،
فلا تعزوني، ولكن هنّواني؛ فهناوه، وما برحوا من عنده -هم أيضًا-
حتى غداهم، وطبيهم بالمسك!

لقد كان المعاف إماماً في العلم، إماماً في العمل، حتى إن علماء
زمانه جعلوه ميزان أهل بلده وناحية؛ لا يأتיהם أحد إلا وسألوه
عن المعاف؛ فإن أحبه وأثني عليه بذلوا له ما يطلب وقدّموه وأكرموه،
وإن كان غير ذلك نبذوه ورفضوا أن يعطوه من العلم شيئاً،
فامتحنوه به.

ففي إكمال تهذيب الكمال عن يونس قال: «امتحنوا أهل
الموصل بالمعاف، فإن ذكره يعني بخير، قلت: هؤلاء أصحاب سنة
وجماعة، ومن عابه قلت: هؤلاء أصحاب بدع⁽¹⁾.
ولذلك كان أهل الموصل -بلده- يفتخرون به على النّاس⁽²⁾.
وقال الأوزاعي -وقد اجتمع عنده المعاف وابن المبارك وموسى
بن أعين-: هؤلاء أئمة الناس، ولكن لا أقدم على الموصلي أحداً⁽³⁾
يعني المعاف.

(1) إكمال تهذيب الكمال (11/254).

(2) إكمال تهذيب الكمال (11/255).

(3) إكمال تهذيب الكمال (11/254).

وكذلك قال عيسى بن يونس المحدث الكبير، فقد ذكر محمد بن عبد الله بن عمار قال: كنت عند عيسى بن يونس، فقال: أسمعت من المعافي؟ قلت: نعم، قال: ما أحسب أحداً رأى المعافي وسمع من غيره يردد علمه الله - تعالى -⁽¹⁾.

يريد أنّ من سمع منه اكتفى بما سمع ففيه الكفاية والغاية، إلا إذا كان يطلب العلم استكمالاً لطلب الدنيا، أو لحب الظهور بغراييه.

هذه بعض شمائل المعاف رَحْمَةُ اللَّهِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْعُلَمَاءُ، وَلَمْ أُذْكُرْ
جَمِيعَ مَا ذَكَرُوهُ مِنْهَا، وَرِبَّمَا لَمْ يَذْكُرِ الْعُلَمَاءُ جَمِيعَ شَمَائِلِهِ وَأَكْتَفُوا
بِعَضُهَا، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَنَعُودُ إِلَى السُّؤَالِ: أَيِّ إِنْسَانٍ كَانَ

فلا غرو امتدحه المؤرخون وامتدحه العلماء بل قبلهم جميًعاً
امتدحه الأئمة، ومنهم وكيع بن الجراح وسفيان الثوري وبشر بن
الحارث، والأوزاعي ويحيى بن معين وغيرهم من أئمة الإسلام
الكتاب في العلم والعمل.

المسير (1) / (93/83).

ومما قالوا فيه: كان «المعافي» من أئمة العلم والعمل، قل أن

ترى العيون مثله⁽¹⁾.

قال حرب بن إسماعيل: قال أحمد بن حنبل: معافي بن عمران،
شيخ له قدر - جعل يعظم أمره - وكان رجلاً صالحًا⁽²⁾.

وقال أحمد بن يونس: كان سفيان الثوري يقول: «المعافي بن
عمران ياقوتة العلماء».

وهذا بشر بن الحارث «الحارفي» يقول عنه: إني لأذكر المعافي
اليوم، فأنتفع بذكره، وأذكر رؤيته فأنتفع.

وبشر هو من هو في الزهد والورع والعمل بالعلم يقول هذا
عن المعافي!

بل إنه ليسأل: نراك تعشق المعافي؟ فيقول: وما لي لا أعشقه،
وقد كان سفيان الثوري يسميه الياقوتة؟⁽³⁾.

وينقل - أيضًا - عن ابن المبارك أنه كان يقول: حدثني ذاك
الرَّجُل الصَّالِح - يعني المعافي بن عمران - قال: وكان الثوري يقول
له: أنت معافي كاسمك، وكان يسميه: الياقوتة.

(1) السير (81/9).

(2) الجرح والتعديل (1735/8).

(3) السير (80/9).

قال: وكان الثوري يمتحن أهل الموصل به، قال بشر: وكان
المعاف محسوّاً بالعلم والفهم والخير⁽¹⁾.
فسبحان من خلق مثل هؤلاء من بني الإنسان!

صنف شيخ الإسلام «المعاف بن عمران» في الزهد، والسنن،
والفتن، والأدب وغير ذلك⁽²⁾.

توفي هذا الجبل رحمة الله سنة (185 هـ)⁽³⁾، في خلافة هارون
الرشيد⁽⁴⁾، عن نحو (60) عاماً⁽⁵⁾، وقد أوصى أولاده بوصية نافعة
عظيمة، كما يقول عنها الذهبي - تكون نحواً من كراس⁽⁶⁾.

وقد ظهر أثرها - مع أثر تربيته إياهم - في أولاده، فكان منهم

(1) التكميل في الجرح والتعديل (1/59)، ابن كثير ت. د. شادي بن محمد
بن سالم آل نعeman، ط. مركز العمان.

(2) السير (9/82).

(3) تاريخ الإسلام (4/978)، ذكر اختلافاً في تاريخ وفاته؛ هذه السنة،
وقبلها بسنة، وبعدها بسنة.

(4) إكمال تهذيب الكمال (11/255).

(5) الأعلام (7/260).

(6) السير (9/80).

العلماء الأماجِد وانظر ترجمة ابنه عبد الكبير في تاريخ الإسلام للذهبي⁽¹⁾، فنعم الرجل هو؛ لم يضيّع أبناءه، حين يضيّعهم كثيرون بحجّة أنّهم اشغّلوا عنهم بالعلم!.

وبعد، هذه أنسام أخبار سلفنا الصالح تفوق أنفاس الربيع،
وتضارع نور البدر وللاءه في الليل السطيع، فأين منها حالنا
اليوم؟

ولا بد لك - وقد مرّ بسمعك خبر هذا العالم الرحالة- من إشارات تقف عندها؛ ل تستفيد منها، فمن ذلك:

1) أَنْ تَبْصِرَ كُمْ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ قَضَاهَا هُؤُلَاءِ فِي طَلْبِ
الْعِلْمِ، بَعِيدِينَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالزَّوْجَةِ وَالْبَلْدِ، مُتَفَرِّغِينَ
لِطَلْبِ الْعِلْمِ وَحِفْظِ الدِّينِ.

وقارن هذه الحال بحال أهل زماننا من تغريط في الدين وعدم حرص على تعلمه.

2) مدى تحملهم للصعب، سيما وسائل السفر، وانظر لتقاعس أبناء عصرنا عن الارتحال ولو بالسيارات التي صارت

(١) تاريخ الإسلام (٦٢٣/٥).

الآن أسوأ سبل السفر في ظل وجود الطائرات بأنواعها المختلفة،
لتدرك علو هممهم في الصبر والتحمل، وتعلم غلاء العلم عليهم
وعلى قلوبهم، إذ ركبوا في تحصيله الصعب والذلول، وقطعوا
البراري والقفار، وامتطوا من أجله المخاطر والبحار، ولقوا ما لقوا
من الشدائـد والأهوـال ما الله به عـلـيم.

3) صقل تلك المعاناة لنفوسهم، فعزَّ العلم عندهم، ورعبوا
حق رعايته، ولذلك خرجو أئمَّةً أحبَّاراً في كل علم من العلوم، ولم
يجدُ الزمان بأمثالهم، لَمَّا لم يستنَّ النَّاسُ بِسُنْنِهِمْ⁽¹⁾.
وقارن بين هذا وبين حال طلبة العلم في عصرنا مَنْ يدرسون
دراسةً أكاديميةً أو من دونهم، يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة
رحمهُ اللهُ :

«فوازن - رعاك الله - بين الدراسة التي أثمرتها هذه الرحلات التي عرّكت الطلاب الراحلين عرّكاً طويلاً، وبين دراسة طلاب جامعاتنا اليوم! يدرسون فيها أربع سنوات، وأغلبهم يدرسون دراسة صحفية فردية، لا حضور ولا سماع، ولا مناقشة ولا اقتناع،

(1) منطلقات طالب العلم (ص 57) بتصرف كثير.

ولا تطاعم في الأخلاق ولا تأسى، ولا تصحيح لأخطائهم ولا تصويب ولا تشذيب لمسالكهم، ويتسقطون المباحث المظنونة السؤال من مقرراتهم (المختصرة) ثم يسعون إلى تلخيص تلك المقررات، ثم يسعون إلى إسقاط البحوث غير الhamahah من المقررات، بتلطفهم وتلقفهم لبعض الأساتذة، فيجدون ما يسرهم وإنْ كان يضرهم، وبذلك يفرحون.

وبعد ذلك يتعالون بضخامة الألقاب، مع فراغ الوطاب، ويتوسون الدعاوى العريضة، ويجهّلون العلماء الأصلاء بآرائهم المحتشة البتراء، وينصررون الأقوال الشاذة لتجانسها مع علمهم وفهمهم، ويناهضون القواعد المستقرة، والأصول الراسخة المتوارثة، ولم يقدعوا مقاعد العلم والعلماء، ولم يتذوّقوا بصارة التحصيل عند القدماء! ولكنهم عند أنفسهم أعلم من السابقين!!

ويشهد المراقب للحال العلمية اليوم: كثرة متزايدة في الجامعيين والجامعات، وفقراً متزايداً في العلم وأهله، وضحالة في الفهم والمعرفة، ونقصاً كبيراً مشهوداً في العمل بالعلم! وهذه مصيبة من أدهى المصائب! والله المرجو أن يلهم المنوط بهم أمور التعليم في البلاد الإسلامية أن يتبصروا بالأمر، ويتداركوا هذا

الخطر قبل تأصله وإزمانه، واستفحال آثاره.

ثم يقول: ولا أتحدث طويلاً عن المبعثين والراحلين اليوم من شبابنا، إلى بلاد الغرب والشرق من بلاد الكفار والأعداء للإسلام وأهله، فإن الناجي من براثن مكايدهم الخفية والظاهرة في العقيدة والخلق والتفكير والسلوك قليل، وكم من أبنائنا وشبابنا من وقع في حبائدهم، وذهب في سبلهم، ورضيهم قادة وسادة، ونزع - بالتالي - من ديار الإسلام إليهم، وتوطن بلادهم مسكنًا وداراً، واختارهم على أهله أهلاً وجاراً، وهو يظن بنفسه أنه يحسن صنعاً، نعوذ بالله من الخور بعد الكور، ومن الكفر بعد الإيمان»⁽¹⁾.



(1) صفحات من صبر العلماء (ص 109، 110).

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد



د. علیج بن احمد

التاجر الشري

والعالم العربي

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ
التَّاجِرُ التَّشِيرِيُّ وَالْعَالَمُ الْمَلِيُّ

ومن العلماء الأثرياء: دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ، الْمَحْدُّثُ، الْحَجَّةُ، الْفَقِيْهُ،
الْإِمَامُ، أَبُو مُحَمَّدِ السِّجِّسْتَانِيُّ ثُمَّ الْبَغْدَادِيُّ، التَّاجِرُ، ذُو الْأَمْوَالِ
⁽¹⁾ الْعَظِيمَةِ.

وَالَّذِيْلَجُ معناه: الشَّابُ الْحَسَنُ الْوَجْهُ النَّاعِمُ الْبَدْنُ، وَلَهُ
معانٍ⁽²⁾.

كان مولد «دَعْلَج» سنة (259هـ) أو قبلها بقليل، وكان تاجراً
يحب الآفاق، فنفعه الله بذلك نفعاً عظيماً؛ إذ سمع ما لا يوصف
كثرة من كتب الحديث، بالحرمين، وال伊拉克، وخراسان، والتواحي
كافة.

لقد كان دَعْلَجُ صاحب أموال جزيلة، أنفق أكثرها في العلم
وأهله، ومن العجيب أن هذه الأموال التي كانت لكثرتها تعباً في
أجولة وتجعل بدرأ لم تصرفه عن العلم والسعى فيه، فيا له من

(1) السير (30/16)، الذهبي، ت. الأرناؤوط وآخرين، ط. الرسالة.

(2) تاج العروس (5/569)، الزبيدي، ط. دار المداية.

صاحب همةٌ! ويا له من مجتهد صبارٌ!

إننا نتصور ما يكون عليه رجلٌ غنيٌ ملِيٌّ؛ إِنَّه يطلب الرَّاحَةَ لَا
رِيبَ!

خاصةً مع تعب التَّطَوَافِ فِي الْبَلَادِ!

لَكُنْ «دَاعِلَج» يَعْلَمُنَا أَنَّ اللَّذَّةَ وَالرَّاحَةَ لَيْسَتِ فِي اِمْتِلَاكِ الْأَمْوَالِ
الْطَّائِلَةِ وَالثَّرَوَةِ الْوَاسِعَةِ، فَمَا التَّرَوَةُ إِلَّا طَاقَةٌ يَجِدُّ بِهَا الْمَرْءُ الْعَهْدَ مَعَهُ
الْهَمَّةِ، وَلَئِنْ بَذَلَ شَيْئًا مِنْ عُمْرِهِ فِي طَلَبِ الْمَالِ، فَهُوَ بِاَذْلَهِ أَجْمَعَ فِيمَا
هُوَ أَفْضَلُ وَأَجْمَلُ وَأَكْمَلُ، هُوَ بِاَذْلَهِ فِي الْعِلْمِ، تَطْلَابًا لَهُ وَاجْتِهَادًا
فِي تَحْصِيلِهِ، وَقَدْ فَعَلَ!

وَقَدْ أَفَادَ ذَلِكُمُ الْإِمَامُ مِنْ هَذِهِ الرَّحَلَاتِ التِّجَارِيَّةِ الْكَثِيرَ،
فَتَتَلَمَّذَ عَلَى جِيلٍ مِنَ الْعَالَقَةِ، فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلَ،
وَالْعَبَاسُ بْنُ الْفَضْلِ الْأَسْفَاطِيُّ، وَأَبُو مُسْلِمِ الْكَجَيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ
غَالِبِ التَّمَّاتِمِ.

وَفِيهِمْ هَشَامُ بْنُ عَلِيٍّ السِّيرَافِيُّ، وَبَشَرُ بْنُ مُوسَى، وَمُحَمَّدُ بْنُ
إِبْرَاهِيمَ الْبُوْشِنْجِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّامِيِّ، وَإِمَامُ الْأَئْمَةِ
ابْنُ خَرِيمَةَ.

لقد شرع دَعْلَج يطُوفُ البلاد؛ يلقى علماءها ويسمع منهم، حتى سمع من محمد بن ريح البزار وغيره ببغداد، ومن عثمان بن سعيد الدارمي وغيره بهراء، ومن علي بن عبد العزيز وغيره بمكة، ومن محمد بن عمرو قشمرد وغيره بنيسابور، ومن عبد العزيز بن معاوية القرشي بالبصرة، ومن محمد بن أبيوب البجلي بالرّي، وعدد كثير غير هؤلاء، في غير هذه البلاد^(١).

لقد طَوَّفَ -إِذَا- ببلاد خراسان، وبالري، وحلوان، وبغداد، وبالبصرة، والكوفة، ومكة^(٢).. إلخ! فسبحان الله الذي يؤتي العزائم، ويرشدنا إلى سواء القصد، ويعينها على قصدها!

إنه لتأتيه «الثروة» معها الثقل والوهن والراحة والكسل، فلا يغُرّه ذلك بالاكتفاء والقنوع بدعوى التفرّغ للذات الحية، أو اقتناص الفرص التي فاتته في حياته الماضية، أثناء طلبه الكفاية من أرزاق الدنيا!

لم يكن «دَعْلَج» بذي الثروة التي تصنع به ثروته هذا، بل إنها تحمله على السمو حملاً، لكنها اجتمعت ثرواته وأمواله فكانت

(١) تاريخ الإسلام (٣٠/٨)، الذهبي، ت بشار، ط دار الغرب الإسلامي.

(٢) تاريخ بغداد (٣٨٧/٨)، الخطيب البغدادي، ت بشار، ط دار الغرب الإسلامي.

وقوًدا في همه وعزيمته؛ تؤزه إلى ما هو أسمى وأغلى، فلا غرو أن صار «شيخ أهل الحديث في عصره»⁽¹⁾ كما يصفه الحاكم، فيأخذ عنه العلم جيل تدين له كافة الأجيال التي جاءت من بعده؛ إذ حدث عنه الأئمة: الدارقطني، وابن جمیع الغساني، وأبو عبد الله الحاکم، وابن رزقویه، وأبو القاسم بن بشران، وعلی بن احمد البادی، وأبو علی بن شاذان، وأحمد بن ابی عمران المروی، وأبو إسحاق الإسپرایینی، وأبو عمر بن حیویه، وخلق من العظاء والکبراء سواهم⁽²⁾.

وهو لاء أغلب أئمة الشأن، وعلى كتب كثیر منهم فيه المعتمد، وما اجتمعوا على دعْلُج إلا لأنَّه صار ثقة ثبتاً.

وكان الدارقطني -الإمام الكبير ذو الشهرة التي طبقت الآفاق- يخدمه، حتى إنه رتب له مسنده، وكان هو المصنف لكتبه، يقول الدارقطني عن ذلك: صنفت لدعْلُج المسند الكبير، فكان إذا شك في حديث ضرب عليه، ولم أر في مشايخنا أثبت منه⁽³⁾.

(1) تاريخ دمشق (17/279).

(2) تاريخ الإسلام، (8/30).

(3) تاريخ بغداد (8/387 - 388).

ويكفيك فيه شهادة الدارقطني هذه، وقبلها تلمذ له، وهو من هو!

وقال الخطيب البغدادي: «كان ثقة، ثبتاً»⁽¹⁾.

وقال أبو العلاء: قال عمر البصري: «ما رأيت ببغداد من انتخبت عليه أصح كتاباً من دَعْلَج»⁽²⁾.

كان «دَعْلَج» من الأئمة الذين تلقوا الحديث على طريقته الأصلية، صيدلانيًّا طيباً، لم يكن بالصيدلاني يعرف الحديث ويعالج الإسناد وينقل الرواية فحسب كشأن كثير من المحدثين، بل كان محدثاً فقيهاً ذا قدرة على الاستنباط وأخذ الأحكام من الحديث،

فهو مثال حي لقوله عليه السلام: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَ مِنْهَا تَقْيِةٌ قَبْلَتُ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ»⁽³⁾

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) رواه البخاري (79)، ومسلم (2282).

وقد ترجمه تلامذته فذكروا أنه ثقة ثبت فقيه، هكذا تعديله عندهم؛ بالفقه والحديث معاً، بل يقدم لقب الفقيه في ترجمته على لقب المحدث، فهذا أبو عبد الله الحاكم يقول عنه: «دعلج الفقيه شيخ أهل الحديث في عصره»⁽¹⁾.

بل لقد بلغ «دعلج» في الفقه منزلة الفتوى؛ إذ «أول ارتحاله كان إلى نيسابور، فأخذ مصنفات ابن خزيمة، وكان يفتى على مذهبها»⁽²⁾.

وهو مترجم في طبقات الشافعية؛ ترجمة السبكي ضمن فقهاء المذهب، فقال: «الْفَقِيهُ الْمُعْدَلُ»⁽³⁾.

وترجمة ابن الملقن في «العقد المذهب في طبقات حملة المذهب»⁽⁴⁾. وفي ذلك عبرة أيماء عبرة لطالب الحديث، فهو وإن كان محموداً لا ريب على كثرة مروياته، وسعة اطلاعه على الأسانيد، وامتلاكه إجازات الشيوخ، إلا أن ذلك المدح يعظم إذا ضم إلى الرواية

(1) السير (31/16).

(2) نفسه (31/16).

(3) طبقات الشافعية الكبرى (291/3)، للسبكي، ط هجر.

(4) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص 236)، لابن الملقن، ط دار الكتب العلمية.

الدرائية، وجمع إلى معرفة الحديث وحفظه فهمه وفقهه، فنعني المحدث
يكون فقيهاً، حتى لا يكون الأمر على ما قاله الأديب الفقيه الشافعى
كمال الدين أبو الفضل الأدفوي (ت 748 هـ):

إنَّ الدروس بمصرنا في عصرنا

طبعت على لغط وفرط عياط

ومباحث لا تنتهي لنهائية

جدلاً ونقل ظاهر الأغلاط

ومدرس ييدي مباحث كلها

نشأت عن التخليط والأغلاط

ومحدث قد صار غاية علمه

أجزاء يرويه عن الدمياطي

وفلانة تروي حديثاً عالياً

وفلان يروي ذاك عن أسباط

والفرق بين غيرهم وغزيرهم

وأفصح عن الخياط والخناط

والفاصل النحير فيهم دابه

قول أرسطاطاليس أو بقراط

وعلوم دين الله نادت جهرة

هذا زمان فيه طي بساطي

ولى زمانى وانقضت أوقاته

وذهابه من جملة الأشراط

وهذا كلام يقال فيمن همته فقط أن يجمع علوماً ويجوي
محفوظات دون فقه أو فهم، وقد قيل: حديث يتداوله الفقهاء خير
من حديث يتداوله الشيوخ، ولام بعضهم الإمام أحمد في جلوسه
إلى الشافعي فقال: اسكت، فإن فاتك حديث بعلو تجده بنزول لا
يضرك في دينك ولا في عقلك، أو في فهمك، وإن فاتك عقل هذا
الفتى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيمة، ما رأيت أحداً أفقه في
كتاب الله من هذا الفتى القرشي، قلت: من هذا؟ قال: محمد بن
إدريس الشافعي.

أما إن اجتمعا - العلم والفهم - فنعمما هما، ونعمما الجامع لهما،
فذلك الخير كل الخير.

خلف دَعْلَجَ بعده من المصنفات العلمية ما استفاد منه تلامذته وأفادوا الدنيا من ورائهم، منها مسنده الذي رتبه الدارقطني تحت نظره وبإشراف منه، ومصنف فيه حديث شعبة، وثالث فيه حديث مالك، وله أيضًا «مسند المقلّين»⁽¹⁾.

كان عمل «دَعْلَجَ» التجارة، وقد درّت عليه مالًا وفيراً ورزقًا مديداً، حتى قيل: لم يكن في الدنيا أيسر منه من التجار، رَحْمَةُ اللهُ⁽²⁾. وقد نفعته التجارة مرات؛ نفعته في التوفّر على العلم؛ حيث رُزق وكُفِيَ.

ونفعته في التطواف على العلماء والرحلة للرواية عن المسندين، في شتى النواحي، بيسير وسهولة، حتى صار بحرًا في الرواية والدرایة.

ونفعته في إعانة غيره من الطلاب، ثم العلماء على مشاق الطريق؛ إذ كانت له صلات وصدقات ووقف على العلم وأهله. يقول عنه تلميذه أبو عبد الله الحاكم: «له صدقاتٌ جاريةٌ على

(1) الرسالة المستطرفة (73).

(2) السير (34/16).

أهل الحديث بمكة، وببغداد، وسجستان»⁽¹⁾.

في هذه البلاد وغيرها كان لهذا العالم الغني الميسور أهل صلة من العلماء والفقهاء، يمدّهم بما أمده الله به، يعرف لهم به حقهم، ويعينهم به على علمهم ومسئولياتهم، فيؤدي ما عليه لهم من حق ويشركهم في الأجر، ولا عجب فالمؤمنون بعضهم لبعض نصحة، متوادون، وإن بعده منازلهم وأبدانهم!

يقول الإمام المحدث الثقة المسند أبو عمر بن حيوة: أدخلني دعلج بن أحمد داره، وأراني بدرًا من المال معيّة، فقال لي: خذ منها ما شئت، فشكّرته، وقلت: أنا في كفاية وغنى عنها⁽²⁾.

وله في وصل العلماء بالهبات والعطاءات حيل طريفة وطرق ظريفة، منها ما حكى الدارقطني قال: بلغني أنه كان يبعث بمسنده إلى ابن عقدة؛ لينظر فيه، فيجعل بين كل ورقتين ديناراً⁽³⁾.

وإنه إذ يصل العلماء في زمانه ويكتفي أهل العلم في أوانه لا ينفكّ في صلة تنفق فتقطع، أو صدقة تعطى فتنتهي، بل يذهب إلى ما هو أبقى من ذلك وأدوم، فأنشأ وقوفاً محبيّة على أهل العلم،

(1) نفسه (31/16).

(2) تاريخ الإسلام (31/8).

(3) السير (32/16).

تدرّر لهم المال فيدوم ما دامت الوقوف قائمة، قال الخطيب: كان داعلّج من ذوي اليسار، له وقوف على أهل الحديث⁽¹⁾، نعم وقوف، على العلماء، وهو في الحياة يرعاها. وفي هذا عظات للمنافقين.

فيما أهيا المنافق! لا تنتظر بصدقتك الجارية حتى تقضى فتدعها في يد غيرك ينفقها عنك بعد رحيلك، أيّاً كان ذلك الغير وشدة ثقتك به، بل احرص أن تعمل ذلك بنفسك وأنت على قيد الحياة، وأن تستمرّ على الوفاء به حتى تأريك الوفاة، وأوص من يبقون بعده بالإنعام؛ فإن فعلوا كان خيراً، وإن فقد كتب أجرك إلى قيام الساعة، كاملاً؛ فإن «لكل امرئ ما نوى»⁽²⁾.

ويا أهيا المنافق! كن ذكياً في اختيار وقفك.

نعم يطلب إلى صاحب الوقف -وفقه الله- أن يكون ذكياً غاية في الذكاء، وإن فليسأل الأذكياء.

إن وقفك «أو صدقتك الجارية» هي عمرك الحقيقي، وعملك

(1) نفسه (16/31).

(2) متفق عليه؛ رواه البخاري (1)، ومسلم (1907).

النافع، وابنُكَ الحالد، فلا تتخذ قرارَكَ ب شأنه في لحظة ولا ما فوق ذلك، -نعم انوه الآن بإخلاص، واعقد العزم عليه فوراً بصدق - ثم ترُو في التنفيذ والاختيار حتى تقع على النافع فعلاً، الذي يستفيد منه الخلق بحق، لا تجر وراء الدائم الشائع الذي يعمله كل أحد، كن نادراً، وقدر ما يندر ما تقوم به يعم نفعه ويكثر دره الحسناتِ عليك.

وكذا كن ذكيّاً في إدارته وحسن نظره وتصريفه.

إن «دعلج» هذا الإمام العلّم يعلّمنا كل ذلّكم ب موقفه ذاك حسنَ النظر، وحسنَ الاختيار، وحسنَ الإداره؛ فهو يختار أن يضع أمواله في العلماء، ويجعل من بعضها وقفاً عليهم، ويعمل ذلك أثناء حياته، بنفسه، ليقوم عليه بحسن الإداره وإصلاح المسيرة ما حيي !

فلله دره !

وإنها للفترة ينبغي أن ينتبه لها الميسورون من أهل الفهم؛ إننا نتمنّى على أغنياء الأمة أن يتولّوا رعاية العلماء من الناحية الماديّة؛ ليسوا لهم مهتمهم، ولأن كثيراً منهم يعاني ظروفاً إن لم تقطعه عن مواصلة المسيرة فهي تبطئ به، لا ريب.

ولا يمكن أن نطلب من العالم تغيير مسار الأمة بإيقاظ غفلتها، وقيادة صحوتها، وتوجيه مسيرتها وهو يصبح ويمسي يفكّر في تأمين لقمة عيشه، لنفسه ولأولاده!

سيما ونحن في زمان يدبّر فيه ويخطّط لإنهاك طلاب العلم الشرعي والدعاة والعلماء مادياً، حتى صار جلهم في أدنى مستويات الفقر!

والأصل أن يوجد وقف إسلامي ينفق منه على العلماء -وطيلة حياة الأمة والواقفون يفعلون ذلك مشكورين مأجورين - لكن الدول نهبت الأوقاف وصادرتها وتركت العلماء كلاماً مستباحاً لكل من يملك قوّتهم؛ ليتحكم بسيبه في مواقفهم! لكن هيئات فهمل يهبّ أولو الفضل والسعنة لإنقاذ ملح البلد وعماد الأمة وقوامها؟

إن «دعلج» في هذا الموقف يلخص لنا الدرس الأعظم في الحياة، بوجه غاية في الوضوح والظهور، حين يتوجّه بالكفالة والرعاية لعلماء الأمة دون غيرهم؛ ليعرّفنا أنهم العنصر الرئيس في مجال الإصلاح العام، الذي يتبعه كل إصلاح، فصلاح العالم يصلح العالم.

وإضافة إلى إكرامه العلماء كانت لدعلي أفضال على عامة الناس تظهر خصائصه العظيمة وشمائله الكريمة، يكشف عن بعض ذلك ما نقله أبو بكر الخطيب قال: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدٍ بْنَ عَلَيْهِ بْنَ عَبْدَ اللَّهِ الْحَدَادَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالْقُرْآنِ وَالصَّلَاحِ، عَنْ شِيخِ سَمَاهِ، فَذَهَبَ عَنِي حَفْظُ اسْمِهِ، قَالَ: حَضَرَتِ يَوْمَ جَمْعَةَ مَسْجِدِ الْجَامِعِ بِمَدِينَةِ الْمُنْصُورِ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَبْيَنُ يَدِيِّ فِي الصَّفَّ حَسْنَ الْوَقَارِ، ظَاهِرُ الْخُشُوعِ، دَائِمُ الصَّلَاةِ، لَمْ يَزُلْ يَتَنَفَّلْ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ إِلَى قَرْبِ قِيَامِ الصَّلَاةِ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَ: فَعَلَتِنِي هِيَتِهِ وَدَخَلَ قَلْبِي مُحِبَّتِهِ، ثُمَّ أَقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَمْ يَصُلْ مَعَ النَّاسِ الْجَمْعَةَ، فَكَبَرَ عَلَيْهِ ذَلِكُ مِنْ أَمْرِهِ، وَتَعَجَّبَتِ مِنْ حَالِهِ، وَغَاظَنِي فَعْلَهُ!

فَلِمَ قَضَيْتِ الصَّلَاةَ تَقْدَمْتِ إِلَيْهِ، وَقَلْتُ لَهُ: أَيْهَا الرَّجُلُ مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْ أَمْرِكَ؟ أَطْلَتِ النَّافِلَةَ وَأَحْسَنْتِهَا وَتَرَكْتِ الْفَرِيضَةَ وَضَيَعْتَهَا؟

فَقَالَ: يَا هَذَا! إِنْ لِي عَذْرًا وَبِي عَلَةٌ مِنْعَنِي عَنِ الصَّلَاةِ، قَلْتُ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ عَلَيْهِ دِينٌ، اخْتَفَيْتُ فِي مَنْزِلِي مَدَةً بِسَبِيلِهِ، ثُمَّ حَضَرَتِ الْيَوْمُ الْجَامِعُ لِلصَّلَاةِ، فَقَبْلَ أَنْ تَقْامَ التَّفْتَ فَرَأَيْتُ صَاحِبِي الَّذِي لَهُ الدِّينُ عَلَيْهِ وَرَائِي، فَمَنْ خَوْفَهُ أَحْدَثَتِ فِي شَيْأِي، فَهَذَا

خبري، فأسألك بالله إلا سترت علي وَكتمت أمري، قال: فقلت: وَمن الَّذِي له عليك الدين؟ قال: دعلج بن أَحْمَد.

قال: وَكَانَ إِلَى جانبه صاحب دعلج قد صلَّى وَهُوَ لا يعرِفه، فسمع هذا القول وَمضى في الوقت إِلَى دعلج فذكر له القصة.

فَقَالَ له دعلج: امض إِلَى الرجل وَاحمله إِلَى الحمام وَاطرح عَلَيْهِ خلعة من ثيابي، وأجلسه في منزلي حَتَّى أُنصرف من الجامع، ففعل الرجل ذلك، فلما انصرف دعلج إِلَى منزله أمر بالطعام فأحضر فأكل هو والرجل، ثُمَّ أخرج حسابه فنظر فيه، وَإِذَا له عَلَيْهِ خمسة آلاف درهم، فَقَالَ له: انظر لا يَكُون عليك في الحساب غلط أَوْ نسي لك نقد، فَقَالَ الرجل: لا، فضرب دعلج على حسابه وَكتب تحته علامة الوفاء، ثُمَّ أحضر الميزان وَوزن خمسة آلاف درهم وَقَالَ له: أما الحساب الأول فقد حللناك مما بيننا وبينك فيه، وأسألك أن تقبل هذه الخمسة آلاف درهم، وَتَجْعَلُنَا في حلٍّ من الرُّوعة الَّتي دخلت قلبك بِرَؤْيَاكِ إِيَّانَا في مسجد الجامع⁽¹⁾.

الله تلك الشمائل والكرم!

(1) تاريخ بغداد (9/366).

ومن ذلك أيضاً أن أصحاب الحاجات والضوائق ومن نزلت به نازلة كانوا يأتونه فيجدون عنده الفرج، ذكر الخطيب البغدادي عن أحمد بن الحسين الواعظ قال: أودع أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي عشرة آلاف دينار لبيت، فضاقت يده وامتدت إلية⁽¹⁾، فأنفقها، فلما بلغ الغلام مبلغ الرجال أمر السلطان بفك الحجرة عليه وتسليم ماله إليه، وتقديم إلى ابن أبي موسى يحمل المال؛ ليسلم إلى الغلام.

قال ابن أبي موسى: فلما تقدم إلى بذلك ضاقت على الأرض بما رحبت وتحيرت في أمري لا أعلم من أي وجه أغرم المال! فبكرت من داري وركبت بغلتي وقصدت الكرخ، لا أعلم أين أتوجه! فانتهت بي البغلة إلى درب السلوبي، ووقفت بي على باب مسجد دعلج بن أحمد، فثنيت رجلي ودخلت المسجد فصليت

(1) تصرف ولي اليتيم في أموال اليتيم في مصلحة الولي، وقضاء حاجاته، وتنمية تجارتة، ونحو ذلك، لا يجوز، لأن ذلك ليس من الإصلاح لليتيم، وليس من قربانها بالتي هي أحسن، أما إذا أنفقها لحفظها لليتيم، بنية القرض؛ لكونه يخاف عليها إذا بقيت من التلف، أو السرقة، ونحو ذلك، ولم يجد ثقة يعمل في مال اليتيم، فهذا-والحالة هذه- يعتبر من الإصلاح، والحفظ لمال اليتيم، إذا كان الولي مليئاً، ليس على مال اليتيم خطر في بقائه في ذمته.

خلفه صلاة الفجر، فلما سلم انفتل إلى ورحب بي وقام وقمت معه ودخل إلى داره، فلما جلسنا جاءته الجارية بمائدة لطيفة وعليها هريسة، فقال: يأكل الشريف، فأكلت وأنا لا أحصل أمري، فلما رأى تصويري قال: أراك منقبضاً، فما الخبر؟ فقصصت عليه القصة وأنني أنفقت المال، فقال: كل فإن حاجتك تقضي.

ثم أحضر حلواً فأكلنا، فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا قال: يا جارية! افتحي ذلك الباب، فإذا خزانة مملوئة زبلاً⁽¹⁾ مجلدة، فأخرج إلى بعضها وفتحها، إلى أن أخرج النقد الذي كانت الدنانير منه، واستدعي الغلام والخت⁽²⁾ والطيار⁽³⁾، فوزن عشرة آلاف دينار، وبدرها، وقال: يأخذ الشريف هذه، فقلت: يثبتها الشيخ على، فقال: أفعل، وقمت وقد كاد عقلي يطير فرحاً، فركبت بغلتي وتركت الكيس على القربوس⁽⁴⁾ وغطيته بطيساني، وعدت إلى داري وانحدرت إلى دار السلطان بقلب قوي وجنان ثابت، فقلت: ما أظن إلا أنه قد استشعر فيّ أنني قد أكلت مال اليتيم واستبدلت به

(1) الزبل جمع زبيل كأمير: القفة أو الجراب أو الوعاء (القاموس).

(2) التخت: الكرسي أو المعد.

(3) الطيار: ميزان الدراهم.

(4) القربوس: حنو السرج، قال الأزهري: وللسرج قربوسان (انظر اللسان).

والمال، فقد أخر جته.

فأحضر قاضي القضاة والشهدود والنقباء وولاة العهود، وأحضر
الغلام وفَكَ حجره وسلَّمَ المال إليه، وعَظَمَ الشكْرَ لِي والثَّنَاءُ عَلَيْيَ.

فَلِمَّا عَدَتْ إِلَى مَنْزِلِي اسْتَدْعَانِي أَحَدُ الْأَمْرَاءِ مِنْ أَوْلَادِ الْخَلِيفَةِ
-وَكَانَ عَظِيمُ الْحَالِ- فَقَالَ: قَدْ رَغَبْتَ فِي مَعْالِمَتِكَ وَتَضَمِّنِينِكَ
أَمْلَاكِي بِبَادُورِيَا⁽¹⁾ وَنَهْرِ الْمَلَك⁽²⁾، فَضَمِّنْتَ ذَلِكَ بِمَا تَقْرَرُ بِيْنِي وَبَيْنِهِ
مِنَ الْمَالِ، وَجَاءَتِ السَّنَةُ وَوْفِيَتْهُ، وَحَصَلَ فِي يَدِي مِنَ الْرِّبْحِ مَا لَهُ
قَدْرٌ كَثِيرٌ.

وَكَانَ ضَمَانِي لِهَذِهِ الْضِيَاعِ ثَلَاثَ سَنِينِ، فَلِمَّا مَضَتْ حَسْبَتْ
حَسَابِي وَقَدْ تَحَصَّلَ فِي يَدِي ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَعَزَّلَتْ عَوْضَ
الْعَشْرَةِ أَلْفَيِّ الَّتِي أَخْذَتْهَا مِنْ دَعْلَجَ وَحَمَلْتَهَا إِلَيْهِ وَصَلَّيْتَ مَعَهُ
الْغَدَاءَ، فَلِمَّا اُنْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ وَرَأَيْتَ نَهْضَ مَعِي إِلَى دَارِهِ، وَقَدْمَ
الْمَائِدَةِ وَالْهَرِيسَةِ، فَأَكَلْتَ بِجَائِشِ ثَابِتٍ وَقَلْبِ طَيْبٍ، فَلِمَّا قَضَيْنَا

(1) بادوريا: ناحية من كورة الاستان بالجانب الغربي من بغداد (ياقوت).

(2) نهر الملك: كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى يقال إنه يشتمل على ثلث مئة وستين قرية (ياقوت).

الأكل قال لي: خبرك وحالك! فقلت: بفضل الله وبفضلك⁽¹⁾، قد أخذت بها فعلته معي ثلاثين ألف دينار، وهذه منها عشرة آلاف دينار عوض الدنانير التي أخذتها منك، فقال: يا سبحان الله! والله ما خرجت الدنانير عن يدي ونويت أخذ عوضها.

فقلت له: أيها الشيخ! إيش هذا المال حتى يهـبـ لي عشرة آلاف دينار، فقال: نشأت وحفظت القرآن وسمعت الحديث، وكنت أتبـزـ⁽²⁾، فوافـانيـ رـجـلـ منـ تـجـارـ الـبـحـرـ، فـقـالـ ليـ: أـنـتـ دـلـعـ بـنـ أـحـمـدـ؟ فـقـلـتـ: نـعـمـ، فـقـالـ: قـدـ رـغـبـتـ فـيـ تـسـلـيمـ مـالـيـ إـلـيـكـ؛ لـتـجـرـ بـهـ، فـمـاـ سـهـلـ اللـهـ مـنـ فـائـدـةـ كـانـتـ بـيـنـاـ وـمـاـ كـانـ مـنـ جـائـحةـ كـانـتـ فـيـ أـصـلـ مـالـيـ، وـسـلـمـ إـلـيـ بـارـنـاجـاتـ بـأـلـفـ أـلـفـ دـرـهـمـ، وـقـالـ ليـ: اـبـسـطـ يـدـكـ وـلـاـ تـعـلـمـ مـوـضـعـاـ يـنـفـقـ فـيـهـ هـذـاـ مـتـاعـ إـلـاـ حـمـلـتـهـ إـلـيـهـ وـاسـتـبـنـتـ فـيـهـ الـكـفـاءـةـ، وـلـمـ يـزـلـ يـتـرـدـدـ إـلـيـ سـنـةـ بـعـدـ سـنـةـ؛ يـحـمـلـ إـلـيـ مـثـلـ هـذـاـ، وـالـبـضـاعـةـ تـنـمـيـ.

(1) هذا القول لا يجوز، والصواب أن يقول: بفضل الله ثم بفضلك؛ لما ثبت في المسند والسنن أن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، رواه أبـدـ (23313)، وأبـوـ دـاـوـودـ (4980) وصحـحـهـ الـأـلـبـانـيـ فـيـهـ، فـنـهـيـ مـطـلـقـاـ عـنـ وـاـوـ التـشـرـيـكـ.

(2) البزار: مَنْ يَتَجَرُّ فِي الشَّيْبِ.

فلما كان في آخر سنة اجتمعنا فيها قال لي: أنا كثير الأسفار في البحر فإن قضى الله علي بها قضاه على خلقه فهذا المال لك، على أن تصدق منه وتبني المساجد وتفعل الخير، فأنا أفعل مثل هذا، وقد ثمر الله المال في يدي، فأسألك أن تطوي هذا الحديث أيام حياتي⁽¹⁾.

ليس هذا -الجود على أهل العلم وذوي الصائقات- عمل دعلج فحسب، فقد جاء في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، أنه دخل الشام، ومر باللغور الشاميّة، ووقف بطرسوس داراً على المجاهدين في سبيل الله تعالى، ووقف عليها وقفاً، وكان كثير المعروف والصدقات⁽²⁾.

لقد استفاد «دعلج» من ماله -إذن- وأفاد غيره، على خير ما يكون!

وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «نعم المال الصالح للعبد الصالح»⁽³⁾.

(1) تاريخ بغداد (9/366).

(2) بغية الطلب في تاريخ حلب (7/3531)، لابن العديم، مكتبة الثقافة الدينية.

(3) رواه أحمد (4/197)، وغيره، وصححه الألباني.

لقد أكرمه الله بالمال فعرف كيف يكرم به نفسه في الدنيا
والآخرة ويسوق الكرامة إلى غيره.

ويظهر أنّ «دعلج» لم يختلف وارثاً؛ إذ وقفت في السير على
قول أبي ذر الھروي: سمعت أن معز الدولة أول ما أخذ من
المواريث مال دعلج، خلف ثلاثة ألف دينار⁽¹⁾، إن لم يكن ذلك
غصباً، فإن معز الدولة هذا كان شيئاً بويهياً وهو أول من تسلّط
على الخلافة في بغداد بعد ضعف شأنها في أواخر عهد الدولة
العباسية سنة (334 هـ).

ثم وقفت على قول أبي عبد الله الحاكم: «كان السلطان لا
يتعرض لتركة، ثم لم يصبر عن أموال دعلج»⁽²⁾!

ولكن لئن كان ذلك الظالم قد اعتقدى على أمواله واغتصبها،
إلا أنه ترك أوقافه⁽³⁾، فلم يغتصبها كما غصب ما خلفه من أموال
فبقيت صدقة جارية عليه بالخير إلى ما شاء الله.

(1) السير (34/16).

(2) نفسه.

(3) نفسه.

وكان «دعلج» قد اختار أولاً الإقامة في مكة المكرمة؛ رغبة في جوار البيت، وخدمة زائرية، ومحبة في نفعهم بما يستطيع، فاشترى بمكة دار العباسية بثلاثين ألف دينار⁽¹⁾، وجاور بها مدة، لكن حادثة وقعت له وقتئذ جعلته يحجم عن إتمام قصده، ويقصّ أبو العلاء الواسطي أن دعلجًا سُئل عن مفارقته مكة، فقال: خرجمت ليلة من المسجد، فتقدم ثلاثة من الأعراب، فقالوا: أخ لك من خراسان قتل أخانا، فنحن نقتلك به! فقلت: اتقوا الله، فإن خراسان ليست بمدينة واحدة، ولم أزل بهم إلى أن اجتمع الناس وخلوا عني⁽²⁾.

وتحول بعدها إلى بغداد، فأقام بها، وطاب له المقام هناك، حتى كان يقول: ليس في الدنيا مثل داري، وذلك لأنّه ليس في الدنيا مثل بغداد، ولا ببغداد مثل محلّة القطّيعة، ولا في القطّيعة مثل درب أبي خلف، وليس في الدرب مثل داري⁽³⁾.

وفي عام (351 هـ) توفي دعلج بن أحمد بن دعلج المعدّل، هذا

(1) السير (34 / 16).

(2) المنظم (7 / 10) ابن الجوزي، دار صادر.

(3) تاريخ بغداد (8 / 389).

العلم الكبير⁽¹⁾ الذي ملأ زمانه علمًا وفقهًا، وملأه كذلك جودًا وسخاء وكرمًا، وهو ابن اربع أو خمس وتسعين سنة، وشاء الله أن يكون العام الذي شهد موته هو نفس العام الذي شهد موت شيخ القراء والمفسرين أبو بكر النقاش ببغداد، ومحدث الكوفة أبو جعفر بن دحيم، ومسند بغداد ميمون بن إسحاق صاحب العطاردي.

رحم الله الجميع وألحقنا بهم على خير.

وإنّ في حياة «دعلج»، هذا التاجر العالم، والشري المحدث، والمليّ الفقيه لعبّرًا لأولي الأ بصار؛ في همته وترحاله، وفي بره وإفضاله!

ومن هذه العبر: استغلال الممكن من الأسباب، فهذا -دعلج- رجل وظّف إمكانياته في تحقيق هدفه، فنعتّ ما فعل؛ إذ استوضح الهدف، وسدّد إليه القصد والعزّم، واستغلّ كل إمكاناته للوصول إليه!

وأول خطوات تحقيق هدفك -يا طالب العلم- أن تحدّد

(1) للنظر في سيرة «دعلج» والاستزادة من أخباره، راجع: تاريخ بغداد 8/387 - 392، والسير (30)، وتأريخ الإسلام الطبقة (54)، والمنتظم (7 - 10)، ووفيات الأعيان (271 - 272) وغيرها.

هدفك، وأن يكون على أساس نقاط قوتك، ثم تضعه على رأس أولوياتك واهتماماتك، وتصوّب إليه كل عزّتك وتسعى إليه بكلّ همتك، لا تدّخر في سبيل ذلك أيّ شئ قد يساعدك على تحقيق هذا الهدف! وضع نصب عينيك أن هدفك عظيم، ومن ثم فالتضحيات أيضًا لأجله -بالتحلي أو التخلّي- يجب أن تكون عظيمة، فإنه:

عَلَى قَدِيرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدِيرِ الْكِرَامِ الْكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمِ

واحدر، وقد سعيت إلى هدف غالٍ، أن تنسيك معانٍم الطريق أو مغارمه هدفك الذي تسعي فيه!
واستعن بالله -أخي- ولا تعجز!





تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

القادر بالله

رأس الخلفاء والفقية المصنف

التاريخ بالنسبة لآية أمة هو مجال اعتزازها وموطن القدوة فيها، ومن ثم يعمد أعداؤها إلى تشويهه في محاولة منهم للقضاء على أسوة الأمة، فيفسد عليها صنع حاضرها، فإنه لا حاضر لأمة تختقر ماضيها، ولا مستقبل لأمة تهمل حاضرها، ومن ثم فقد تعرض التاريخ الإسلامي من قبل أعدائنا لأكبر قدر من الغزو الفكري، وركز هؤلاء الأعداء على تشويه تاريخ الأمة الإسلامية، وقد نجح عملهم هذا في حصاد أهدافه إلى حد كبير، فأعرض المسلمون عن تدبره، وربما ابتعدوا عن تذكره، وعدوا ذكره عيباً أو شيئاً.

إنّ تاريخ الأمة الإسلامية تاريخ حافل بالأمجاد، وهو بلا شك إذا تدبرته الأجيال كان باعثاً لهم على النهوض والتمسك بالمبادئ والآداب والقيم التي جعلت الأجداد يحوزون هذا المجد والفاخر، ويصلون إلى هذا المستوى الراقي في بناء الأمة والحضارة، ويبيحثون عن السر الذي رفعهم إلى هذا المستوى، وأنه هو إيمانهم بالله وتمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل الله، ومن ثم يسعون لانتشار

أنفسهم من الوضع المتردي الذي وصلوا إليه، وأمامهم الصورة الجلية والقدوة الممتازة في شخص رسولنا الكريم ﷺ الذي أخرج الله به الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الشرك والأهواء وتحكم الطواغيت إلى التوحيد والعدل والأمن والطمأنينة، ومن الفقر وضيق الحال والشتات إلى الغنى وسعة الدنيا والآخرة والاعتصام بحبل الله.

وكذا أصحابه رضي الله عنهم الذين حملوا الراية وآذروه ونصروه، وأيضاً بقية الأجيال من السلف الصالح من العلماء والزعماء والقادة والمصلحين والدعاة إلى الحق.

والنهاذج الممتازة في التاريخ الصالحة للقدوة ليسوا أفراداً يمكن حصرهم، ولكنهم أجيال وأجيال، في مجالات الحياة كافة؛ العسكرية والسياسية والتربوية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا لا يوجد في تاريخ أية أمة أخرى؛ لما لهذه الأمة من خاصية الاستمساك بالمنهج الرباني.

وال التاريخ الإسلامي هو الذي يسجل هذه الصور السامة ويووضح دور الأمة وأثرها وفضلها على البشرية، ولذلك لا تستغرب إذا ركز الأعداء في غزوهم الفكري على التاريخ

الإسلامي حتى ناله كثير من التشويه والتحريف والتجهيل والتزيف والتفسير الخاطئ لأحداثه ومزاحمته بتواريخ الأمم الجاهلية حتى يبدو حلقة صغيرة أو كَمِّاً مهملًا في تاريخ البشرية.

ولقد قام على تشويه التاريخ الإسلامي في العصر الحديث جيش بل جيوش من أذناب الاستشراق والتنصير ودوائر البحث ومكاتب المخابرات في الدول الغربية، واستطاعوا أن يجندوا مجموعة من ضعاف النفوس والمغررين والجهلة وضحايا الغزو الفكري في العالم الإسلامي لمساعدتهم ونشر أفكارهم بين المسلمين⁽¹⁾.

ولم يتعرّض منصب في تاريخ الإسلام للتشويه والتزيف مثلما تعرّض منصب الخليفة؛ فادعىـت على الخلفاء الدعاوى وروجـت عنـهم الأكاذـيبـ، وصـورـ الخليـفةـ بـصـورـةـ العـابـثـ الـلاـهـيـ الـذـيـ لاـ هـمـ لـهـ إـلـاـ مـعاـقـرـةـ الـخـمـرـ وـمـضـاجـعـةـ النـسـاءـ وـحـضـورـ الـخـفـلـاتـ الـراـقـصـةـ وـمـنـادـمـةـ الـشـعـرـاءـ وـالـأـدـبـاءـ فـيـ مـجـالـسـ الـلـلـيلـ !

وليس الأمر كذلكـ، بل سـاءـهـمـ أـنـ تـعـرـفـ الـأـمـةـ تـارـيـخـهـاـ

(1) وسائل الغزو الفكري في دراسة التاريخ، مقال: محمد بن صامل السلمي، مجلة البيان، عدد (20).

وتتّقدّب فيه عن قدواتها، فإذا هي تُتّخذ من هؤلاء الخلفاء أسوة ومتّلأ يحتذى في مجالات الدين والدنيا، فإنّهم كانوا -فعلاً- كذلك؛ والأمثلة على هذا لا تقع تحت الحصر، وفي هذه السطور نلتقي بوحد من هؤلاء الخلفاء العظام، قدوة طيبة في مجال الملك والحكمة معًا، فهو خليفة من الخلفاء الذين كانوا على بسطة عظيمة من حكم وإدارة الدولة، وهو أيضًا عالم من العلماء الذين آتاهم الله العلم والحكمة، وهو الخليفةُ القادر بالله، أبو العباس، أحمد بن الأمير إسحاق، أحد خلفاء بنى العباس، ورأسمهم.

كان الخليفة «القادر بالله» من جيل الخلفاء وأمثالهم⁽¹⁾، بل هو رأس الخلفاء الذين آتُوا بعده جمِيعًا؛ وقد طلب العلم حتى تفقهه، وصنف، وناهيك بأنّ الشيخ تقي الدين ابن الصلاح عَدَه من الفقهاء الشافعية، وأورده في طبقاته⁽²⁾!

لم يكن القادر ابن خليفة، إنما كان أبوه أميرًا من الأمراء، بينما كانت الخلافة في أعمامه، فلما خلع الناس «الخليفة الطائع» بعثوا في طلبه من مكان إقامته، وولوه الخلافة فكان بها خليقًا، يذكره

(1) السير (15/127).

(2) طبقات الشافعية (324/1) ابن الصلاح، وانظر: طبقات الشافعية (310/2) الإسنوبي.

الحافظ ابن كثير فيقول: كان الخليفة «القادر بالله» من خيار الخلفاء،
وسادات العلماء، في ذلك الزمان⁽¹⁾.

ولد «الخليفة العالم» سنة (336)، وتوفي سنة (422)، فكان عمره (87) سنة، وهو عمر لم يبلغه أحد من الخلفاء على الإطلاق!
وبويع له بالخلافة سنة (381)، واستمر فيها حتى وفاته،
فدامت بذلك خلافته (41) عاماً، وهذه المدة من أطول المدد في
الخلافة.

كان «القادر» خليفة مهيباً، وعالماً وقوراً، وعابداً متألهًا، وكان من الستر، والديانة، والسيادة، وإدامة التهجد بالليل، وكثرة البر والصدقات، وحسن الطريقة، على صفة اشتهرت عنه وعرفه بها كلُّ أحد، مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد⁽²⁾.

قال عنه ابن كثير: - وقد كان حليماً كريماً، محباً لأهل العلم والدين والصلاح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان على طريقة السلف في الاعتقاد، وله في ذلك مصنفات كانت تقرأ على الناس، وكان أبيض، حسن الجسم، طويل اللحية، عريضها،

(1) البداية والنهاية (11/331).

(2) السير (15/127).

يُخضبها، وكان يقوم الليل، كثير الصدقة، محباً للسنة وأهلها، مبغضاً للبدعة وأهلها، وكان يكثر الصوم ويَبَرُّ الفقراء من أقطاعه؛ يبعث منه إلى المجاورين بالحرمين، وجامع المنصور، وجامع الرصافة»⁽¹⁾.

ويذكر المؤرخون أنّ «ال الخليفة العالِم» كان قائماً بحق منصبه الذي بوأه الله، وكان كذلك قائماً بحق العلم الذي وهبه الله إياه، يخدم العلم بمنصبه ويُسخره لتحقيق الأهداف النبيلة.

وقد كانت الخلافة قبل «القادر بالله» مطمع الفرق من الدليل والأتراء، فلما ولّها أعاد جدّتها، وجدد ناموسها، وألقى الله هيبيته في قلوب الخلق، فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها.

كما أَنَّه عمل في نفسه ودولته بموجب علمه الذي تعلّمه، ولنعم ما علم وعمل، حتى وصفه صاحب ذيل تجارب الأمم الروذراوري رَحْمَةُ اللهُ قائلاً: «سلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه، فكان راهب بنى العباس حقاً، وزاهدهم صدقأً، ساس الدنيا والدين، وأغاث الإسلام والمسلمين، واستأنف في سياسة الأمر طرائق قويمة، ومسالك مأمونة، لم تعرف منه زلة، ولا

(1) البداية والنهاية (15 / 637).

ذمت له خلة، فطالت أيامه، وطابت أخباره، وأفقيت آثاره،
وبقيت على ذريته الشريفة أنواره⁽¹⁾.

طلب «القادر» العلم، وجد في طلبه، وهيا الله له الفقيه الشافعي والحافظ الصادق الرحال محمد بن يوسف ابن بشر المروي⁽²⁾؛ فتفقه على يديه، وبلغ في الفقه درجة جعلت المؤرخين يسجلونه في فقهاء الشافعية، وترجم في طبقاتهم، وكان أيضًا على علم عظيم باعتقاد الصحابة والتابعين، وكان لذلك أثره العظيم في مستقبل حياته سلوكًا وعملاً، ظهر في سياساته وخلافته كما ظهر في مؤلفاته ومصنفاته.

ألف «الخليفة أبو العباس» مصنفات كثيرة، ظهر خالها فضله ووضح بها قدره وعلمه، منها:

كتابه «فضائل الصحابة»، وهو كتاب في علم أصول الدين،

(1) ذيل تجارب الأمم (3/207، 208) الروذراوري.

(2) راجع ترجمته في وفيات الأعيان (2/75)، والسير (15/105)، وشذرات الذهب (2/328)، وغيرها.

على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، بين فيه فضل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأورد مناقبهم.

وله أيضاً: كتاب عن فضائل عمر بن عبد العزيز.

وكتاب عن إكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن.

ورسالة بين فيها الاعتقاد الصحيح، وقد احتفل العلماء وال العامة برسالته هذه فكانت تقرأ كل جمعة، في حلقة أصحاب الحديث، بجامع المهدى، وبحضورة الناس.

ويذكر ابن كثير أنه صنف قصيدة فيها فضائل الصحابة، وغير ذلك⁽¹⁾.

ومن الواضح في أسماء هذه الكتب أنها تدور في فلك التأليف ب مجال الاعتقاد، ولعل هذا بسبب ما كان يشغل زمانه من قضايا، فقد برزت على ساحة العلم والواقع وقتها فرق المعتزلة والشيعة وشغلت الناس كثيراً، لا سيما ولم يكن مرّ وقت طويلاً على محنّة خلق القرآن التي كان المعتزلة رأسها وأسّها، وأيضاً كان دعاء الحاكم بأمر الله العبيدي قد انبثوا من مصر وغيرها في أطراف

(1) البداية والنهاية (11/331).

الدولة الإسلامية يدعون الناس إلى دينهم !

وهكذا ينبغي على العالم أن تشغله قضايا زمانه ويعي الواقع المعاصر له، إذ لا ينبغي أن يكون العلماء والدعاة بأطروحتهم وأحاديثهم في وادٍ، وأن تكون الأمة بجراحها وألامها في وادٍ آخر !

نعم التخصص مطلوب، بل لا بد منه لكي يُتقن الإنسان فنًا أو مجالًا، لكن ليس معنى ذلك أن نعزل عما يشغل الناس، وإنما ضاعوا وحوسنا على ضياعهم، وكما يطلب من العالم التوازن بين واجب النفس وواجب الأمة، يطلب إليه كذلك التوازن بين متطلبات التخصص والاهتمام بتسيير بعض منها في خدمة القضايا التي تشغل الجماهير.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ وجد شيئاً كثيراً في معرفته بواقعه وأحوال زمانه، بل وفي خبرته بطبع الأشخاص وميولهم، وكذلك كان الصحابة رضوان الله عنهم، ومثلهم علماء السلف مع ما كان في هذا الزمان من قلة الأخبار، وصعوبة الاتصال، وندرة وسائل المعرفة والاطلاع !

وفي القرآن: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَتِ وَلِتَسْتَيْنَ سَيِّلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55]، وأيات غيرها كثيرة تحرض المؤمنين على التبصر

بزمانهم، وتحضّر أهل العلم على تقديم الحلول الإسلامية
الصحيحة لقضايا الناس.

وفي السنة نراه عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعْدٍ يجعل وجهة صحابته في الهجرة بلاد
الحبشة، معزّزاً ذلك بقوله: «إِنْ فِيهَا مَلَكٌ لَا يَظْلِمُ عَنْهُ أَحَدٌ»⁽¹⁾،
وهذا يدل على معرفته عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعْدٍ بأحوال الأمم في زمانه.

ومن قول بعض السلف: «رَحْمَةُ اللَّهِ أَمْرًا عَرَفَ زَمَانَهُ فَاسْتَقَامَتْ
طَرِيقَتِهِ».

كان القادر رَحْمَةُ اللَّهِ من أكثر الخلفاء رفضاً لفكرة التشيع
والرفض، فيما كان شكله ونوعه؛ لإدراكه بعلمه خطورة الجسيم
الذي يهدّد الأمة، فهو في هذا الباب قدوة للخلفاء والعلماء.

فألف القادر المصنفات في الرد على المبتدةعة بغية تحضير
شوكتهم، هذا بحكم علمه، أما بحكم منصبه فقد اتخذ إجراءات
عملية كان من أثراها أن محا فكر الاعتزال، ونقص التشيع من بغداد
وسائر أنحاء الدولة وتواري.

(1) آخر جه البخاري (3659).

لقد رصد حركة نشطة للدعوة إلى التشيع، فأمر بعمل محضر يتضمن الكشف عن حقيقة نسب العبيدية - حكام مصر وقتها - وأنهم حقيقة منسوبون إلى ديسان بن سعيد الخرمي، لا إلى آل البيت عليهم السلام، ودعوتهم - كنسبتهم - ليست من الحق في شيء، وأن الحاكم بأمر الله هذا هو وسلفه أرجاس أنجاس، خوارج، أدعية، وأنهم كفار زنادقة، ولذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، وهذا عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية.

وقد أشهد القادر العلماء على ذلك المحضر، فشهدوا جميعاً⁽¹⁾، ثم أمر بثّه ونشره في الناس.

وأمر الخليفة ببث السنة في جميع أنحاء خلافته، وبعث فيها بعث إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوی في الهند بذلك، فامثل ابن سبكتكين لأمر أمير المؤمنين القادر، واستن بنته في أعماله التي استخلفه عليها من بلاد خراسان وغيرها، حتى إن الحاكم - العبيدي الراضي - بعث إلى السلطان محمود داعيًّا يدعوه إلى طاعته، فما كان من السلطان إلا أن خرق كتابه وبصق عليه،

(1) السير (15/132)، والمنتظم (15/82 - 83).

و عمل على بث السنة بِمِكَاهَةِ الْمَكَاهَةِ، بل هدد بقتل الرافضة، والإسماعيلية، والقراطمة، والمشبهة، والجهمية، والمعزلة، وأمر بأن يلعنوا على المنابر، وأبعد جميع طوائف أهل البدع، ونفاهم عن ديارهم، وصار ذلك سنة في الإسلام^(١).

وقد شجّعت مواقف القادر الخطباء والعلماء على الوعظ والتصنيف والتأليف في كشف زيف هؤلاء المدعين، فقام الخطباء بتبصير الناس بحقيقةتهم، لا سيما وقد عزل خطباء الشيعة وولي خطباء السنة⁽²⁾، وجازى العلماء جزاء حسناً وما لا عظيماً على جهودهم في التأليف في هذا الغرض، ولما صنف الإمام «علي بن سعيد الاصطخري» كتاب «الرد على الباطنية»، أجرى عليه القادر جرایة سنیة⁽³⁾.

وأيضاً استتاب من خرج عن السنة من المعزلة والرافضة
ونحوهم⁽⁴⁾.

ولما وقعت الفتنة العظيمة الطويلة بين الشيعة والسنّة ببغداد،
وُقتل فيها جمّع كبير، حتى كاد أن يقتل فيها علماء الإسلام كالشيخ

(135 / 15) السر (1)

(2) البداية والنهاية (15/626).

(3) البداية والنهاية (11 - 346 - 352).

4) الصواعق المرسلة (1286/4).

أبي إسحاق الإسفرايني وغيره، وحين بلغ ذلك الخليفة غضب وبعث أعوانه لنصرة أهل السنة، فحرّقت دور كثيرة من دور الشيعة، وانكسر الروافض⁽¹⁾.

وأجرت فتنة أيضًا بمسجد براشا، وضربوا الخطيب السنّي بالأجر، حتى كسروا أنفه وخلعوا كتفه، فانتصر لهم الخليفة وأهان الشيعة وأذّهم، حتى جاؤوا يعتذرون مما صنعوا، وأن ذلك إنما تعاطاه السفهاء منهم⁽²⁾.

لقد وقف القادر في هذه الفتنة إلى جوار أهل السنة حتى نصرهم، وأعزّهم الله به، كما ي ملي عليه دينه وعلمه الذي تعلّمه.

وهكذا ينبغي أن يتقطن المسلم - حاكماً ومحكوماً - لما يتهدّد دينه من مخاطر وما يدهمه من خطوب، نحن في غنى عن الإشارة إلى الخطر الداهم الذي يتهدّد بلاد المسلمين اليوم من قبل الشيعة، في إيران، والبحرين والجزيرة، ولبنان، وغيرها من بلاد المسلمين، ويزداد الأمر سوءاً بغفلة المسلمين عن دينهم فضلاً عن قدرتهم على دفع الشبهات عن أنفسهم، الأمر الذي يستدعي جهوداً كبيرة

(1) البداية والنهاية (11 / 389).

(2) البداية والنهاية (15 / 626).

من آحاد المسلمين، وحكامهم على سواء، فهل لهذا الخطر من قادر
بإله، يوقف زحفها من جديد؟

وإن كان يطمئننا -رغم كُل ذلك- أنَّ الله تعالى يدبر لدینه ولا
يدعه، فإن من أعظم نتائج الحروب التي تشهدها الأجيال الحالية
تصحيح الاعتقاد بشأن الروافض، والتعرّف بوسائل وأدلة عملية
على خبثهم ومقارنتهم دين الإسلام بالكلية، وكُنّا قدّيماً نستغرب
مثل ما أسنده الالكائي عن الحسن بن عمرو وأنه قال: قال طلحة
بن مصرف: لو لا أني على وضوء لأخبرتك ببعض ما تقول الشيعة!

استتاب القادر فقهاء المعتزلة، كذلك، فتبرأوا من الاعتزال
والرفض، وأخذت خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوا أهل بهم
من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثلهم⁽¹⁾.

الحق أن الفضل يرجع إلى الخليفة القادر في حفظ دولة الإسلام
من خطر المعتزلة، والحمد لله من فكر الروافض، في عهده والعقود التي
تلته، إلى زمن طوبل، وذلك بفضل ما قام به من أعمال، وقد كانت
الوثيقة القدرية أعظم أعماله في هذا الشأن، فماذا عنها؟

(1) السير (15/134)، وال عبر (3/98).

الوثيقة القادرية -أو الاعتقاد القادرى-: هي وثيقة أصدرها الخليفة القادر بالله سنة (408)، وقد حددت المعتقدات التي يجب على المسلمين اعتقادها من عقيدة أهل السنة والجماعة، وحدّرت من معتقدات أهل البدع من سائر الفرق.

وكانت قد انتشرت إذ ذاك دعوة الملاحدة المنافقين، وكان هذا مما دعا القادر إلى إظهار السنة، وقمع أهل البدع، فكتب الاعتقاد القادرى، وأمر باستتابة من خالف ذلك من المعتزلة وغيره⁽¹⁾.

وقد أورد نصّ هذه الوثيقة -الفريدة في مصدرها- ابن الجوزي في المتنظم، والذهبى في تاريخ الإسلام، وغيرهما من العلماء.

وتكررت قراءة هذه الوثيقة على العلماء والفقهاء، وفي كلّ مرة تقرأ فيها كانت تؤخذ خطوطهم بموافقة ما سمعوه. وبهذه الوثيقة⁽²⁾، إضافة إلى ما ذكرنا، تتضح لنا الجهود العظيمة التي بذلها هذا «الخليفة العالم» للدين من منصبه.

(1) نقض التأسيس (2/331) ابن تيمية.

(2) وإن كان فيها بعض ما ينكر، انظر: تاريخ الإسلام (9/494).

في ذي الحجة من سنة (422) مات الخليفة القادر بالله، وكان ذلك في أول أيام التشريق، وصلى عليه ابنه القائم بأمر الله، وكان عمره (87) وما عُلم أحدٌ من خلفاء هذه الأمة بلغ هذا السن، حتى ولا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد بارك الله ذرية القادر ومكّن لدولته، حتى إنّ كل من جاء بعده من الخلفاء في بغداد والقاهرة كانوا من ذريته⁽¹⁾، وهذا من بركة العمل بالشرع في المنصب والدولة -رحمه الله ورضي عنه-، وأيضاً فأحفاده اليوم بالآلاف.

(1) إعلام الناس بحسن سيرة خلفاء بنى العباس، عدة مقالات، منشورة بمنتدى فرسان السنة.



أبو الفضل ابن
حنزابة

الوزير الأكمل

والإمام الحافظ

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

أبوالفضل ابن حنزاة^١ الوزير الأكمل والإمام الحافظ

هذه سيرة وزير سليل وزراء، وهو مع ذلك عالم حافظ إمام مفيد من العلماء الباحثين^(١)، فترنو إلى وزارته الأ بصار، ويتطلع إلى علمه النّظار.

وهو الوزير أبو الفضل جعفر، ابن الوزير الكبير أبي الفتح الفضل بن جعفر، ابن الفرات البغدادي، المعروف بـ «أبو الفضل ابن حنزاة^(٢)»، وزر لكافور الإخشیدي في مصر^(٣)، مدة إمارته، ثم استقل كافور بملك مصر واستمر على وزارته، ولما توفي كافور استقل بالوزارة وتدبر المملكة لأحمد بن علي بن الإخشید بالديار المصرية والشامية^(٤).

(١) الأعلام (١٢٦ / ٢).

(٢) حنزاة - بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء - وهي أم أبيه الفضل بن جعفر، وكانت جارية، وفي اللغة: الحنزاة، المرأة القصيرة الغليظة، انظر: فوات الوفيات (١ / ٢٩٢)، وتاريخ الإسلام (٨ / ٦٩٩).

(٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١ / ٣٥٢)، السيوطي، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار إحياء الكتب العربية.

(٤) وفيات الأعيان (١ / ٣٤٦)، ابن حلkan، ت. إحسان عباس، ط. دار صادر.

وطلب الحديث وجدّ في طلبه سِيَّاراً من علماء بلده ورحلة إلى غيرها، فسمع ببغداد واجتاز بدمشق وسمع بها⁽¹⁾، حتى صار إماماً فيه، حافظاً له، وكان معتنِياً بالحديث غاية الاعتناء، ويبذل في تحصيله كُلَّ غالٍ ونفيس، حتى ليذكر الخطيب أن الوزير أبا الفضل قال: إنه سمع مجلساً من أبي القاسم البغوي، ولم يكن عنده، فكان يقول: من جاءني به أغنته⁽²⁾.

وقد وظف منصبه لخدمة العلم فاستدعي العلماء وقصده الأفضل من البلدان الشاسعة، وكان عنده عدة وراقين، يوفر لهم ما يعينهم على مهمتهم، ولو أدى ذلك إلى طلب من بلد بعيد، أو تكُلُّف ذلك مالاً كثيراً.

وأنفق مالاً جزيلاً على الحافظ أبي الحسن علي، المعروف بالدارقطني، لما ورده من العراق.

وكان محباً لأهل العلم يعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم، قال الحسن بن أحمد السبيعي: قدم علينا الوزير جعفر بن الفضل إلى حلب، فتلقاء الناس، فكنت فيهم، فعرف أني محدث، فقال لي:

(1) تاريخ دمشق (72/141).

(2) تاريخ الإسلام (8/699).

تعرف إسناداً فيه أربعة من الصحابة؟ قلت: نعم؛ حديث السائب بن يزيد، عن حويط، عن عبد الله بن السعدي، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْعَمَالَةِ.

فعرف لي ذلك، وصار لي عنده منزلة⁽¹⁾.

ولم يكن «الإمام الوزير» بالجامع الذي يفوته معنى ما يجمع، ولا بالحافظ الذي يخفي عليه فقه ما يحفظ، بل في كلامه على الحديث ما يدل على حدة فهمه ووفر علمه⁽²⁾.

علا كعب الوزير أبو الفضل في العلم حتى صار به أشهر وأعرف من الوزارة، فحدث عنه علماء كبار ونقاد فحول، منهم: الدارقطني - جاءه إلى مصر؛ من العراق⁽³⁾، والحافظ أبو محمد عبد الغني المصري، وطائفه، بل أسنده عنه شيخ كبار يتقدمونه كثيراً في العلم والحديث كحمزة بن محمد الكناني الحافظ، فإنه - مع علو كعبه - روى عنه⁽⁴⁾.

(1) تاريخ الإسلام (8/700).

(2) حسن المحاضرة (1/353).

(3) تاريخ بغداد (8/156).

(4) تاريخ الإسلام (8/699).

وكان الوزير أبو الفضل محبًا للعلم، يقدمه على الوزارة
- وعلى كل شيء - ولا يقدم شيئاً عليه أبداً، قال السلفي: كان ابن
حنزابة من الحفاظ الثقات، المتبحجين بصحبة أصحاب الحديث،
مع جاللة ورياسة، يروي ويحلي بمصر في حال زيارته، ولا يختار
على العلم وصحبة أهله شيئاً⁽¹⁾.



أملى الوزير أبو الفضل الحديث بمصر، وبسببيه خرج
الدارقطني إليها، فإن ابن حنزاًبة كان يريد أن يصنف مسنداً،
فجاءه الدارقطني، وأقام عنده مدة، فلم يزل عنده حتى فرغ من
تأليفه، وحصل له منه مال كثير⁽²⁾.

وقد ورث العلماء عن أبي الفضل مسانيد تحوي ألف
الأحاديث، قال ابن طاهر: رأيت عند الحبال كثيراً من الأجزاء
التي خرجت لابن حنزاًبة، وفي بعضها الجزء الموفي ألفاً من مسنـد
كذا، والجزء الموفي خمساً من مسنـد كذا، وكذا سائر المـسنـدات⁽³⁾.

(1) السير (16/485).

(2) تاريخ دمشق (72/142).

(3) السير (16/487).

وروى عنه الدَّارَقُطْنِيُّ في كتاب «المدجج» وغيره أحاديث⁽¹⁾.

وله مصنفات في أسماء الرجال والأنساب، وقد جعل مطالعة
أنساب العرب علمه، وقصر على الاعتناء بها نفسه، فهو يدرس
أنساب أهل البادية ويتعلمها، ويبحث عنها بجهده ويتقدّها⁽²⁾.
وله من المصنفات غير ذلك.

وهذا شأن من لم يضيّع عمره عبثاً، بل شغله بكلّ مفيد نافع.

وابن حنزابة متعبدٌ، مشتهرٌ بالعبادة؛ كان يصوم النهار، ثم
يفطر، ثم ينام، ثم ينهض في الليل، ويدخل بيت مصلّاه فيصفُّ
قدميه إلى الفجر⁽³⁾.

يقول الذهبي: وبلغنا أن أبا الفضل كان يفطر وينام نومة،
ثم ينهض ويتوضاً ويصلّي إلى الغداة⁽⁴⁾.

(1) تاريخ بغداد (156/8).

(2) شرح معاني شعر المتنبي (51/2) ابن الإفليلي.

(3) تاريخ دمشق (72/142).

(4) تذكرة الحفاظ وذيله (3/152)، الذهبي، ت. زكريا عميرات، ط. دار
الكتب العلمية.

وهو -أيضاً- كثير الإنفاق في وجوه الخير، أُنفق أموالاً عظيمة في البر وأنواع المعروف، لا سيما على أهل الحرمين، فقد كان كثير الإحسان عليهم⁽¹⁾.

وقد اشتري ثلث شعرات من شعر النبي ﷺ بمال عظيم، وأوصى إذا مات أن توضع في كفنه فلما غسل جعلت فيه⁽²⁾.

توفي «ابن حنزاقة» رَحْمَةُ اللهُ فِي سَنَةِ (391 هـ)، ودفن بالمدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقيل: بمصر، والأول ذكره الذهبي في السير، ولم يذكر غيره.

قال الحافظ ابن عساكر في كتابه العظيم تاريخ دمشق: ولم ينزل في أيام عمره يصنع أشياء من المعروف عظيمة، وينفق نفقات كثيرة على أهل الحرمين من الأشراف وغيرهم، إلى أن تم له أن اشتري بالمدينة داراً إلى جانب المسجد، من أقرب الدور إلى القبر، ليس بينه وبين القبر إلا الحائط وطريق في المسجد، وأوصى أن يدفن فيها،

(1) تاريخ دمشق (72/142).

(2) للاستزادة من أخباره، انظر: ابن خلkan (110/1) والسير (16/487-488)، والنجوم الزاهرة (4/203)، وتاريخ بغداد (7/234)، وحسن المحاضرة (1/199)، وغيرها.

وقرر عند الأشراف ذلك فسمحوا له بذلك وأجابوه إليه، فلما
مات وحمل تابوته من مصر إلى الحرمين، خرجت الأشراف من
مكة والمدينة لتلقّيه والنيابة في حمله، إلى أن حجّوا به وطافوا ووقفوا
بعرفة، ثم ردوه إلى المدينة ودفنه في الدار التي أعدّها لذلك⁽¹⁾.
وفي سيرة «الوزير العالم» عبّر[ُ] منها أن بمستطاع المرء نيل
العالى، في الدنيا والدين معاً، لا تعارض، وأيضاً لا استحالة، قد
فعلها أقوام، وصحا لهم معاً.

لکن کیف؟

وليس الوزارة كالخلافة؛ تأتي الخليفة وراثة، على طبق من ذهب! بل هي دراية وعلم، عمل ونشاط، جدّ وإقبال، خبرة سنوات وعراك عقود! ومثلها - وأشد - العلم.

وهذه عاقبة من أدرك هدفه، وعرف طريقه، وتعلم بم يكن

.(1) تاریخ دمشق (72/142).

الإقبال والإدبار، فعمل بموجبه!

فإن كنت تبغي أن تكون شيئاً مذكوراً - وأرجو من الله لك أن تكون - فاعرف هدفك، ثم أقبل عليه ولا تدبر.

تدری بِمَ يَكُونُ الْإِقْبَالُ وَالْإِدْبَارُ؟

متى يقبل عليك ما تطلبه، حتى تكون أوثق بها هو بعيد عنك
أنه آتيك أكثر من ثقتك بنوال ما هو في يدك!

ومتى يدبر عنك ما تحذره حتى تكون آمن لما هو محيط بك
تظن أنه مهلكك، أكثر من أمانك لما هو بعيد منك تظن أنه لا يطالك؟

تدری بِمَ؟

أما الإقبال فالنشاط والتواضع، فكن نشيطاً؛ أقبل على ما تبغي، خذ الأمر بقوة، استكمل أدواته بجد، تيقظ لما تهدف وتغلب على الخمول والكسل.

وتواضع في أخلاقك - لا في طموحاتك -؛ تعلم من الكبير، واست Ferdinand من الصغير، سل من هو فوقك، ومن هو مثلك، ومن هو دونك، وقيد إفاداتك عن كلّ من تلق عنده شيئاً يحقق بغيتك، وتقبله منه بقبول حسن، واسكر الله عزّ وجلّ - أو لا - على توفيقه ثم اشكره على من أفادك على ما علمك.

واعلم أن من التواضع سؤالك عما يغيب عنك إن كنت به جاهلاً، أو غير متحقق فتقارن علمك بعلم غيرك لتتيقن مما تعلم، واعلم أن التواضع أفضل العبادة والعلم.

بهذا - النشاط والتواضع - يكون الإقبال، وبهذا أوصيك. وأحذرك الإدبار، وسبباه: الكسل والترفع، فالكسل يلزمهك مكانك لا تبرحه، وربما رجع بك القهقرى، والترفع يوررك المهلكة، ولا يدعك تتعلم شيئاً، فإن تعلمت وترفعت عدت بعد العلم جاهلاً، وكان علمك عليك لا لك، وعسى أن يقول الناس: فلان عالم، وهو مكتوب عند الله - عَزَّوجَلَّ - من الجاهلين. فأقبل - أخي! - بنشاط وتواضع، وأحذر الترفع والكسل؛ تصل، وتيسر لليسرى، وفُقدَ الله لما تريده.

ولعل من المفيد - في النهاية - أن أذكرك بيتين من الشعر مأثورين عن ابن «حزابة» - ولم يؤثر عنه غيرهما -، فيهما ينبه على أن بعض الراحة - على نية المواصلة - لا تضر؛ فلا ريب أن النفس تمل وتنسلل إليها السامة، ولذا تحتاج إلى شيء من الترويح بين وقت وآخر، فلا يحيط المرأة كلاماً نفسه ولا يهزمه ملاهها، بل يتفاءل؛ فيما بعد الراحة إلا اشتداد السير وما وراء الإجمام إلا العون

على تحمل المشاق وطرق الصعاب.

وكذا يلفت عظيم الهمة إلى ألا تحبطه حوادث الدهر ونواهيه
- وقد أصابت أبا الفضل مراراً⁽¹⁾؛ فإنها تطال - في الغالب -
أفضل الناس - وما عساها تفعل بالصعاليك؟ - كالريح إذا
اشتدت عواصفها كان الشجر العالي أكثر شيء عرضة لها.

وهذا نبيتان هما:

من أخل النفس أحياها وروحها

ولم يبت طاوياً منها على ضجرٍ
إنَّ الريح إذا اشتدت عواصفها

فليس ترمي سوى العالي من الشجر⁽²⁾

فاقتجم الباب، وتوكل على الله، ولا تكثر الالتفات إلى
الحوادث والبكاء على الأطلال، وتذكر: من عاش خلف الأبواب
في كفنه فلما غسل، ومن اقتجم ودخل عاش أبد الدهر ملكتها.

(1) الأعلام للزركلي (2/126).

(2) النبيتان من "زهر الأكم في الأمثال والحكم" (3/97)، اليوسبي، ت. د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، ط. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.



ابن حزم الاندلسي

الوزير... الذي جد

الإسلام في القرن

الخامس

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

ابن حزم الأندلسي الوزير الذي جدد الإسلام في القرن الخامس

هذه سيرة رجل من أكثر الناس حظاً في الحياة؛ أرفعهم منصباً، وأغناهم ثراء؛ اشتغل في شبابه بالوزارة، في عهده كان ربىع دولة الإسلام في الأندلس، وتقلب في أعظم نعيم العيش وأرغده، حتى كانت سرَّ الملك مهاده، وحدائق قصور الحكم ملاعبة، وحاضرة الدنيا يومئذ محل إقامته؛ فأعرض عن الرياسة وترك الوزارة، وودع الملاعب والمغاني، وتفرغ لتحصيل العلوم والفنون!

ولئن ارتاح باله من كد العيش والسعى وراء الرزق بسبب ما كان فيه والده، ثم ما كان هو فيه من منصب ومال، فإنه ما لبث أن وظف هذا كله في التفرغ للعلم وتحصيله، والتأليف فيه والتصنيف، حتى لنراه بعد أمد قصير يبز جميع الأقران، ويسبق من كان أماماً في الرتبة بمراحل، ويحوي صدره على تعجز العصبة أولو الفهم من الأئمة عن جمعه وقراءته ووعيه.

على أن هؤلاء جميعاً من أبناء الفقراء الذين طلبو العلم فلم يشغلهم عن طلبه شيء من الرغائب، وكان بعضهم في حرصه على

طلبه يهرب من عدَمِ محقق، أما هو فكان كُلَّ ما حوله من المتع والملذات يغري بالترف والدعة والكسل؛ لقد كان وزيرًا وأبوه من الوزراء، فنشأ في بيت نعيم وترف وجلاة ووجاهة، فغالبَ ذلك كله، وتعلم حتى كان أحد أعلام الأندلس، بل أحد أعلام الإسلام ورَوَادِه؛ ووصل إلى رتبة «مجتهد مطلق»، وقيل عنه: «إمام حافظ» بل: «مجدد القرن الخامس».

فسبحان الملك!

مِنْ رَجُلٍ فِي مُثْلِ مَوْضِعِهِ؛ يَعِيشُ بَيْنَ الْجَوَارِيِّ الْحَسَانِ،
وَتَعْزِفُهُ الْقِيَانُ، وَيَرْفَلُ فِي حَلْلِ النَّعِيمِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسُ هُمَّهُ وَغَايَةُ مَنَاهُ
وَصَلَ غَانِيَةً أَوْ طَوْلَ عَنَاقٍ، إِنَّمَا مَنَاهُ مَا يَقُولُ هُوَ عَنْهُ:
مَنَاهِي مِنَ الدُّنْيَا عِلْمُ أَبْشِهَا

وَأَنْشَرُهَا فِي كُلِّ بَادِ وَحَاضِرٍ

دُعَاءٌ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنْنِ الَّتِي

تَنَاسَى رِجَالٌ ذَكْرُهُمْ فِي الْمَحَاضِرِ

لَا غُرُو إِذَا أَنْ كَانَ صَاحِبِنَا هُوَ ... ابْنُ حَزْمِ الْأَنْدَلُسِيِّ «أَبُو

محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم⁽¹⁾.

سألكي صديقَ يوماً: من هو ابن حزم؟

أصدقكم: لم أستطع جوابه؛ إنَّ من العسير على من يعرف ابن حزم حقاً أن يحيي بتعريفه في كلمات، أو جمل، أو حتى في ورقات؛ ولو أن الحكمة العربية تقول: من أخصب تخير، إلا أنها بشأن مثل ابن حزم تقلب لتكون: من أخصب تخير!

وقد طفت بذهني في مآثر الرجل الكبير أودَ الظفر بها يقرب إلى صاحبي ما أريد قوله:

- فرأيت صورة المحلّ تبرز أمامي في أجزاءه الاثني عشر؛ فقلت: هذا ابن حزم، ولو عرّفته به لكان عظيماً، وهل في كتب الإسلام في العلم مثل المحلّ؟

(1) للاستزادة من أخبار ابن حزم راجع: السير، للذهبي ج 18، وجذوة المقتبس، للحميدي، البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ج 6، وغيرهم في القديم، وفي الحديث: كتاب «ابن حزم... حياته وعصره آراءه وفقهه» للعلامة محمد أبو زهرة، وكتاب «ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي»، وهو أطروحة للماجستير للدكتور عبد الباقي السيد عبدالهادى الظاهري، وسيرة ابن حزم، لـ سهير فضل الله، وكتاب «ابن حزم خلال ألف عام» لـ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.

وكيف لا؟

أليس المحلّى الكتاب الذي أفاض ابنُ حزم خلاله في شرح فقه الصحابة والتابعين، وأخرج من ذلك كنوزاً نافعة، وكشف عن معين لا ينضب ماؤه، ولا ينقطع ورّاده⁽¹⁾، واستعرض فيه آراء الفقهاء والمجتهدین جمیعاً، وساق أدلةهم مستوفاة، قبل أن ينقض عليها، مبدئاً رأيه فيها؛ مبدئاً غمام خطئها، وجازماً بالصواب منها، وربما خالف آراء الفقهاء جمیعاً، وبالاطلاع على المحلّى يجذب المنصف أن ابن حزم كان مجتهداً مطلقاً صاحب مذهب يتبع!

أليس المحلّى أشمل كتب الفقه لمقاصده، حتى كان درجًا «إلى التبّحر في الحجاج، ومعرفة الاختلاف، وتصحیح الدلائل المؤدية إلى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه، والإشراف على أحكام القرآن، والوقوف على جمّهرة السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، وتمييزها مما لم يصح، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار، وتمييزهم من غيرهم»⁽²⁾؟

أليس المحلّى أعظم الكتب الفقهية التزاماً للآثار، وتحريّاً للأخبار، حتى إنه ليضم (12903) رأياً من آراء السلف، نسبها ابنُ حزم إلى 546 عالماً من علماء السلف، منهم من نسب إليه أكثر

(1) ابن حزم (ص 4)، أبو زهرة.

(2) المحلّى (169/1)، الميرية.

من (600) رأي، ومنهم من لم ينسب إليه سوى رأي واحد، بالإضافة إلى (250) مسألة نسبها إلى جماعة من الصحابة، لم يعرف لهم فيها مخالف⁽¹⁾؛ ومنها نفائس انفرد باستخراجها والكشف عنها، فكان محلّ بذلك من دواوين الإسلام المهمة، وثروة لا يُستغنى عنها.

هذا وهو لم يكمله، فكيف به لو أكمله⁽²⁾؟

أليس محلّ كتاب ابن حزم، مجدد الإسلام في قرنه الخامس، الذي يتحتم أن يعرف المجددون له من قدر كتابه ما عرف العز ابن عبد السلام، حين قال: «ما رأيت في كتب الإسلام مثل «المحل»، و«المجل»⁽³⁾، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين؛ في جودتها، وتحقيق ما فيها، بل ونقل عنه أنه قال: «لم تطب نفسي بالإفتاء حتى صار عندي نسخة المغني»⁽⁴⁾.

أليس محلّ.. آخر جني من تفكيري صوت صديقي يستفهمني:
ألم تسمعني؟ سألك: من هو ابن حزم؟ فشردت!

(1) ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، (ص 96)، د. عبد الحليم عويس رحمة الله.

(2) الكلام حول تكملة محلّ؛ هل هي لابن حزم أيضًا، أو لولده أبي رافع؛ كلام طويل الذيل، فليرجع إليه في المقدمات التحقيقية للكتاب.

(3) «المحل»، و«المجل»، كلاماً لابن حزم، والأول شرح فيه الثاني.

(4) المقصد الارشد (2/ 18)، لابن مفلح، مكتبة الرشد.

نظرت فوجدت بسمةً رقيقةً ترسم على وجهه، ذكرتني نعيم
الأنس بستان ابن حزم الخصب، وأنا فيه بعدُ أتحير؛ ما الذي
لصديقي أتحير؟

فرأيت صورة ابن حزم تبرز أمامي؛ فإذا صورة العالم، الإمام،
الجليل، المحدث، الفقيه، مجدد القرن الخامس، فخر الأندلس،
صاحب التصانيف الممتعة في المعقول والمنقول، والسنّة، والفقه،
والأصول، والخلاف، التي تبلغ مئات؛ فابن حزم هو أكبر علماء
الإسلام تصنيفاً وتأليفاً بعد الطبرى!

** رأيت صورة الواله، الذي كتب في الحب وأصوله
وأعراضه وصفاته، حتى حير العشاق والمحبّين؛ كيف خبر الكلام
ذلكم الخبر، وسبر الأغوار ذلكم السبر؟

حتى وصف كتابه «طوق الحمام» بأنه «أروع كتاب درس
الحب في العصر الوسيط، في الشرق والغرب، في العالمين المسيحي
والإسلامي، وأنه غير مسبوق في التراث العربي الإسلامي، فضلاً
عن جسارة مؤلفه وصراحته، وجمعه في المعالجة بين التحليل
النفسي، والواقع التاريخي، والتجربة الذاتية»⁽¹⁾.

(1) مقدمة كتاب طوق الحمام (ص 9-10) بقلم، الدكتور الطاهر أحمد مكي، نفلاً عن كتاب ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي (374)، د. عبد الحليم عويس، الزهراء للإعلام العربي.

فهل يكتب عن «العشق والعشاق، والإلف والألف»، كتابة من ذاق طعم الحب، وعرف ما تعتلج به نفس المحبّ، وما يختلج في ثنايا صدره من لواعج العشق»⁽¹⁾ إلا محبّ وحبيب؟

وذلك بأرقى عبارة، وأنقى لفظ، وأصون أدب، وأسمى حياء.

** رأيت صورة الباحث والكاتب والمؤلف، الذي أربت كتبه على (400) كتاب، والمحدث المجيد الحافظ، الذي يحوي صدره من الأحاديث والآثار ما يعجز عنه فئام من الحفاظ، عالم الملل والنحل؛ قديمها وحديثها، المجادل فيها، المناظر، قوي العارضة، شديد المعارضة، الذي ذاد عن حياض الإسلام هجمات اليهود والنصارى، ورد افتراءاتهم، وأوضح دسائسهم، وقد كانوا في الجوار يومئذ، فألقهم حجرًا، وأعوزهم إلى الحجة لدينهم عند عامتهم! وهو في ذلك كله بلية العبرة، بالغ الحجة، أريب!

** رأيت صورة الشاعر التائير، الذي يقارب بشعره فحول الشعراء، ويتميز نثره بالبراعة في المعنى، وجودة الخيال، ونضاعة اللفظ وإشراق الأسلوب، ويجمع فيما كتب من نثر فني بين جودة التعبير وحسن التصوير، وسلامة المعنى، وعمق التفكير،

(1) في الكلام قبسات من كتاب ابن حزم (8)، أبو زهرة.

وبيراعة الاستهلال، وجودة الخيال، يصف خلجان النفوس ونبضات القلوب في عبارات فياضة بالأحساس وصور بيانية رائعة، حتى إنه ليعد في الصف الأول بين الناثرين، ولم يكن تنشره ضجة ألفاظ، بل كان معنى جميلاً عميقاً، في ديباجة أنيقة مشرقة⁽¹⁾.
أكتمله ويكشفه شهيفُ

يُلَازِمُنِي وَإِطْرَاقُ طَوِيلٍ
وَوِجْهٌ شَاهِدٌ لِلْحَزْنِ فِيهِ
وَجَسْمٌ كَالْخَيْالِ ضَنْ نَحِيلٌ
وَأَثْبَتَ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ يَوْمًا
بِلَا شَكٍ إِذَا صَحَّ الدَّلِيلُ.

** رأيت صورة «الوزير» الذي وزر أربع مرات، فكان ذا حظوة ومكانة عند من وزر لهم .. «ابن الوزير» فقد تولى أبوه الوزارة -أيضاً- لثلاثة من الملوك: المنصور ابن أبي عامر، وابنه المظفر، وابنه عبد الرحمن شنجول، وهؤلاء من أعظم ملوك الأندلس، وكان ذا حظوة لديهم ... فهو إذاً الوزير ابن الوزير؛ مما كان له أعظم الأثر في رفاهية حياة الأسرة؛ سكنى في قرطبة حاضرة الأندلس، ملاصقاً للزاهرة؛ قصر الحكم؛ وجاهها عريضاً

نفسه (1).

توفره الوزارة، وثراء وغنى، فارتاح البال من كد العيش، والسعى وراء الرزق، فنشأ وعاش طويلاً في تنعم ورفاهية، حتى إن الأسرة امتلكت قرية بأسرها هي قرية «منت ليشم» المعروفة بـ«مونتيخار» حالياً، وهي عزبة قرية من ولبة، وهي القرية التي قضى ابن حزم بها آخر أيامه.

العالم، والمحب، والمناظر، والشاعر، والوزير، بل والثائر، كل هؤلاء رأيهم في شخص ابن حزم؛ فهالني أن تجتمع كل هذه الصور في شخص واحد، وأكترت أن يعبر عن هذه الصور كلها كلمة أو كلمات، أو جملة أو عبارات!

وتساءلت: أني لي بالتعبير عن هذه النفس الكبيرة في علوها، العظيمة في شرفها؟

ولو لم يذكر له من منقبة أو فضيلة إلا أنه الصادع بالحق - بعد ما تبين له - في ميادين الحق والكافح، كما كان يصنع بالحق - بعد ما تحقق له - في ميادين العلم والكتاب والصفاح؛ لكفى!

لقد كان ابن حزم رَحْمَةُ الله عالماً حرّاً؛ مذهب أول أمره بمذهب مالك وعايش بيئه المالكية العامرة في أرض الأندلس، ثم تحول عنه إلى مذهب الشافعي وتبصر فيه وناضل عنه حتى وسم

به، واطّلع في أثناء ذلك على مذهب أبي حنيفة. لكنه لم يرض لنفسه ودينه أن يتبع واحداً من هذه المذاهب -مع إجلاله لأصحابها- بعدما رُزق واسع الاطلاع على السنن والأثار، وحوى صدره الدليل وقلبه الحجج والبراهين، إلى جوار ما كان يجمعه من فنون جمّة ويشارك فيه من علوم كثيرة، مع ثقافة متشعّبة في العديد من المجالات، وإلمامه بعلوم اللغة والأدب، واطلاع مستمر على الكتب والمؤلفات المختلفة؛ لقد كان واسع الاطلاع جداً على كتب ومصنفات ودواوين، ربما لم يسمع باسمها كثير من علماء زمانه، وفّرّتها له مكتبة ذاخرة بالنفائس ورثها عن أبيه، بل قيل: «ما دخل الأندلس رجل أكثر اطلاعاً من ابن حزم، بل ما يساويه، في الاطلاع، في تاريخ الإسلام، إلا قلائل، وفوق كل ذي علم عليم»⁽¹⁾.

هذا كله إلى جانب ما كان يتمتع به من ذكاء مفرط وذهنٍ سيّالٍ.

فما ملك -بعد هذا كله- إلا أن يسلك طريق «نبذ التقليد وتحرير الاتّباع»، ليأخذ من هذه المذاهب ما وافق الحق الذي تبين له، ويترك ما قامت الحجّة لدّيه بأنه ضعيف أو مرجوح، وقد تكلّم

(1) مقال «منهج ابن حزم الأندلسي الظاهري» موقع الشيخ محمد الأمين بقلمه، ولعله تفريغ محاضرة.

ابن حزم بهذا، وأشاعه، حتى عرف عنه، فنفرت عنه القلوب، ووُقعت به الندوب، وثارت ضده الحناجر، حتى استهدَف لفقيه وقته، وناظره مقدمو القوم وأئمته، فأفحَمَهم ابنُ حزم حينَ أبان عنَ بلِيغِ الحجة، وقوَّةِ العارضة، وكان في المنازِرة كما يَقولُ ابن حيَان: «يصُكُ معارضه صُكُ الجندل».

فَمَاذا فعلَ القومُ وجاهُه؟

لقد «تمَالأوا عليه، وأجعموا على تضليله، وشنعوا عليه، وحدروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدُّنْو منه .. ولم يبق عالمٌ يخالفه إِلا ناظره فغلبه بالحجَّة وأفحَمَه بالمحاجَة، فأُوجِدَ ذلك شَيئاً في قلوبهم عليه، وكان -إِلى جوار ذلك- ذا حدة ظهرت كثِيرًا في جدلِه، حتى قيلَ عنه: «السان ابن حزم في المغرب كسيف الحجاج في المشرق».

وقد طُفِقَ المُلُوكُ يقصُونه عن قربِهم، ويُسِرِّونه عن بلادِهم إلى أن انتهوا به منقطعَ أثره: فريته، تلك التي امتلكها أجداده! بقيَ بها حتى ماتَ في عام (456هـ)، وقد جاوزَ التسعين؛ مكِبَّاً على العلم، مقبلاً على تدريسه، وهذا هو الذي أَسْعَده، وأَفْرَحَه، وملأ قلبه، ونفَّ غَيْظَه، كما يَعبَرُ عن ذلك فيَقولُ: «غاظني أهلُ الجهلِ مرتينَ منْ عمري؛ أحدهما: بِكَلامِهِمْ فِيهَا لَا

يسنونه أيام جهلي، والثاني: بسكتهم عن الكلام بحضرتي، فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم.

وسري أهل العلم مرتين من عمري؛ أحدهما: بتعليمي أيام جهلي، والثاني: بمذاكرتي أيام علمي⁽¹⁾.

ولعل هذا يفسر لنا قناعته بالنفي، وزهده في الرئاسة، ولزومه منزله مكباً على العلم وتعليمه، فلم يحاول الفرار، أو الكرار! حتى صار فوق ما كان، بل ربما استفاد من هذه المعركة الحامية فوظف حقدها وحسدها وضرامها وضراءها في المضي قدماً نحو ما يريده ويصله بما ينفعه، وكيف لا؟ وهو القائل: «لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحبي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة، ولو لا استشارتهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف⁽²⁾.

الحق أنه لو قيل: إن ابن حزم كان عالم الأندلس غير مدافع، ما عدا هذا القائل الحقيقة قيد أنملة، بل أزيد: كان ابن حزم ولا يزال أحد أعلام علماء الإسلام المعدودين.

(1) الأخلاق والسير (ص 68)، ابن حزم، دار المشرق العربي، القاهرة.

(2) نفسه (ص 111).

لكن .. أهكذا يقابل الرأي والفكير والنظر؟

بالبطش والقوة والقهر والنفي!

ولنعم ما قبل:

بلاء ليس يعدله بلاء

عداوة غير ذي حسب ودين

يبيحك منه عرضًا لم يصنه

ويرتع منك في عرض مصون

ربما كان هذا بحد ذاته الذي جعل ابن حزم لا يقنع بموقفهم، ولو تكاثرت أعدادهم، وامتد سلطانهم؛ إذ نظر إليهم وإلى نفسه؛ فرأى حجتهم السطوة والسلطة وأما هو فحجته العلم والدليل والرأي ولذا حمل علمه هذا وجادل عنه من خالقه؛ اقتناعًا بما يقوله واستنادًا «إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء: {لتبيينه للناس ولا تكتمونه}»، فلم يك يلطف صدّعه بما عنده بتعریض ولا بتدریج، بل يصكّ به من عارضه صك الجنّدل، وينشقه إنشاق الخرّدل»⁽¹⁾!

فلم يكن ليرجع - وهو كذلك - عن رأيه، بل هو سائر في ذلك غير مرتدٍ ولا راجع، يثبت علمه فيمن يتتباه من بادية بلده، من عامة المقتبسين من أصغر الطلبة، الذين لا يخشون فيه الملامة؛

(1) السير (18/201).

يحدثهم ويفقههم ويدارسهم، حتى كمل من مصنفاته وقر بغير⁽¹⁾!

تلك الكتب التي أحرقت في عهد المعتضد بن عباد، فلم
توهن عزيمة ابن حزم وراح يعزي نفسه في مصابه بها بقوله:
فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائي

وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رقٌ وكاغدٌ

وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدرى

وإلا فعودوا في المكاتب بدأة

فكم دون ما تبغون الله من ستر

انقلب الدهر على ابن حزم إذًا؛ أدبرت عنه لذاته، وتوالت
عليه فجائعه، فصدق فيه قوله:
هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركتنا

فجائعه تبقى ولذاته تفنى

(1) نفسه.

إذا أمكنت فيه مسيرة ساعة

تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا

ولا عجب فهذا شأن أولي الفضل:

ذو الفضل كالثبر طوراً تحت ميفعة

وتارة في ذرى تاج على ملك

لقد تعجبت كثيراً لهذه المقابلة: «فكر وسيف»، أو «لسان وقوة»، وتفكرت في أسبابها طويلاً؛ أتساءل: ما عساه يكون وراءها من أسباب خفية؟

يقول البعض: هو حسد العلماء.

وأقول: ربما.

ويقول آخر: هو التعصب المذهبى!

وأقول: ربما.

وأنا أقول: العلماء فقط؟

فهذه الأسباب كلها تتعلق بهم لا بغيرهم!

صحيح أن ابن حزم غلبهم، وقبح أقواهم، وأظهر عجزهم، وطعن -كما أشاعوا- في أئمتهم.

لكن أفلیس للملوك في ذلك يد؟ خاصة إذا تأملنا استجابة الملوك السريعة بإبعاد ابن حزم، فمنذ متى كان الملوك في طاعة العلماء لهذا الحد، حتى نراهم لا يكتفون بالنفي، بل يزيدون عليه هدم دوره، ومصادرة أمواله، بل وأحرقت كتبه في حاضرة المملكة؛ «إشبيلية»، وفرض عليه ألا يغادر بلدة أجداده «منت ليشم»، وألا يُفتقى أحداً بمذهب مالك أو غيره، بل توعّد من يدخل إليه بالعقوبة!! إن هذا الشيء عجائب!

أكلّ هذا لأجل فقهاء حاسدين، أو متعصبين، أو مغلوبين، أو حتى متتفعين من مناصبهم؟ ألا نجيل النظر في الأحوال لنرى، علّ النظر يرتد إلينا بشيء مقنع؟

فلا فعل!

يلفتني في الأحوال أن ابن حزم كان وزيراً أموياً، وكان والده كذلك؛ حتى إنه ليشار في ترجمته إلى «التجاهه للحزب الأموي وعمق ولائه لأمرائه وخلفائه»، وكل ذلك كان سبباً في حب ابن حزم، بل تعصبه، لبني أمية؛ أصحاب لواء الخلافة بالأندلس.

ويُلفتني في الأحوال أيضاً أنّ الفترة التي عاش فيها ابن حزم -فترة ملوك الطوائف- كان أبرز خصائصها ضياع وحدة المسلمين

وانقسامهم إلى فئات متناحرة، مما كان له أثره في ضعف شوكة الإسلام وضياع هيبيته في الجزيرة، فوصل ذلك الأثر إلى أن ملوك الأندلس تعهدوا بدفع جزية سنوية لملوك النصارى، مما أزعج كثيراً من الأحرار علمائهم - ومنهم ابن حزم - وعامتهم، وكان ذلك الوضع المخزي يشبع القلوب حيناً إلى رأية الخلافة الذاهبة الزائلة التي كانت يوماً رمزاً للوحدة والعزّة والهيبة!

ويُلْفِتُنِي أَيْضًا في هذه الأحوال أن ملوك إشبيلية - أكبر مالك الطوائف في الأندلس - قررت استغلال هذا الحنين الجارف إلى الخلافة بشيء زائف، فاستغلوا وجود شبه كبير في الخلق بين باعث حصر يدعى «خلف الحصري» وهشام المؤيد بالله آخر خلفاءبني أمية، فأشاعوا بين الناس أنهم عثروا على الخليفة هشام - وذلك بعد اثنين وعشرين سنة من موته، وكان الناس في شك من أمر موته - وأنهم ينونون إرجاع عهد الخلافة الظاهر!

وكان خدعة شبهه هشام هذا صناعة قاضي إشبيلية محمد بن إسماعيل (ابن عبّاد) بهدف تقوية أمره به وإنعاش دولته، وقطع أطماء ملوك الطوائف عنها، بل زاد فكتب ابن عبّاد إلى ملوك الأندلس يرغّبهم في طاعة المؤيد هشام المزعوم، وأقام نيفاً وعشرين

سنة، يُخطب له على المنابر ويدعى بأمير المؤمنين، وحجابه من آل عباد يحكمون البلاد على الحقيقة، ومات -الحضرى- في أيام المعتصم، فأخفى موته إلى أن أحكم أمره، ثم أظهر ذلك سنة (451هـ).⁽¹⁾

ذلك المراء لم يكن ليروج على ابن حزم!

فها هو الصّفدي ينقل في «أعيان العصر» عن أبي محمد بن حزم قال: «أنذرنا الجفلي لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم، فرأيت أنا وغيري نعشًا، وفيه شخص مكفن، وقد شاهد غسله رجلان شيخان حكماً المسلمين من عدول القضاة، وخارج البيت أبي رحمة الله تعالى وجماعةً من عظاماء البلد، ثم صلينا عليه في ألف من الناس، ثم لم نلبث إلا شهورًا نحو التّسعة، حتى ظهر حيًّا، وبوبع بالخلافة، ودخلت إليه أنا وغيري وجلست بين يديه، وبقي كذلك ثلاثة أعوامٍ غير شهرين وأيام، حتى لقد أدى ذلك إلى توسوس جماعةٍ لهم عقولٍ في ظاهر الأمر، إلى أن ادعوا حياته، وزاد الأمر حتى أظهروا بعد ثلات وعشرين سنة من موته

(1) انظر ترجمة هشام المؤيد بالله، في موقع المعرفة -موسوعة على الشابكة.

على الحقيقة إنساناً - يريد خلفاً الحصري - قالوا: هو هذا، وسفكت بذلك الدّماء، وهتك الأستار، وأخلت الدّيار، وأثيرت الفتنة»⁽¹⁾.

لذلك يحملني التأمل على القول أن الأمر لم يكن عن حسد علماء، أو تعصب فقهاء فحسب، بل كان ذلك الظاهر هو الرماد، ووميض الجمر من تحته كان خشية الملوك لسان ابن حزم الذي ما يفتأً يتحدث بهم عند العامة، فيزري بموافقهم، خاصة معايرته إياهم بسبب استعانتهم -بعضهم على بعض- بملوك النصارى واستنصارهم بهم، حتى إنه ليقول: لو يعلم هؤلاء الحكام أنّ في عبادة الصليب مصلحة لهم لعبدوه، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيفه⁽²⁾.

وهو لا يفتأً يكشف للناس أكاذيبهم، في أمر الخلافة وغيرها، ويحرّض العامة على الخروج عليهم، والسعى لتحقيق حنينهم المستمر للخلافة التي كانت -وفيها الأمل أن تعود- تحمي دينهم وتحميهم.

(1) أعيان العصر (1/226).

(2) انظر: فقه التمكين (ص 147)، الصلاي، نقاً عن دول الطوائف (ص 406)، محمد عبد الله عنان.

ويؤيد ذلك التفسير أن موقف هؤلاء الفقهاء - ومعهم الملوك - من ابن حزم قد ظهر مبكراً، حتى قبل أن يجتهد بانفرادٍ عن المذاهب؛ حين كان على مذهب الشافعي، فما إن تذهب به، وعرف عنه، وناصر آرائه، حتى بدت ردة الفعل عنيفة، وليس ردة فعل من يتعصب لمذهب على آخر!

أو يكون تذهب ابن حزم بمذهب الشافعي ومخالفته مذهب مالك فقط - وإن كان مذهب سائر الأندلسين رسمياً وشعبياً - سبباً لعداوة فقهاء الأندلس له؟

ولعل عبارة أبي مروان ابن حيان توضح بوضوح، عما أريد قوله، وهذا نصّها: «ومال - أي ابن حزم - أولاً إلى النظر على رأي الشافعي، وناضل عن مذهبه، حتى وسم به، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء، وعيّب بالشذوذ»!

دار الكلام بخاطري سريعاً كالبرق، وتساءلت بعده: هل هذا يفي بتعريف ابن حزم لدى صديقي؟

فلم ألبث أن انتبهت على هزات خفيفة بمنكبي، كأنني أحلم، وصديقي تعاتبني عيناه؛ أكل هذا لسؤال سألكه، أتراءك لا تعرف

الجواب، أَم مَا لَكَ تَمْنَعُ؟

ابتسمت بدورِي وبادرت: ما جهلت، ولا تمنعت، إنما أحَاوَلْ
أنْ أَمَدَّ يَدِي لِأَقْطَفَ لَكَ شَيْئاً مِنْ بَسْتَانِهِ، يَعْنِيكَ فِي تَعْرِيفِهِ،
فِي سَعْيِي عَلَى نَفْسِي أَنْ أَقُولَ لَكَ بَشِيءَ فِيهِ: هَذَا هُوَ ابْنُ حَزْمٍ،
فَنَكُونُ رَأَيْتَ شَيْئاً مِنْهُ، وَلَمْ تَرِهِ كُلَّهُ، فَلَا تَقْدِرُهُ وَقَتَّلْتَ حَقَّ قَدْرِهِ!

أَيَا صَدِيقِي السَّائِلُ!

إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: مَنْ هُوَ ابْنُ حَزْمٍ؟

وَجَوَابِي لَكَ: ابْنُ حَزْمٍ؛ هُوَ ابْنُ حَزْمٍ.

أَخِي الْقَارِئُ! هَذِهِ صُورَةُ ابْنِ حَزْمٍ، انطَبَعَتْ فِي ذَهْنِي أَنَا،
نَتْيَاجَةُ قِرَاءَاتِي فِي كِتَبِهِ، وَقِرَاءَاتِي عَنْهُ، وَأَحْسَبُهَا لَا تَوْفِيهِ حَقَّهُ،
فَلَسْتُ أَزْعُمُ بِهَا، وَلَا أَحْلَّ لِأَحَدٍ أَنْ يَزْعُمَ فِيهَا أَنَّهَا تَرْجِمَةُ لِابْنِ
حَزْمٍ!

هَذَا شَيْءٌ -أَوْ كَمَا قَلْتَ: انطِبَاعٌ- مِنْ سِيرَةِ ابْنِ حَزْمٍ؛ الْوَزِيرُ
ذِي الْمَنَاصِبِ، الشَّرِيكُ ذِي الْغَنَىِ، الَّذِي هَجَرَ مَلَذَاتِ الْجَاهِ وَمَتَعَ
الْحَيَاةَ، إِلَى مَتَعَةِ وَلَذَّةِ رَآهَا أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ هَاتِيكِ الْمَلَذَاتِ.

وعوداً على بدء؛ يجدر بنا أن نسوق هذا الخبر نختتم به هذه العبر، لعله يجد من يقفوا الأثر:

ناظر ابن حزم علماء عصره؛ ومن ناظر أبو الوليد الباقي مقدم المالكية في زمانه؛ فغلبه، وكان أبو الوليد فقيراً بينما ابن حزم من علمنا؛ فقال الباقي - كأنه يعتذر بذلك عن هزيمته - أمام ابن حزم: «أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت معان عليه؛ تسهر بمشكاة الذهب، وطلبه أنا، وأنا أسرير على قنديل من قناديل الحرث». (1)

فقال ابن حزم: «هذا الكلام عليك لا لك؛ لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، أما أنا فلم أرج إلا علو القدر في الدنيا والآخرة».

يا الله على هذه النفس الأبية؛ «نشأ بين النساء وعرف من أسرارهن ما لم يعرفه أحد.. وحفظه الله من الحرام فنشأ بينهن عفيفاً .. لكن نفسيته استوت بين الرجال صعبة المراس خشنة

(1) نفح الطيب (2/282)، المقربي، وانظر: مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم و الباقي، دكتور عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي.

القياد»⁽¹⁾.

هذه النفس التي صنعت رجلاً استفاد منه كل من جاء بعده، حتى العز ابن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم، بل وجميع من خالفوه قد استفادوا منه، ولشدة تأثيره في قارئه وفي واقعه سموه منجنيني الغرب أو منجنيني المغرب.

ولعل السؤال الذي يرد على الذهن وجاه هذا الخبر هو: كيف استطاع ابن حزم النجاة من هذا، أو الترفع عنه؟

والجواب: قد أعاذه على ذلك أمران:

الأول: أن والده رَحْمَةُ اللَّهِ وَكُلُّهُ بِهِ رَقِيبٌ عَلَيْهِ.. وما أصعب رقابة النساء!

والثاني: أن الذي تولى رعايته في صباه هو أبو علي الفاسي وكان رجلاً متواضعاً عفيفاً فغرس العفة في ابن حزم، فلم يكشف إزاره على حرام قط منذ سن البلوغ⁽²⁾!

(1) من مقال: «ابن حزم»، عبدالله عمر خياط، عكاظ (13 / 8 / 1435 هـ). 11 يونيو 2014 م).

(2) نفسه.

أَمّا بَعْدُ، فَفِي سِيرَةِ ابْنِ حَزْمٍ فَوَائِدُ فَرَائِدُ، أَهْمَمُهَا:

أَنْ بِإِمْكَانِ الْعَالَمِ التَّمَهَّرُ بِفَنُونَ عَدِيدَةٍ، لَا بَفْنَّ وَاحِدٌ، فَلِيُطْرَحُ
- طَالِبُ الْعِلْمِ - عَنْ بَالِهِ التَّفْكِيرَ بِالْاسْتِحَالَةِ وَعَدْمِ الْإِمْكَانِ،
وَلِيُخْلِيَ الْفَتُورَ وَالْعَجْزَ، وَلِيُسْرِجَ دَابِّتَهُ وَلِيُشَدَّ عَزِيمَتَهُ وَيَتَخَذَ أَهْبَتَهُ
وَيُضْنِيَ وَيُسْهِرَ لِأَجْلِ غَايَتِهِ؛ يَصْلِي بِإِذْنِ اللَّهِ.

إِنَّ مِنَ الشَّائِعَاتِ الَّتِي تَرَسَّخَتْ فِي أَذْهَانِ الْعَالَمِينَ أَخْيَرًا الْقَوْلُ
إِنْ عَصَرَ الْعُلَمَاءَ الْمُسَوِّعِينَ اتَّهَى بِلَا رَجْعَةٍ وَلَمْ يَعْدْ بِالْإِمْكَانِ أَنْ
يَكُونَ لِدِينِنَا عَالَمٌ مُتَبَحِّرٌ فِي فَنُونِ الْعِلْمِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ تَفْسِيرٍ وَعِلْمَوْهُ
وَحَدِيثٍ وَعِلْمَوْهُ وَلِغَةٍ وَعِلْمَوْهُ وَبَقِيَّةٍ عِلْمَوْهُ الشَّرِيعَةَ!

وَيَعْلَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْعِلْمَوْنَ قَدْ تَقْسَّمَتْ وَتَجَزَّأَتْ فَاتَّسَعَتْ
بِحُورِهَا وَأَنْهَارِهَا وَكَثُرَتْ مَجَارِيَهَا وَقَنُوَاتُهَا وَلَمْ يَعْدْ إِلَيْهِ الْإِلَامَ بِهَا مِنْ
سَبِيلٍ!

وَهَذِهِ دُعْوَى خَطِيرَةٌ، سَلَمَ لَهَا كَثِيرُونَ، فَحَمِلَتْ نَتَائِجَ ضَارَّةً
وَتَسَبَّبَتْ فِي خَسَائِرَ فَادِحَةٍ، لَعَلَّ مِنْ أَضَرَّهَا مَا اتَّجَهَ إِلَيْهِ الْبَعْضُ مِنْ
الْقَوْلِ بِتَجَزُّؤِ الْاجْتِهَادِ! وَهُوَ قَوْلٌ قَدِيمٌ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ.

ثُمَّ وَجَدْنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطَلَابِ الْعِلْمِ - حَدِيثًا - مِنْ ذَهَبِ إِلَى

القول بالشخص - لا في علم من العلوم - بل في كتاب واحد من
كتب هذا العلم !

ولا أدرى كيف يصح الشخص دون شمولية !
أو كيف يقبل الاجتهد من لا يحسن إلا جزءاً من العلم
والفقه !

وقد تسببت هذه الدعاوى في وقوع خسائر فادحة، لا تقل في
فدحها عن الخسائر التي نجمت عن القول بإغلاق باب الاجتهد
الذى تبناه البعض في الفقه والبعض الآخر في الحكم على
الأحاديث !

خسرنا بها عقولاً كبيرة ضاقت عن السعي والإنتاج، وهمماً
عالية أخدت جذوة نشاطها تلكم الدعاوى.

وفي واقعنا المعاصر أمثلة تجاوزت هذه الدعاوى ولم تلتفت
إليها؛ فكان أن ضربت المثل لكنهم قلة قليلة، ولو لا تلك الشائعة
لكان لنا - إن شاء الله - واقع أفضل.

ولست أدعوا هنا إلى فوضى التبديد، وفي الذهن ضوابط
الموسوعية حتى لا يحصل الإفراط في مقابل التفريط.

**والخلاصة: العالم الموسوعي حقيقة، مكنته، سهلة، لمن سعى
إليها بجد واجتهاد.**

وكن رجلاً ناهضاً ينتمي *** إلى نفسه عندما يسأل
فلست الثياب التي ترتدي *** ولست الأسمى التي تحمل
ولست البلاد التي أنتك *** ولكنّما أنت ما تفعل

وهذه فائدة جلية في حياة ابن حزم، وثم فوائد أخرى لا
يعدّها المتأمل في سيرة عالم هو رأس في علوم الإسلام، متبحر في
النقل، عديم النظير، ورجل كان في الفقه الإسلامي ظاهرة غير
مبوبة، وربما غير ملحوقة⁽¹⁾.



(1) التقيّت ابن حزم ثلاث مرات؛ في كتابي «صفعات قادت إلى الخيرات» متناولاً سبب تحول ابن حزم إلى طلب العلم، وتوجهه إلى ساحته، ومنافسته فيه، حتى صار أحد الأئمة، ومجدد القرن الخامس. ثم هنا في كتابي: «علماء أغنياء آثروا العلم على الملذات»، وهو هذا، وأخيراً في كتابي «ملوك بلا تيجان» متناولاً مواقفه في الصدع بالحق، وإصراره على محاكمة الملوك إلى أحكام الشريعة، وفي النفس شوق إلى الاجتماع به مرات ومرات، فبعيد أن لا يجد الطالب جديداً في حياة ذلك الجبل كلما طالعها.



ابن حليفة

أمثل

وزراء الإسلام

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

ابن هبيرة أمثل وزراء الإسلام

هذا حديث عن وزير فقيه، وإمام محدث، ملا الدنيا بعلمه وفقهه كما ملأها بمنصبه ووزارته، حتى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان من أمثل وزراء الإسلام، وكان له من العناية بالإسلام والحديث ما ليس لغيره»⁽¹⁾.

والحديث عن هذا الوزير العالم يملأ النفس إشراقاً ونوراً، ويبعث في الروح عزيمة ومضاء، ذلك لأنَّه صعد من قاع عالمه إلى قمته ليس له من حامل إلَّا العلم، تحدوه إلَّي همة عالية وعزيمة ماضية لا يقف دونها شيء، فإذا شخصَ كان لا يجد رغيف خبز يعبر به نهر دجلة إلى الشاطئ الآخر لحضور درس العلم؛ يصير إمام زمانه ووزير دهره، فجمعت له إمامية الدنيا والدين معاً.

إنه الوزير العالم، والإمام العادل، صاحب السيرة الحسنة في الوزارة، جمَّ الفضائل، وافر الْحُرْمة، كبير الشأن، دائم العدل، مؤلف المصنفات الرائقة، والمؤلفات الرائعة، عون الدين، أبو

(1) مجموع الفتاوى (23/4).

المظفر، يحيى بن محمد بن هبيرة، الشيباني، المعروف بالوزير ابن هبيرة⁽¹⁾، أحد أعيان الفقهاء الصالحين.

ولد ابن هبيرة سنة (499)، وكان مولده بقريةبني أوقر، وهي قرية قريبة من بغداد، وقد قدّر الله تعالى لهذا الصبي الكريم والدًا بصيرًا بواقع الفضل، عارفًا بمقامات الخير وخير المقامات، رغم أنه كان جنديًا عاديًا بقرية أوقر تلك، فقد أثر آنه كان يحيى ابنه على تحصيل العلم والأدب وإدراك الفوائد، بل كان يمضي به صغيرًا إلى بغداد ويخضره إلى مجالس العلم، بل كان يقصد به إلى صدور المجالس⁽²⁾!

ولهذا نهض الصبي بعد وفاة أبيه - وقد خلفه وراءه صغيرًا- يكمل مسيرة التعلم غير آبه بفقر أو حاجة؛ إذ مات والده ولم يترك له شيئاً⁽³⁾، فورد بغداد في صباح، فحفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات والروايات، وسمع الحديث من أربابه في عصره، وأخذ

(1) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح (7/21)، والذيل على طبقات الحنابلة (1/251) ابن رجب، والمنتظم (10/214)، ووفيات الأعيان (6/230).

(2) الفخرى في الآداب السلطانية (312).

(3) العبر (4/173).

اللغة والأدب عن روادهما، وشارك في علوم كثيرة، حتى مهر في علوم الإسلام؛ الحديث، والفقه، واللغة والعروض، والأدب⁽¹⁾.

لقد جمع العلم وحواه، وهو الخبير كيف يكون تحصيله، ولعل من المفيد أن نشير إلى شيء من تجربته في التحصيل، تدل عليه كلماته الذهبية التي سطّرها في بعض كتبه، وهو قوله: «يحصل العلم بثلاثة أشياء:

أحدها: العمل به؛ فإن من كلف نفسه التكلم بالعربية دعاه ذلك إلى حفظ النحو، ومن سأله عن المشكلات ليعمل فيها بمقتضى الشرع تعلم.

والثاني: التعليم؛ فإنه إذا علم الناس كان أدعى إلى تعليمه.
والثالث: التصنيف؛ فإنه يخرجه إلى البحث، ولا يمكن من التصنيف من لم يدرك غور ذلك الذي صنف فيه⁽²⁾.

لقد سلك ابن هبيرة هذا المسلك فطلب العلم أول حياته، ثم لما تمكن ورسخت قدمه علم وصنف، فنفع الله به وبقي ذكره إلى يومنا هذا.

(1) انظر ذيل طبقات الحنابلة (3/251)، والبداية والنهاية (12/250).

(2) ذيل طبقات الحنابلة (1/273، 274).

هذا عن مسلكه في العلم فماذا عن مسلكه في التربية والأدب؟

إن سيرة ابن هبيرة تُظهر لنا بجلاء أن العلماء السابقين كانوا يتلقون -عن شيوخهم- السلوك، كما يتلقون العلوم: فيذكر أنه صاحب أبا عبد الله محمد بن يحيى الزبيدي الوعاظ الزاهد، من حادثته، وأخذ عنه التأله والعبادة، وانتفع بصحبته حتى إن الزبيدي كان يركب جملًا ويعتم بإزار ويلويها تحت حنكه وعليه جبة وهو خصوب بالحناء، فيطوف بأأسواق بغداد ويعظ الناس، وزمام جمله بيد أبي المظفر ابن هبيرة، فكان ابن هبيرة يمسك بجمل هذا الوعاظ يمشي به وهو يطوف على الناس يعظهم، وكلما وصل الزبيدي موضعًا، أشار أبو المظفر بمسبحةه ونادى برفع صوته: «إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قادر»⁽¹⁾.

وهذا مسلك عظيم قد أهمله جل المسلمين اليوم في مجال طلب العلم، كان من أثره ذلك الشقاق والنزاع، بل والانتكاس الذي نراه في صفوف العاملين للإسلام اليوم!

(1) الذيل (1/251).

إن التربية الإسلامية هي الأساس المتن الذي بنيت به وعليه حضارة المسلمين، بل إن المتابع لحركة المد الإسلامي ليدرك أن الله فتح على المسلمين من آفاق الأرض بفضل السلوك والخلق أضعاف ما فتحه عليهم بالسيف والسنان!

ولذا وجب على العاملين في مجال التعليم وواضعى مناهج الطلب أن يعنوا بجانب التربية عناية كبيرة، ويولوه اهتماماً عظيماً، لا أبالغ إن طالبت أن تكون أعظم من العناية بمسألة العلم نفسه، فإن العمل هو ثمرة العلم وغايته، وعلم بلا عمل كشجرة شوك، لا نفع فيها، وإنه لمكتوبٌ على باب العلم: إذا أنعم الله عليك بعلمٍ فليُرِّ عليك أثُرُه، وإلا فلا تتعنّى.

ترجم النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجري على اليبس

ما زلت أقول: إن «قضية العلم» لم يكشف عنها - إلى اليوم - كشفاً حقيقياً، كاملاً، وذلك في عدة جوانب، وهذا الجانب أحدها، فقد نمت لنا في مجال العلم أجيالٌ غفيرة، لكنّها ماثلة العود، خالية من رابط وثيق يربطها بجوهر هذا الدين في جانب السلوك والخلق، فأقواهم من الإسلام وأفعاهم أفعال من لم يسمع به قط،

وهو لاء يضرون ولا ينفعون!

والحل في العودة إلى التربية الإيمانية الخالصة؛ لنخرج من التيه والخذلان والوهن الذي نحياه، وليس هذا نافلة أو تطويعاً بل ضرورة ملحقة، وفرضياً محتماً، بل هو أولى الضرورات والمحتمات وما ينبغي أن تتوجه إليه الجهد لأنه هو طريق الخلاص!



وقصة ابن هبيرة مع العلم والوزارة -معاً- قصة تدل على سعة فضل الله تعالى الذي يرزق المرء بكرمه الواسع من حيث يرى أنه ضيق عليه، فإن ابن هبيرة لما مات والده ولم يترك له شيئاً وكان يطلب العلم أمضه الفقر واحتاج إلى مورد للكسب، ولهذا التحقق بالخدمة السلطانية فحصل على وظيفة كاتب، ثم ترقى حتى صار مشرفاً على الخزانة، ثم رقي حتى صار صاحب ديوان الزمام، وهو ديوان يعني بالشئون المالية المدنية والعسكرية، وفيه لحفظ السجلات.

وذلك كله في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله⁽¹⁾.

(1) ينظر: الكامل (9/364، 363)، والبداية والنهاية (12/225)، والذيل على طبقات الحنابلة (1/253).

وقد جاءت ترقية «ابن هبيرة» في تلك الوظائف الرفيعة خلال وقت قصير، وذلك لما لوحظ فيه من الأمانة والنصح والقيام بالعمل في جودة وإتقان.

وفي سنة (544 هـ) عينه المقتفي وزيراً، واستمر فيها طوال عهده، ثم شطراً كبيراً من عهد ابنه المستنجد بالله⁽¹⁾.

فسبحان الوهّاب الكريم الججاد، ها هو الصبي الذي كان في مطلع حياته شديد الفقر، حتى إنّه كان لا يجد رغيف الخبز ليُعْبَرَ به نهر دجلة⁽²⁾، قد صار وزيراً تأييده الأموال من كل ناحية؛ ليصرّفها كيف يشاء!

ولندرك أهمية العلم إلى جوار المنصب، دعنا نتساءل: أين صرف الوزير العالم تلك الأموال؟ ومنها أمواله الخاصة التي لا شك أنها من الكثرة فوق الوصف، سبباً وأنه كان في بداياته يسأل الله المال وسعة الرزق؛ كما أخبر عن حاله بقوله -أثناء الوزارة-: «والله لقد كنت أسأّل الله تعالى الدنيا؛ لأنّي خدم بها رزقنيه منها العلم وأهله»⁽³⁾!

(1) السير / 20 (426).

(2) السير / 20 (428).

(3) التاج المكمل (200 و 201).

فها قد صدقه الله ورزقه، فما عمل في أمواله؟

لقد كانت السنة تدور على ابن هبيرة، وعليه بعض الديون؛ لما
يذله من أموال طائلة في سبل الخير ووجوه البر، حتى إنه لكثره
جوده وصدقاته لم تجب عليه زكاة قط⁽¹⁾!

وقد قال في ذلك أحد الشعراء:

يُقُولُونَ يَحْيَى لَا زَكَاةَ لِمَالِهِ

وَكَيْفَ يُزَكِّي الْمَالَ مَنْ هُوَ بَاعِذْلُهُ

إِذَا دَارَ حَوْلُ لَا يُرَى فِي بُيُوتِهِ

مِنَ الْمَالِ إِلَّا ذِكْرُهُ وَفَضَائِلُهُ؟⁽²⁾

بل إنّ ابن هبيرة لهذا السبب مات - حين مات - مُعدّماً،
واضطر ورثته أن يعرضوا مصنفاته والكتب التي بخطّ يده
- فضلاً عَمَّا اقتناه - للبيع⁽³⁾!

فلله درّه من جواد منفق!

وإذا كانت موافق ابن هبيرة مع المال معجبة، فإن سيرته في

(1) المنهج الأحمد (2/304).

(2) تاريخ ابن خلدون (3/516).

(3) ذيل طبقات الحنابلة (3/283).

الوزارة هي الأخرى كانت غاية في العجب!

لقد استدعي إلى إيوان الخليفة؛ ليقلده الوزارة، فمشى أرباب الدولة وأصحاب المناصب كلهم بين يديه وهو راكب إلى الإيوان في الديوان، وكان ذلك تقليداً عظيماً من يتولى الوزارة، وكان يوماً مشهوداً⁽¹⁾، فما إن تقلد الوزارة حتى بدأ الإصلاح الذي يملئه عليه علمه، من أول يوم، شكلاً وموضوعاً، لقد أبطل قول الناس في الوزير: سيد الوزراء، وأوصاهم ألا يقولوا ذلك في ألقابه، وقد نظر ابن هبيرة في ذلك إلى معنيين:

الأول: أن الله سمي هارون وزيراً.

والثاني: أنه جاء عن النبي ﷺ أن وزيره من أهل السماء: جبريل، وميكائيل، ومن أهل الأرض: أبو بكر، وعمر⁽²⁾.

فإذا قيل: سيد الوزراء، فقد يتوهم دخول هارون، وأبي بكر، وعمر في هؤلاء الوزراء، ولا يمكن أن يكون سيداً لهم، ولا يجوز أن يكون هو -أو غيره- كذلك!

(1) انظر: المقصد الأرشد (3/109)، وشذرات الذهب (4/264)، وكشف الظنون (2/1127).

(2) ضعيف؛ انظر ضعيف سنن الترمذى (3680).

ويذكر لهم أنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَنِي، وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابًا، فَجَعَلَهُمْ وَزَرَاءً وَأَنْصَارًا»⁽¹⁾.

ويقول: «وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ عَنِّي إِنِّي سِيدُ هُؤُلَاءِ السَّادَةِ!»⁽²⁾.

فسبحان ربِّي! كان يتربَّى بثاقب علمه -إضافةً إلى شديد اتباعه وورعه- لهذه المسائل الدقيقة⁽³⁾.

وذلك من تواضعه رَحْمَةً لِلَّهِ، لم يطعه المنصب ولم ينسه ما أفاده العلم.

فلا عجب إذن أن نسمعه يندم ويتأسف على دخوله الوزارة⁽⁴⁾، ويرجو السلامة والنجاة مما دخل فيه، ويذكر أنها أمانة وأنها حسرة وندامة يوم القيمة، وهذا من خشيته الله تعالى، وإلا فعمّا المنصب يكون فيه القويّ الأمين، ينفع به دينه وأمته، ولأجل

(1) ضعيف؛ انظر: السلسلة الضعيفة (7 / 36).

(2) انظر: الفخرى في الآداب السلطانية (228) ابن الطنطقي ، الذيل على طبقات الحنابلة (1 / 253).

(3) أصوات على سير العلماء، محاضرة صوتية للشيخ محمد صالح المنجد، بموقع طريق الإسلام.

(4) السير (429 / 20).

هذا تطلب المناصب وتسأل، ولا ترك لمن لا يتقى فيها ربّه ولا
يؤدي فيها حَقّه.

ثم نظر في بطانته فقرب خيار الخلق من العلماء والصالحين
فكانوا بطانته؛ يستشيرهم ويأخذ بعلمهم ورأيهم، بل وظفهم
باليوظائف المختلفة، وبذل لهم جاهه وأمواله يعملون فيما بمقتضى
العلم في النّاس، حتى عم الخير وشاع العدل وارتفع الحق وانتفع
النّاس بالشرع في عهده غاية الارتفاع.

وقد أصلح ما أفسده من كانوا قبله، وعمل في منصبه بالعدل
وأشاعه في النّاس، وجاد عليهم بفضول أموال الدولة التي لا
يضر خزانتها إنفاقها، ولا ينفعها حبسها،

لقد تقلّد الوزارة فجعل مجلسها مجلساً علمياً، وبالغ في إكرام
العلماء وولاهم المناصب وارتفع به أهل السنة غاية الارتفاع، ولم
ترُل مجالسه مشحونة بالعلماء والمذاكرة حتى توفي⁽¹⁾.

وقد أعز الله به السنة وأمات البدعة، وقمع شرّ الرّافضة،
كيف لا وهو من يحفظ كلامه العجيب: «والله لا نترك أمير المؤمنين

(1) الذيل على طبقات الحنابلة (1/ 258).

علي بن أبي طالب مع الرافضة، بل نحن أحق به منهم»⁽¹⁾؟

وكانت أخلاقه رَحْمَةُ اللَّهِ قبل الوزارة حسنة، فلما ولَيَ ارتفعت
وازدانت، وشاهد ذلك أنه لما مات رَحْمَةُ اللَّهِ خرج في جنازته ما لم ير
في جنازة غيره في عصره، كما قال ابن الجوزي⁽²⁾، ولا غرو فقد
عرف عنه العلم الغزير وله تاريخ حافل بالأراء السديدة،
والاستنباطات العجيبة من الكتاب والسنة، وأيضاً قد بلغ درجة
عظيمة من الإحسان لمن أساء إليه أو ظلمه⁽³⁾.

ومن أجل ذلك كله كان ابن هبيرة وزيراً محبوّاً من عامّة
الخلق، لأنّه سار فيهم بسيرة العدل، ووفي المنصب والعلم حقّهما،
ومن كان على مثل هذه الدرجة من العلم والعدل والسمّاحة يحبه
الناس بلا شك.

لقد ضرب لنا ابن هبيرة في وزارته مثلاً عمليّاً على كل مسلم
أن يحتذى به؛ فهو قدوة عظيمة لكل من اشتغل بمنصب أو انتهى
كرسيّاً في الدولة!

(1) ذيل طبقات الخنابلة (2/156).

(2) المنظم (216/10).

(3) السير (428/20).

لم يشغل الوزير ابن هبيرة منصبه ذاك عن العلم والتصنيف ومذاكرة العلماء، بل قد باشر ذلك بقوّة، فكان مكبًا -مع أعباء الوزارة- على العلم وتدوينه⁽¹⁾، ومن ثم أثرت عنه مصنفات إبان توليه الوزارة منها شرحه العظيم على كتاب الجمع بين الصحيحين، لأبي عبد الله الحميدي الأندلسي؛ «الإفصاح عن المعاني الصحاح»⁽²⁾، وهو مطبوع في ثانية مجلدات، وكفى به شاهدًا على أصالة ابن هبيرة في الحديث والفقه واللغة، على الرغم من أنه لم يصلنا كله، بل هو منقوصٌ عما ألفه عليه صاحبه!

ويرجح الأستاذ عبد المنعم فؤاد، محقق الكتاب، أنه لم يصل إلينا من مؤلفات ابن هبيرة سوى أجزاء من كتابه «الإفصاح عن المعاني الصحاح»، ويرجع الأستاذ المحقق السبب في ذلك إلى أنّ أعداءه سعوا إلى محو ذكره بما ترك من علم يتتفق به بعد وفاته بمحو مصنفاته⁽³⁾، وينقل عن الحافظ ابن رجب قوله في «ذيل طبقات الحنابلة»: «فَلَمَّا بَيَعَتْ كُتُبُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ اشْتَرَاهَا بَعْضُ الْأَعْدَاءِ

(1) السير (20/427).

(2) طبع في أوقاف قطر، بتحقيق الأستاذ فؤاد عبد المنعم أحمد، ثم نشرته دار الوطن، وهو في (8) مجلدات.

(3) انظر مقدمة تحقيق كتاب الإفصاح (1/14).

فغسلَها⁽¹⁾.

ومن مصنفات الإمام الوزير ابن هبيرة، -بعد الإفصاح-: «العبدات الخمس» وهو كتاب في الفقه على مذهب الإمام أحمد، و«المقتضى» وهو كتاب في النحو، كما قام باختصار كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكّيت⁽²⁾.

وله إلى جوار ذلك أرجوزات في المقصور والمدود وأرجوزة في الخط⁽³⁾.

فلم تكن الوزارة لتشغله عن طلب العلم والتأليف والتدريس، بل البر بالعلماء.

وقد ظهرت مكانة ابن هبيرة العلمية بعد توليه الوزارة، فإنه أقام مجلساً علمياً يقرأ فيه كل يوم الحديث ويعلّق هو عليه، وكان مجلساً حافلاً بالعلماء وطلبة العلم وال العامة، ساعد في ذلك ما بلغه الوزير من تحصيل للعلوم، حيث أخذ من كل فن طرفاً، كما ألف في

(1) ذيل طبقات الخنابلة (3/283).

(2) انظر: ذيل طبقات الخنابلة (3/252)، وكشف الظنون (1/108)، والأعلام (9/222).

(3) انظر بقية تصانيفه في طبقات ابن رجب (1/252، 253)، و هدية العارفين (2/521).

فنون متعددة كتباً مستقلة أو أجزاء من كتب.

فأما مجلسه العلمي فقد كان يعقد بعد العصر في بيته لقراءة الحديث، يملي فيه شرحه للجمع بين الصحيحين للحميدي المسمى «الإفصاح عن معاني الصحاح» ويدور فيه مناقشات بين العلماء والأدباء، وقد جمع الوزير لهذا الشرح علماء المذاهب، إذ اعتنى فيه بالخلاف الفقهي للأئمة الأربعه وبرع فيه، مما كان له الأثر الأكبر فيما بين علماء فقلما يوجد من يؤلف في الفروع والفقه المقارن بين المذاهب إلا ويرجع إلى كتابه «الإفصاح عن معاني الصحاح» خاصة الجزء الذي سطره في المقارنة بين المذاهب، لحسن تحريره والإقرار علماء المذاهب في وقته حيث جمعهم الوزير عليه⁽¹⁾.

ولابن هبيرة تميز ظاهر في فنون مختلفة مما جعل أهل العلم يثنون عليه، فقد قال ابن الجوزي: كانت له معرفة حسنة بالنحو واللغة والعروض وتفقهه وصنف في تلك العلوم، وكان شديداً في اتباع السنة وسير السلف⁽²⁾.

(1) ينظر: خريدة القصر (1/98)، المتنظم (10/215)، الذيل على طبقات الحنابلة (1/252).

(2) المتنظم (10/214).

بل إن ابن الجوزي صنف كتاباً يدل على إعجابه بالوزير سمه:
(المقتبس من الفوائد العونية) ضمّنه بعضًا مما أفاد من ابن هبيرة⁽¹⁾.

وقال العمام الأصفهاني: «وكان غزير العلم، ذا هيبة، ذا
هيبة، مفوّهًا، مهيبًا»⁽²⁾.

عاش الوزير ابن هبيرة (61) عامًا، قضى منها (16) عامًا في
الوزارة، كان آخرها في خلافة المستنجد، ويظهر أنّ الوشاة سعوا
إلى المستنجد بابن هبيرة تحت ذرائع يدفعهم إلى ذلك الحقد
والحسد، فكان أن دبر المستنجد له وقتلها، وذلك أنه سقاه السمّ بيد
طبيبه⁽³⁾!

وطلبت كتب ابن هبيرة -بعد موته- من مكتبه، وغسلت
حتى لم يبق فيها حبرٌ، وكذلك فعلوا بما كان عند النساخ منها، وبما
كان يحتفظ به العلماء في بيوتهم، بل كان يوشى بالرجل فيؤخذ

(1) انظر: الذيل على طبقات الخنابلة (1/ 253)، وقد نقل عنه ابن رجب
كثيراً، وهو ما فقد من كتب ابن الجوزي.

(2) خريدة القصر (1/ 97)، نقلًا عن: «أقوال الوزير ابن هبيرة في التفسير،
جماعًا ودراسة» (ص 17) عبد العزيز الخزيم.

(3) المتظم (10/ 216).

وينگل به؛ بحجة أنّ لديه بعض كتب ابن هبيرة!

ومن هؤلاء الإمام أبو الفرج ابن الجوزي، وشي به واتهم
بحيازة كتب ابن هبيرة، ثم لم يلبث أن خلي عنه، لما فتشوا داره
ومكتبته فلم يجدوا عنده شيئاً منها⁽¹⁾!

وهكذا قلّ رفع الشأن عالي الكعب إلا وله حсад،
فكيف بمن في منصب الوزارة؟

ولم يدفع عن الوزير علمه، فماذا يجدي العلم مع الجھا؟ كما
لم يدفع عنه عدله وسيرته الحسنة، فلو نفعت سيرة إنسان في حمايته
من القتل لنفعت سيرة العمررين؛ أما طعن عمر بن الخطاب وهو في
المحراب؟ ودس السمّ لعمر بن عبد العزيز فمات؟

وقد انتقم الله تعالى للوزير العامل، فكان أن سُقِيَ الطيب هو
الآخر سُمّاً، فكان يقول عند موتة: سُقِيْتُ كَمَا سَقَيْتُ⁽²⁾.

كما مات المستنجد -رأس هذا الأمر ومدبره- هو الآخر بعد
موت ابن هبيرة بست سنوات فقط! بعد أن تآمر عليه وزيره
وحاجبه و«طبيبه» أيضاً؛ أدخلوه الحمام ثم أغلقوا عليه الباب،

(1) المتنظم (10/213).

(2) السير (20/429).

فبات خنقاً⁽¹⁾.

والجزاء من جنس العمل!

لكن فرق بين موته وموته، فابن هبيرة الوزير العادل، حين
مات غلقت أسواق بغداد وخرجَ جمُّ لم ير لخلقٍ قط؛ في
الأسواق وعلى السطوح وشاطئ دجلة، وكثير البكاء عليه؛ لما كان
يفعله من البر ويظهره من العدل⁽²⁾.

ومدحه الشعراء بعد موته وهم لا يرجون منه عطاء ولا من
ورثته الذين تركهم معدمين، بل كان ذلك من أثر البر الذي صنعه
في حياته، فجعل الناس تصدقه الحبّ بعد وفاته، ونما رثي به قول
أحد الشعراء:

مات يحيى ولم نجد بعد يحيى

ملكًا ماجدًا به يُستعانُ

وإذا مات من زمانٍ كريمٌ

مثل يحيى به يموت الزمان⁽³⁾

(1) السير (20/415).

(2) المتنظم (10/213).

(3) المنهج الأحمد (2/291).

ولعل سقيا الوزير السّمّ كان تحقيق أمنية واستجابة دعاء دعا به ابن هبيرة الله كثيراً - وكان مستجاب الدّعوة -، فقد كان يتمنى الشّهادة ويدعو الله أن يرزقه إياها، ولندع ابن الجوزي يقصّ علينا نبأ ذلك بقوله: «كان الوزير يتأسّف على ما مضى من زمانه، ويندّم على ما دخل فيه، ثم صار يسأل الله عَزَّوجَلَ الشّهادة، ويتعرّض لأسبابها، وكان صحيحاً يوم السبت ثانى عشر جمادى الأولى سنة ستّين وخمسمائة، فنام ليلة الأحد في عافية، فلماً كان وقت السّحر قاء، فأحضر طبّيّاً كان يخدمه فسقاه شيئاً، فيقال: إنَّه سَمَّه فمات، وسُقِيَ الطّيّب بعده بنحو ستّة أشهر، فكان يقول: سُقِيْتُ كما سَقَيْتُ، ومات الطّيّب واسمه ابن رشادة»⁽¹⁾.

كانت أمنية ابن هبيرة إِذَا هي الشّهادة، وقد نال - إن شاء الله - ما تمنّى.

ليس هذا فحسب، بل حدثت له مع ذلك كرامات أخرى، فإنّ الحافظ ابن رجب ينقل لنا في ذيل الطبقات عن أبي بكر التّيمي أنَّ الوزير بعدما تناول المشروب من طبّيّه استفرغ، ثم استدّى بهاء فنوضاً للصلوة، وصلّى قاعداً، فسجد، فأبطأ عن القعود من

(1) المتّظم (10/216).

السجود، فحرّكوه فإذا هو ميّت⁽¹⁾.

كانت هذه هي خاتمة حياة الوزير العامل والإمام العادل، الذي استقر بالله إيمانه وعمق ثقته، كما أنّ ورعيه، وزهده، وتقواه، وخشائه، وعبادته، وتواضعه، وشجاعته في الحق، والتزامه الحلال، وإقامته على العدل، وتمسّكه بالسنة، مع البذل والإنفاق والصفح والعفو عند المقدرة كانت نهادج تقتدى ومنهجاً حياً يحيى بين الناس.

فيا لها من خاتمة حسنة، نسأل الله تعالى أن يحسن خواتيمنا!

أفرد أبو بكر التيمي كتاباً جمع فيه مناقب العالم الوزير وفضائله، لكنه لم يصل إلينا أو لم نصل إليه، وإن كانت الكتب التي ترجمت لابن هبيرة قد عوّلت جميعها عليه.

وفي سيرة الوزير العامل «ابن هبيرة» عظات وعبر كثيرة، ومن أعظم ما يقف أمامه المرء مدحواً منها هو دور الوالد والشيخ في

(1) وفيات الأعيان (6/241).

التلميذ، لقد قرأنا كيف كان والده يجتهد على طلب العلم، وكيف حرص على اصطحابه إلى مجالس العلماء، بل كان يجلسه في صدارتها.

ولاشك أن هذه النهاية الجميلة التي انتهت إليها شجرة ابن هبيرة العلمية المورفة، يعود شيء كثير منها إلى هذه الفسيلة التي غرسها والده؛ بكلماته وأفعاله، فنمّت عبر الأيام وترعرعت، لا سيما وقد لقيت أرضاً طيبة من نفس الصبي الصغير المحب للعلم الحريص عليه.

وقد سخر لهذه الفسيلة - حين أخرجت شطاؤها - شيخ عظام ومربيون مهرة، فقاموا على رعايتها ونهاها، حتى امتدت جذورها واستوت على سوقها، وضربت فروعها في السماء.

بين والدين حريصين على أن يكون لابنها شأن، ومعلمين يدركون رسالتهم في إعداد الأجيال، ويقدّرون دورهم في صناعة الرجال؛ تخرج إلى هذه الحياة خيرة القادة وعظيم المواهب وأفذاذ الرجال.

انظر حولك، فحيثما ترى عظيماً من العظماء؛ حاكماً أو قائداً أو بطلاً أو مديراً أو داعية أو طبيباً أو غيرهم، أينما يمتد وجهك لا

تلق إنسانًا ناجحًا إلا وتلق من وراء نجاحه أب أو أم - أو كلاهما -
حرirsch على أن يكون له شأن، ومعلم أدرك قيمة دوره ومحورية
 مهمته.

أولئك جميعًا هم صنائع الوالدين والمعلم.

ونظرة في سيرة ابن هبيرة تظهر لنا هذا الأثر واضحًا؛ فهذا
الوالد الجندي مستور الحال، يدفع بابنه في طلب العلم ويحثه عليه
ويأخذ بيده إلى صدارة مجالس العلماء فإذا بالولد يسعى - حتى بعد
رحيل والده - في السبيل نفسه، ورغم الفقر المدقع الذي تفرغ معه
اليد من رغيف لم يترك ابن هبيرة طلب العلم!

أليست الصورة واضحة، والآثار لائحة؟

ومن عجيب ما وقفت عليه في مسألة فهم الوالدين دورهما في
تعلم الأولاد العلم، ما حكاه الإمام تاج الدين السبكي عن والده
الإمام تقي الدين، قال:

«وكان الله تعالى قد أقام والده ووالدته للقيام بأمره، فلا يدرى
شيئًا من حال نفسه، - يعني من جهة المعيشة وتدبير مستلزمات
الحياة -، ثم زوجه والده بابنة عمه وعمره خمس عشرة سنة،

وألزمها ألا تحدثه في شيء من أمر نفسها، وكذلك ألزمها والدها، وهو عمه الشيخ صدر الدين، فاستمرت معه، ووالده ووالدها يقومان بأمرهما، وهو لا يراها إلا وقت النوم، وصحبته مدة، ثم إن والدها بلغه أنها طالبته بشيء من أمر الدنيا، فطلبها، وحلف عليه بالطلاق ليطلقها، فطلقها⁽¹⁾.

فانظر إلى اعتناء والده وعمه بأمره، وكان ذلك خوفاً منها أن يشغله باله بشيء غير العلم، وإن تعجب لتلك الشدة، فسوف يزول عجبك حين تعرف من هو التقى السبكيّ!

هذه نظرة، في الوالدين، وبنظرة أخرى في الشيوخ والمعلمين نجد تأثر ابن هبيرة بشيوخه، لا سيما شيخه «الزبيدي» -الواعظ الزاهد- الذي صاحبه ابن هبيرة في حداثته؛ فقد كان على طريقة السلف -وكان ابن هبيرة كذلك-، وكان زاهداً -وكان ابن هبيرة كذلك-، وكان يقول الحق ولا يخفي لومة لائم -وكان ابن هبيرة كذلك-، بل كان الزبيدي بارعاً في النحو -وكان ابن هبيرة كذلك-.

(1) طبقات الشافعية الكبرى (10/145).

ولعل نظرة متأملة في طريقة شرح ابن هبيرة لأحاديث الصحيحين في كتابه الإفصاح؛ تكشف لنا عن مدى تأثير التلميذ -ابن هبيرة- بطريقة أستاذه ومربيه؛ فقد «أولى ابن هبيرة عنایته في شرحه فقه الحديث في مجال تهذيب النفس وتربيّة الروح وسمو الأخلاق، مما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم ومعادهم وجهادهم»⁽¹⁾.

أليس ذلك وجهاً جديداً للشبه بين التلميذ والأستاذ، ومؤكداً على ما قررنا من مسألة تأثير المتعلم بالمعلم؟

وهذه -إن فاتتك الأولى- في يدك يا طالب العلم!

فاختر شيخاً يصنعك ويخرجنك عالماً، لا طويلب علم ولا طالب، شيخاً قوياً، تخرج به قوياً.

لقد تأملت فإذا للأستاذ أثرٌ على تلميذه، إيجاباً وسلباً، بدرجةٍ كبيرةٍ جداً، تفوق التصور الشائع.

بان لي ذلك أثناء مطالعتي سيرة أحد هم، وقد قرأت عنه في (20) كتاباً ترجم له، فلم ترو غليلي حتى تناولت قراءة أستاذته

(1) انظر مقدمة تحقيق كتاب الإفصاح (1/27).

وأقرانه وتلامذته.

وكانَتْ فرصة طيبة لمعرفة آثار الأساتذة في التلامذة، كيف هي؟ فإذا شيء بالغ الأثر عميقه.

إن قوّة فقوّة وإن ضعفاً فضعف.. حتى المهاط.

فليكن الطالب ذكياً في اختيار أستاذه.

ومن الفوائد الواضحة في سيرة الوزير العالم أيضًا أن بإمكان المرء أن يحصل أعلى المراتب في الدين والدنيا وإن لم يكن يملك منها شيئاً.

نعم، من حبك أن تحلم! وأن تخطط لمستقبل مشرق، وأن تسعى لتحقيق حلمك، وإدراك مستقبلك، لكن من حق حلمك عليك أن تتمتع بهمة عالية ونفس طموح مع عزيمة وإصرار، بهذا تصل إلى ما تريده، وتحقق ما تطلب، ويوم تصل سيكون ذلك هو الفخر الحقيقي لك، والجاه الحقيق بك، فأعظم فخر للمرء أن يكون عصاميًّا لا عظاميًّا، قد ولَى الزمان الذي يخفي فيه على الناس من أوصلته همته ومن أوصلته ماليته، هذا الأخير ليس من حقه أن يقول: أنا.

مضى زمن كان فيه الفتى

يهاري بما قومه أثّلوا

ويرفعه في عيون الأنام
ويختفيض من قدره المنزل
فلا تقعدن عن طلاب العلي
وتعزل بلادك إذ تعزل
فإن الخلائق حتى عداك
متى ماسبقوتهم هلّلوا
فثابر بجدّ على نيلها
وكن رجلاً ناهضاً يتنمي
إلى نفسه عندما يسأل
فلست الثياب التي ترتدي
ولست الأسامي التي تحمل
ولست البلاد التي أنتبتك
ولكنما أنت ما تفعل
إذا كنت من وطن خامل
وفزت فأنت الفتى الأفضل
وفقني الله وإياك للمعالي!



هزير الدين داود

الملئ العالم الذي

شغف بالكتب حبا

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

١٩٠٦

هذير الدين داود الملك العالم الذي شف بالكتب حبا

الله ما أعظم تاريخ الإسلام والمسلمين! ففي كل شبر من الأرض لنا أمجاد تحفل لها الدنيا وبها تفتخر، وفي كل زمان لنا عظماء سطروا آيات من الجمال والجلال تبقى غرّاً على جبين الزمان إلى الأبد، وكلما أمعن المطالع النظر في تاريخ الأمم والدول وجد لنا هنا وهناك بصمات لا تمحى، وأثاراً لا تنسى.

كم كنت أتمنى لو عشت خلال عصور الإسلام تلك!
ترى ما كان شعور أهلها نحو دينهم وأوطانهم وأنفسهم؟
إنني أؤمن بأنهم كانوا أعزاء سعداء متاخين بينهم، راضين عن أنفسهم؛ إذ ترفرف فوقهم أعلام الإسلام في شموخ، ويقلدون في رغد الرضا والفرح؛ من جراء التزامهم بتعاليمه.

وكلما صاقت بي هذه الدنيا؛ لبؤس أحواها وسوء أجوابها؛
تركت هذا الزمان وحلقت بعيداً في أفق هذه الأمجاد، أعاين أحواها وأجوب طرقاتها وأعيش أهلها، فأنقلب سعيداً مسروراً، وترتد إلى همي وعزيمتي من جديد!

إنها وإن كانت ذكرى، إلا أنَّ الذكرى -كما هو معروف-
صورة من صور اللقاء!

نحن الآن في اليمن، في عصر من أزهى عصورها في الإسلام،
مع دولة من أعظم الدول، وملك من أفضل الملوك هو السلطان
الملك المؤيد هزير الدين داود، بن يوسف، بن عمر، بن علي، بن
رسول⁽¹⁾، أحد ملوك الدولة الرسولية العظيمة.

كان المؤيد داود هو الملك الرابع في الدولة التي أسسها (بني
رسول)؛ تلك السلالة المسلمة، السنّية، التركمانية، التي حكمت
بلاد اليمن في الفترة بين (1229-858 هـ / 1454-1454 م)،
وقد أسس هذه الدولة الملك عمر بن رسول الملقب بـ«الملك
المنصور»، وكان رَحْمَةُ اللهِ بِطَلاً طموحاً وسياسياً بارعاً.

ويُعدُّ «العصر الرسولي» واحداً من أزهى الفترات في بلاد
اليمن، وأفضل العصور التي مرت عليها بعد الإسلام، ودولتهم
من أطول الدول اليمنية عمرًا، وهي أعظمها ثقافة، حتى إن عدداً
من ملوكها عرف بالعلم وأثرت عنه مؤلفات في مجالات كثيرة:

(1) الدرر الكامنة (1/219) ابن حجر.

الطب، والصناعة، والشرع، واللغة⁽¹⁾.

ومن هؤلاء الملوك الذين حكموا دولة بنى رسول وعرفوا بالعلم وسعة المعرفة: الملك المؤيد داود بن يوسف، فقد كان رَحْمَةُ اللَّهِ من العلماء المشاركين في العلم؛ حفظاً ودراسة ومحاثة، متفنّناً في كثير من العلوم، فهو وإن تبوأ أعلى المناصب وأرفعها في الدنيا - الملك - لم يشغله ذلك عن العلم وطلبه وحفظه والبحث فيه!

ها هو ذا ينشط لسماع الحديث من الحافظ محب الدين الطبرى وغيره، وحفظ التنبية⁽²⁾ في فقه الشافعية، بل إن عبارة الحافظ ابن حجر في ترجمته من الدرر الكامنة تشي بما فوق حفظه للتنبية؛ إذ يقول عنه الحافظ: «بحث التنبية»⁽³⁾، ومعلوم أنّ بين الحفظ والمحاثة فرقاً كبيراً.

وكذلك حفظ «مقدمة ابن بابشاد» في النحو، وحفظ «كفاية المتحفظ» في اللغة.

كما كان الملك المؤيد أديباً⁽⁴⁾، ومحباً للكتب والعلوم وأهلها؛

(1) مقالة في التعريف بالدولة الرسولية على الموسوعة العالمية، ويكيبيديا.

(2) طبقات الشافعية الكبرى (10/33)، السبكي.

(3) الدرر الكامنة (1/219) ابن حجر.

(4) الأعلام (2/336).

كان يجمع كل ما تصل إليه يده من حسن الكتب وجيدتها، وقد عرف الناس منه ذلك فقصدوه من الآفاق بكل تحفة وملحة، وكان هو في المقابل يبالغ في إكرامهم على ذلك، حتى إنه أهدى له نسخة من الأغاني بخط ياقوت، فبذل فيها مائتي دينار مصرية!

وقد اجتمع عند من نفائس الكتب ومصنفات العالم ما قلّ
اجتماعه عند كثير من الناس، فاشتملت خزانة كتبه على مائة ألف
مجلد!

ويحكي المؤرخون أنه كان في ديوانه زيادة على عشرة نسخ
ينسخون الكتب، فإذا نسخوا كتاباً منها يقابل على أصله ثم يحرر،
فإذا تحققوا من ضبطه رفع إلى مكتبه بعد!

وقد يتعجب بعض من لم يباشر حب الكتب قلبه مثل هذه
الأخبار، لكن من ذاقه عرف أن الأمر في حب الكتب يتجاوز كلّ
حد؛ مالاً وغيره، فإن لحوز الكتب شرامة كشراهة تناول الطعام
الطعام، فمن أحب الكتب وأدمن النظر فيها والاستفادة منها لا
يصبر إذا وقعت عينه على كتاب حتى يحصله ويحوزه!

إن القراءة - بحق - منها حياة وليس مجرد هواية!

وأنا أخبر عن حالي؛ أحب ثلثاً لولاهما ما حفلت بحياتي؛

ذهبت أم آبت:

هذا الكتاب «القرآن»؛ يهيم قلبي بترداده؛ تلاوةً، وحفظاً، وفهمًا، وهذا العلم؛ أغرق في كتبه لأذني؛ إمتاعاً لروحي، وتوسعة عقلي، وإنارة لمصيري، وهذا الأمل الذي يمتلئ به قلبي وعقلي ونفسي، بأن المستقبل لهذا الدين، وأن أمتي ستعز حتى تكون فوق الأمم.

لقد كان الملك المؤيد عاشقاً للكتب، وكان إلى جوار هذا محباً لأهل العلم، مقرباً لهم، يستميلهم حيث كانوا، ويرغب فيهم، ويرغب فيهم فيما عنده⁽¹⁾.

كان الملك المؤيد مصنّفاً جيد التصنيف وقد خلف من الآثار العلمية: اختصاره لكتاب (الجمهرة في البيزرة)⁽²⁾، وهو كتاب في الطب، ألفه عيسى بن علي بن حسان الأزدي، وهو مخطوط، بمكتبة الأسكندرية، وعنه مصورة في معهد المخطوطات العربية.

(1) انظر: بهجة الزمن، عبد المجيد بن عبد الباقي، نقلًا عن منتدى المؤرخ زيد محمد حسين الفرح، بالشابة.

(2) الأعلام (2) / 336.

ولم يكن اختصار الملك المؤيد لهذا الكتاب اختصاراً عادياً، بل قد زاد على الأصل مباحث، مما يدلّ على اطلاعه وتضليله بفن الطب.

وبننظره متفرّحة إلى مدارسات هذا الملك العالم ومشاركته في الفنون ندرك أنه كان محدثاً اشتغل بالحديث وسمعه وحمل أسانيده، كما كان فقيهاً حفظ التنبيه وباحثه حتى ترجمه أصحاب المذهب الشافعي في طبقاتهم، وهو أيضاً أديب، وشاعر، ونحوي، وأيضاً عالم بالطب؛ فلم يكتف بحظه من العلوم الدينية كشأن كثيرين من الطلاب، بل عمد إلى دراسة دنيوية هي الطب، فتعلّمها وحاز معارفها إلى درجة تمكن معها من اختصار كتاب من كتب الطب وزاد مباحث فيه!

وهناك كثير من أهل العلم الشرعي قد برعوا في الطب والرياضيات والفلك وغيرها، بل إنّ الاشتغال بهذه العلوم والاجتهاد والنبوغ فيها، فرض كفائي في الإسلام، وديننا لا يعرف الفرق الذي عهده الناس من تقسيم العلم إلى علوم دين وعلوم دنيا، على النحو الذي يُعرف في حياة المسلمين اليوم، على غير ما اشتهر عند أسلافنا رَحْمَهُمُ اللَّهُ، وكما رأينا عليه هذا الملك العالم، ينبع

في علوم الشرع، وفي الطب أيضًا، وهذا - لعمر الحق - لا يحسنه إلا متفرق، لا ملكٌ لديه من الشواغل ما يضيق معه وقته عن أكل وشرب، فللله هو!

وشخصية كتلك لا شك وأنها شخصية فريدة، فلا عجب أن يصفه المؤرخون بأنه كان شخصية فذّة، نادرة، وبأنه كان محبًا للفضائل، حسناً، محسناً لرعايته، ويصفونه بأنّ فيه فضيلة وخيراً⁽¹⁾، وأنه كان شجاعاً جواداً⁽²⁾، فارساً، حازماً.

الله هذا الإسلام ما يصنع بالنفوس!

ثم الله هذا العلم على ما يقصد من هم وما يجتذب إليه من عقول وأفهام، كأنها ما عرفت اللذة قط حتى ذاقت لذته فلزمه!

ولد الملك المؤيد في عام (662هـ/1264م)، وتلقى تعليمه في المدارس العلمية الجامعية - بمدينة «تعز» وغيرها - فقد كان أجداده الرسوليّون من أحرص الناس على نشر المدارس العلمية، وبها عرفوا، وقد تولى الملك بعد مراحل وتطورات عجيبة هي من

(1) طبقات الشافعية الكبرى (10/33)، السبكي.

(2) الأعلام (2/336).

قدِرَ اللهُ، تَقْلِبَ فِيهَا بَيْنَ الطَّرْدِ وَالسِّجْنِ، ثُمَّ الْإِمَارَةَ، فَالْمَلْكُ، وَهُوَ
بَعْدُ الْمَلْكِ ابْنَ الْمَلْكِ حَفِيدَ الْمَلْكِ؛ لِيُسَعِّدَ النَّاسَ بِتَمْلِكِهِ، فَقَدْ كَانَتْ
أَيَّامُهُ أَحْسَنُ الْأَيَّامِ، كَمَا قَالَ الْمُؤْرِخُونَ^(١)، وَوَصَّفَ الشُّعُرَاءَ، وَمِنْهُمْ

يوسف بن محمد العنسي، في قوله:
القوس موتة في كف باريها

فليعلم الناس قاصيها ودانيها

یہنی المؤید بل تہنی خلافتہ

إَنِّي أَهْنِيْهُ بِلِفِيْهِ أَهْنِيْهَا

أملأك غسان ما انفك دعائهما

لما أتت من معالٍ يه معاليها

ومنهم عبد الله جعفر العفيف، في قصيدة، منها قوله:
ورثت دولة غسان كما ورثت
أباوك الغلب من أجدادك الصيد
فالأرض مشرقة والسحب مغدقة
والنبت ما بين مخصوص ومنضود

(1) تاريخ ثغر عدن، للمؤرخ الطيب باخمرمة، نقلًا عن: منتدى المؤرخ زيد محمد حسين الفرج، بالشاكبة.

كان بدء استقرار المؤيد في المملكة سنة (696هـ) ودامت مدة (26) سنة، وذلك من (696هـ/1297) إلى (721هـ/1321م)، وقد حدثت خلال عصره بعض القلاقل، غير أنها لم تفلح في كسر وحدة اليمن التي حافظ عليها حتى مات، كما لم تصرفه عن وجوه الإصلاح التي مضى فيها على طريق أجداده حتى قضى مجاهداً، فهوَّضاً بالعلم ورقياً بالحضارة.

مات الملك المؤيد رحمة الله في ذي الحجة سنة (721هـ).

وفي سيرة المؤيد كثير من العظات، أولاًها بالتأمل أن من رام شيئاً -بصدق- أدركه، ومن سعى -بجد- إلى هدف حقيقه، إن من أراد شيئاً أخذه بأسابعه وكفيه وذراعيه حتى المناكب، فاعزم -يا طالب العلم- أمرك، واصدق همك، واسع بجدًّا ومثابرة نحو هدفك، ولا تتعلل بكترة المشاغل؛ فإنه لا ينجز إلا مشغول!

﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾
[آل عمران: 160]، ومهمها كان وقتك ضيقاً فاغنم كل يوم شيئاً ولو قليلاً، فلا ريب سيأتي يوم يكون قليلك فيه كثيراً، فالقليل إلى

القليل كثير، بل ضَمِّ القليل إلى القليل مع الدوام عليه، يتكون منه
الكثير الهايل العجيب!

وإن كان كثير مما يزعمه الناس في الانشغال عن العلم ليس
انشغالاً على الحقيقة، فلو كان العلم عليهم بمثابة رغيف العيش
لوجدوا له وقتاً وفرغاً أنفسهم لطلبه مهما كانت أشغالهم،
وحاجتهم، فرأيي أن الفقر الحقيقى هو الجهل!

أما أن يقضي المرء في تحصيل رغيف العيش وقته، ويوجه همته
إليه، ويستغرق فيه ليله ونهاره حتى ينقضي عمره، ثم يضن على
العلم بساعة! إنَّ هذا لشيء عجاب!! إنَّ هذا لشيء عجاب!

فليت شعري، مثل هذا متى يتعلم؟ ليس هذا من شأنه،
فلينظر له شأنًا يليق به، فإنه منهوم بالدنيا طلاباً لها.

وفي المسند وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:
إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا بْنَ آدَمَ تَفْرُغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غُنْيَةً وَأَسْدَدْ
فَقْرَكَ وَإِنْ لَا تَفْعُلْ مَلَأْتِ يَدِيكَ شَغْلًا وَلَمْ أَسْدَدْ فَقْرَكَ⁽¹⁾.

إِنَّ مِنْ خَيْرِ الْمَعِينَاتِ عَلَى التَّعْلِمِ مَرْوُرُ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِيِّ، فَمَنْ

(1) أخرجه أحمد (2/358)، والترمذى (2466)، وصححه الألبانى في
صحيح الجامع (1914).

بذل مع كل يوم ولو قليل وقت، فإنه مع مرور الأيام تحصل له حصيلة من العلم.

وعن يونس بن يزيد، قال: قال لي ابن شهاب: يا يونس! لا تكابر العلم؛ فإن العلم أودية، فأيتها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإنّ من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام⁽¹⁾.

وقال شعبة: كنت آتي قنادة، فأسأله عن حديثين، فيحدثني، ثم يقول: أزيدك؟ فأقول: لا، حتى أحفظهما، وأتقنهما⁽²⁾.

ومن جميل ما وقفت عليه في هذا قول بهاء الدين ابن النحاس الحلبي:

اليوم شيء وغداً مثله
من ثُحب العلم التي تلتفط
يحصل المرء بها حكمة
وإنما السيل اجتماع النقط⁽³⁾

(1) جامع بيان العلم وفضله (1/431)، ابن عبد البر، ت. الزهيري، دار ابن الجوزي.

(2) السير (7/225).

(3) بغية الوعاة (1/14)، السيوطي.

الاهم لا تراجع، فضلاً عن التوقف، وأستعير هنا مقوله
ذائعة وأعمل عليها بعض التغيير:

إِنْ كُنْتَ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ فَارْكُضْ، وَإِنْ صُعْبَ عَلَيْكَ فَهَرُولْ،
وَإِنْ تَعْبَتْ فَامْشْ، وَإِنْ لَمْ تُسْتَطِعْ كُلْ هَذَا فَسِرْ وَلَوْ حَبُّاً، وَلَكِنْ
إِيَّاكَ وَالرَّجُوعُ!

يَسِّرْنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ لِلْيُسْرَىٰ.



أرغون الدوادار

عاشق الكتب .. أهداه الناس

الكتب تهنئة بالوزارة

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

أرغون الدوادار

عاشق الكتب .. أهداه الناس الكتب تهنئة بالوزارة

الإنسان العاقل لا تكفيه حياة واحدة، ومهمها يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهمها يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد، ومهمها يتنقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل في مكاني، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوانات في عمر واحد، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، ويتضاعف الصورة بين مراتين⁽¹⁾.

وهذا ما جعل العقلاً في كل زمان ومكان يعشقون الكتب، ويغرسون بجمعها، ويفنون أعمارهم في مطالعتها .. إنهم يحبون الكتب لأنها تنقلهم أثناء مطالعتها إلى عوالم وأزمنة و مجالات كثيرة ومتعددة، وهم يعيشون خلال هذه القراءة حياة في إثر حياة، بل إنهم بالقراءة ينزلقون بشكل لا إرادي ولا مفر منه، في جلد الآخر وصوته وروحه - كما يعبر عن ذلك بعض الكتاب -.

(1) من كلمات الأستاذ العقاد، بتصرف، انظر: أنا (ص 70).

وفي تراثنا العظيم أن ابن المبارك رَحْمَةُ اللهِ كَانَ يَكْثُرُ الْجَلُوسُ
فِي بَيْتِهِ، وَيَدْعُ أَصْحَابَهُ، فَقَيْلَ لَهُ: أَلَا تَسْتَوْحِشُ؟ فَقَالَ: كَيْفَ
أَسْتَوْحِشُ وَأَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؟

يعني أنه يقرأ سيرهم فيكون كأنه بينهم!

إِنَّ خَيْرَ أَنَيْسٍ فِي الدُّنْيَا هُوَ الْكِتَابُ، نَقْرُؤُهُ، فَنَسْتَجْلِي بِهِ الْغَايَا،
وَنَسْتَبِينَ مِنْهُ السَّبِيلُ، وَنَطَالِعُ فِيهِ سِيرَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ مُضِوا عَلَى
ذَاتِ الْطَّرِيقِ، فَتَطْمَئِنُ أَنفُسُنَا بِرَفْقِهِمْ وَنَعْلَمُ أَنَّا لَسْنَا وَحْدَيْنِ فِيهِ.

وَتَارِيخُنَا الْإِسْلَامِيُّ الْمَجِيدُ حَافِلُ بِنَهَادِجِ مَشْرَفَةِ مِنْ مُحْبِي
الْكِتَبِ وَهُوَا جَمِيعُهَا وَعُشَاقُ مَطَالِعِهَا، وَمِنْ هُؤُلَاءِ الْعَالَمِ الْوَزِيرِ
«أَرْغُونُ الدَّوَادَارِ» نَائِبُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ؛ نَاصِرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ
قَلَاوُونَ عَلَى مِصْرَ، أَحَدُ مَالِكِيْنَ السَّلْطَنَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ فِي أَوْجِ عَزِّهَا،
فَقَدْ ذَكَرُوا عَنْ أَرْغُونَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنْ مَحْبَةِ الْكِتَبِ، وَالرَّغْبَةِ فِي
جَمِيعِهَا، وَأَثْرَتْ عَنْهُ فِي ذَلِكَ نَوَادِرَ، إِضَافَةً إِلَى اسْتَهَارِهِ بِالْعِلْمِ
وَالْفَضْلِ، وَالْتَّبَرِّ فِي الْمَعْرِفَةِ، وَالْمَهَارَةِ فِي الْفَقْهِ.

كَانَ «أَرْغُونُ» فِي بَدَائِيْهِ عَهْدَهُ رَقِيقًا؛ اشْتَرَاهُ الْمَلِكُ الْمُنْصُورُ؛
سَيفُ الدِّينِ قَلَاوُونُ الْأَلْفِيُّ الصَّالِحِيُّ، أَحَدُ أَشْهَرِ سَلاطِينِ الْمَالِكِيِّ
الْبَحْرِيَّةِ، وَرَأْسُ أَسْرَةِ حَكْمَتِ مِصْرَ وَالْمَشْرُقِ الْعَرَبِيِّ مَا يَزِيدُ عَلَى

قرن من الزمان، وقد شاء الله أن يربى «أرغون» مع الناصر محمد، الذي سيتولى السلطنة بعد فترة قليلة من الزمان، ويبقى في خدمته، ويحوز رضاه إلى أن يولى الناصر نيابة السلطنة بالديار المصرية سنة (712هـ)، مدة (16) سنة⁽¹⁾، بل خلف السلطان على السلطنة لما خرج إلى الحج سنة (719هـ).

وقد عرف المنصب «أرغون» رجلاً ثري الفضائل حميد الخصال؛ إذ سار سيرة حسنة إلى الغاية، وقدر الله على يديه للناس مقادير حسنة، وسعداً، وكان يخلص الناس من شدائده يريد الناصر أن ينزلها بهم.

لقد تلقى أرغون مبادئ العلم - مع الملك الناصر - وقرأ، وحصل، وشاء الله أن يبرع في الفقه، فاشتغل على مذهب الحنفية، ومهر فيه، حتى صار يعده في أهل الإفتاء⁽²⁾، وترجمه الأحناف في طبقات أهل المذهب، منها الطبقات السنية في تراجم الحنفية، للعلامة تقي الدين الغزي.

وقال والد ابن الشحنة في تاريخه المسمى بـ «روض المناظر»، في علم الأوائل والأواخر» كان فقيهاً حنفياً، ورعاً، أذن له بالإفتاء

(1) انظر: الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص 165)، للغزي، ط. الشاملة.

(2) الدرر الكامنة (1/ 417).

على مذهبه.

وقد عني أرغون -من العلم، فيما عني- بسماع الحديث والاتصال بحسب سنته الشريف، فسمع صحيح البخاري على الشیخ أبي العباس أحمد ابن الشحنة الحجار، وعلى وزيرة بنت عمر بن أسد بن المنجا، بمصر، في سنة (715هـ)، بل كتب منه مجلداً بخطه، قال صاحب «درة الأislak في دولة الأتراك»: وكتب صحيح البخاري بخطه المأهول بالضبط والتبيان، وسمعه على أبي العباس أحمد الحجار، بقراءة الأستاذ أثیر الدین أبي حیان!⁽¹⁾

هذا وهو في نيابة السلطنة وأبهة الملك؛ إذ ما كان للذة الملك أن تسيي لذة العلم قطًّ، بل اعجب حين تقرأ في شأنه ما سطّره المؤرخون عن درجة حبه للكتب وعشقه لها، أنه اتّخذ الكتاب جليسه وأنيسه!

قال صاحب «درة الأislak»: قرأ وحصل، وأجمل وفصل،
وجمع كتاباً نفيسة، واتّخذ كلاً منها أنيسَه وجليسَه⁽²⁾.

(1) الطبقات السننية (ص 165).

(2) نفسه، وكتاب درة الأislak، مخطوط، لم يطبع، مؤلفه: حسن بن عمر بن الحسن، المعروف بابن حبيب الحلبي، (ت 779هـ - 1377م) في (287) ورقة، موجود في مكتبة آيا صوفيا (233)، متوفّر على الشابكة، نشره موقع الألوكة، وعن نشرتها نقلت هذه البيانات.

وكان لأرغون عناية عظيمة بالكتب، فجمع منها جمّاً ما جمعه
أحد من أبناء جنسه⁽¹⁾.

ومن نوادر الدهر أنه لما سار إلى حلب، سنة (727 هـ) نائباً
لها عن الناصر، خرج الناس يتلقونه بالترحاب، ولعلهم بمحبته
الكتب ورغبتهم فيها، هرعوا إليه يتلقّونه وهم يحملونها في أيديهم،
فما أتعجب وألذّ هذه المظاهره العلمية!

وكان «أرغون» معروفاً بمحبته أهل العلم، ومجالسته العلماء،
من الفقهاء والمحدّثين، يجتمع بهم ويداكرهم في حالي الحرب
والسلم.

فمن جلسائه ومذاكريه: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن
يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (654-745هـ/ 1344 م)، نحوّي عصره ولغوّي ومسنّه ومحدثه ومقرئه ومؤرخه
وأديبه⁽²⁾.

ومنهم: ابن سيد الناس؛ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن

(1) الدرر الكامنة (1/ 418).

(2) انظر ترجمته في بغية الوعاة (1/ 280-286)، السيوطي، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية.

سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين، (671-734هـ) / (1273-1334م)، الحافظ، المؤرخ، والأديب الشاعر⁽¹⁾.

ومنهم: ابن الوكيل؛ محمد بن عمر بن مكي، ابن المرحل، صدر الدين، ابن الوكيل، (665 - 716هـ، 1267-1317م)، المتكلّم الأصولي، والفقيhe المفتى الشافعي، والمتبّر في علم الحديث، والأديب الشاعر صاحب ديوان طراز الدرر، أعيجوبة عصره في الذكاء، له مناظرات مع شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان ابن تيمية يشهد له بالعلم⁽²⁾.

هؤلاء جلساً، وهم يخبرونك عنه، من هو، فمن خالط العطار نال من طيبه! فكيف وهو عطار؟

ولم يكن «أرغون»، وهو نائب السلطان والعالم الفقيه، ليغيب عنه أنّ العلم يؤخذ ليصير إلى العمل، ويتلقى ليكون التطبيق، ويفهم ليكون سلوكاً وأدباً، وقد عرف العلم في حياة أرغون عملاً

(1) انظر ترجمته في الدرر الكامنة (4/213-214).

(2) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى (9/253-267)، السبكي، ت. د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، ط. هجر.

وتطبيقاً وسلوكاً؛ إذ ظهرت على جوارحه آثاره، وعرف في مقاله وأحواله، حتى يصدق فيه أنه اتخذ منهج حياة؛ يتضح ذلك في كثير مما أثر عنه:

ففي جانب النسك والعبادة: ذكروا أنه لما حجَّ مشى من مكة إلى عرفة بمسكنة في هيئة الفقراء.

وفي ناحية الجهاد - وكانت الدولة وقتئذ في صراع مع الصليبيين -: توجه ذات مرة إلى منية ابن خصيب فخر بخمس كنائس للنصارى.

وفي ناحية الولاء والبراء: منع أن يستخدم في ديوانه نصراوي؛ إذ كان يرى الوظائف الهامة ذات الولاية على المسلمين، لا يولاها نصراويَّاً منها كان شأنه؛ إذ لا ينبغي - بأي حال - أن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

وفي ناحية الأحوال: كان خيراً، ساكناً، قليل الغضب، حتى يقال: إنه لم يسمع منه أحد في طول نيابته بمصر وحلب كلمة سوء.

وفي ناحية الوظيفة والمنصب والحكم: كان يحكم بالشرع، قال عنه أبو الفضل محب الدين ابن الشحنة: كان أميراً كبيراً، معمضاً مُبجلاً، محترماً في الدولة، ذا وقار ومهابة، ورأي وتدبير، ويحكم

بالشرع الشريف⁽¹⁾.

وفي ناحية القيام بحق الملك وحق الناس: كان للملك به جمال، وللناس إليه ميلٌ وبهم له محبة ظاهرة، لسيره فيهم بالقسط والعدل.

وفي ناحية البطانة: كان له حنون على العلماء؛ كابن الوكيل، وأبي حيان، وأبن سيد الناس وغيرهم؛ يقر لهم ويستشيرهم ويصلهم ويعينهم.

وفي ناحية الإصلاح ونفع الخلق: أثر أنه أوصى بهمته نهر الساجور وإجرائه إلى حلب، وجمع الناس على ذلك، واجتهد فيه بحيث كمل في نحو ستة أشهر، وأنفق عليه جملة من المال، وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً⁽²⁾.

وأنشد القاضي شرف الدين الحسين بن ريان، في إجراء نهر الساجور، قوله:

لَّا أَتَى نَهْرُ السَّاجُورِ قَلْتُ لَهُ

كَمْ ذَا التَّأْخُرُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ

(1) الطبقات السننية (ص 165).

(2) انظر: الدرر الكامنة (1/417).

فقال أخْرَنِي رَبِّي لِيَجْعَلْنِي

مِنْ بَعْضِ مَعْرُوفِ سَيْفِ الدِّينِ أَرْغُونِ

وأنشد القاضي بدر الدين حسن بن حبيب:
قد أَضْحَتِ الشَّهْبَاءُ ثُنْثِي عَلَىٰ

أَرْغَوْنَ فِي صُبْحٍ وَدَيْمُورِ

وعموماً كان «أرغون»، ذلك الحاكم العالم، حسن الفضائل، عظيمها، كثيرها، من خيار الحكام، ومحاسن ولاة الأنام؛ جاء في الطبقات السنّية للغزوي: قال صاحب درة الأ鬲، في حقه: أمير مناضل، وفقيه فاضل، ونائب لكم رفع من نواب، ومقدّم قدمه راسخ وسهمه صائب، كان مُبْجَلاً، مُعْظِماً، مُعزِزاً، مكرماً، محترماً في الدولة، معدوداً من أرباب الصون والصولة، ذا وقار ومهابة، وأوامر مقرونة بالإجابة، ورأي وتدبير، وتدقيق وتحرير، يحكم بالشرع الشريف، وينصر المظلوم ويعين الضعيف».

فرحمة الله عليه، وعلى أيامه، وعلى جميع من هم على أمثاله.

ذكروا أنه حين أجرى نهر ساجور وكان قبل أرغون بعض

النواب قصد سوقه إلى حلب، كما فعل أرغون، فقيل: من ساقه يموت من عame، فتأخر عنه هؤلاء النواب، فلما قيل مثل ذلك لأرغون، قال: لا أرجع عن خير عزمت عليه، وهو حسن توكل منه على الله تعالى.

فقدر الله تعالى أنه مرض، ومات من عامه⁽¹⁾.

قال الذهبي: كان تركياً، فصيحاً، مليح الشكل، شديد الحرص، وكانت وفاته بحلب في ربيع الأول سنة (731هـ)⁽²⁾، فلم يعش إلا (50) عاماً، فيا بركة ذلك العمر القصير، وأعظم نفع ذلك الأجل القريب! رَحْمَةُ اللَّهِ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ، وَغَفْرَانُهُ وَعْوَضُ أَمْتَنَا في هذه الأعصر من يسير بمثل سيرته.

وفي حياة هذا الوزير العالم عظات وعبر لمن تأملها، من أعظمها أنه يضرب مثلاً للعلم؛ أي شيء يكون إذا حكم، وبأي سيرة يسير إذا ولد، وأي نفع عظيم يعم الناس بفضل علمه بربه ومعرفته ببنيه وتضليله من دينه؛ عدل وقسط في الحكم، ورخاء

(1) الطبقات السننية (ص 165).

(2) الدرر الكامنة (1/ 418).

وبسطة في الرزق، ومناخ صالح يأخذ فيه كل واحد من الرعية
حقّه؛ يستوفي الحقوق، ويضعها مواضعها.

فأي شيء من الملك يطمع فيه الناس وراء ذلك؟

وماذا يخشى الناس من دين الله إذا حكم وملك؟ إنه -لو
يعلم الناس- برقة كلّه ورحمة كلّه وخير كلّه، وما فيه ما يخشى أو
يختلف!

إنّ التاريخ يقصّ علينا بلسان فصيح صادق أنّ التزام
المسلمين بأحكام القرآن كان سبب عزّهم ونصرهم ومصدر الأمان
الذي عرفوه طوال تاريخهم، وعلى العكس من ذلك لما هجروا
أحكام القرآن هانوا وذلّوا ورخصوا.

وصدق الله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْكِمَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِإِحْسَانِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

أو يظنّ الناس أنّ الله تعالى أنزل القرآن ليصلح عقائد الناس،
وعباداتهم، وأخلاقهم فحسب؟ ألا فليعلم من لم يعلم أنّ القرآن
نزل لذلك ونزل أيضاً لإصلاح دنيا الناس وأحوالهم ووقائعهم،

ليقودهم ويفحّكمهم من خلال أعظم تشرع عرفته البشرية ^{يَسِّرْ} في القرآن، فقد أنزل الله في هذا القرآن كُلّ علم، وبين فيه كل شيء، فليست تنزلاً بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها، على حد قول الشافعى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ⁽¹⁾.

لقد جمع الله للشريعة الإسلامية التي بعث بها رسوله وخليله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفة الكمال - فهي خالية من أي نقص ومن الحاجة إلى أية زيادة، وصفة الشمول - فما من أمر يتحقق الخير إلا دلّنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وما من شر إلا حذرنا منه -، وصفة الخلود والبقاء - فهذا كتاب الله محفوظ أبد الدهر لم تطله ولن تطاله يد التحرير أو التجريف -.

وقد جعل الله لهذه الشريعة غاية وخصائص وأهدافاً تتواضع أمامها كل شريعة وقانون، فما بال أساليب الحكم عندنا شردت عن صراط الله المستقيم منذ مئات السنين؟

إن التزام شرع الله، وترك شرع ما سواه، هو من مقتضى لا إله إلا الله.

بل كل صغير من أمر الماء وكبير لا بد أن يكون وفق أمر الله

(1) الرسالة (ص 20)، بتصرف، ت. العلامة أحمد محمد شاكر، ط دار التراث.

ونهيه، لا على هوى الإنسان ووفق مراده، ولكن الإنسان يأني عليه
ساعة يتكبر فيها ويتجرأ ويظن بنفسه القوة والقدرة على أن يكون
مستغنىً عن السير على أوامر الله فيمضي بعيداً عنها ليختار لنفسه
من المناهج ما شاء، ظناً منه أنه إنما يفعل ما هو من جملة مستحقاته،
ونسي أنه إنما هو عبد مسكين فقير للنفس الذي يخرج منه أن يعيده
إليه رب العالمين سبحانه، عَبَّرَ عن ذلك شاعر الإسلام الحكيم
محمد إقبال -رحمه الله تعالى- إذ يقول:
الحب ذو العصف والريحان ينبوه

من ظلمة الطين رب الحب والطينِ
والغيم من لحج الأمواج يرفعه
إلى السماوات سلطان السلاطينِ
يسوق للزهر أنساماً تهيجه
فيرسل الزهر أنغام البساتينِ
للسنمس من نوره طوق يزيتها
وللندي نسب من حوره العينِ
فقل لصاحب تاج يدعوه له
أفقٌ فإنك مسكين المساكين

ولله در ابن عاشور في قوله: «إِنَّ مِرَادَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَوْجِيهِ
الشَّرَائِعِ وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ، لَيْسَ مُحَرَّدَ قَرْعَ الْأَسْمَاعِ بِعَبَاراتِ التَّشْرِيعِ
أَوْ التَّذْوِقِ لِدَقَائِقِ تَرَاكِيهِ، بَلْ مِرَادُ اللَّهِ تَعَالَى مَا شَرَعَ لِلنَّاسِ هُوَ
عَمَلُهُمْ بِتَعَالِيمِ رَسُولِهِ وَكِتَابِهِ»⁽¹⁾.

فيا طالب العلم! إن الشريعة لا يمكن أن تطبق تطبيقاً حقيقياً
إلا إذا قام على تطبيقها أناس يؤمنون بقدسيتها، وربانية مصدرها،
 وعدالة أحكامها، وسموّ أهدافها، ويتبعّدون الله بتنفيذها، وهذا
 يجعلهم يحرصون على فهمها فهماً دقيقاً، وعلى فقه أحكامها
 ومقاصدها فقهًا عميقاً، ويتناولون في تذليل العقبات أمامها، كما
 يحرصون على أن يكونوا صورة طيبة لمبادئها، وأسوة حسنة لغير
 المقتنيين بها؛ يراهم الآخرون في إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم،
 فيحبون الشريعة لما يرون من أثرها في حياتهم، فكن مثالاً لها
 ونموذجاً طيباً بفعالك وأحوالك قبل كلماتك وأقوالك، ثم لا
 تنفكّ وأنت تذكّر بهذه الفريضة العظيمة المضيّة وهذا الواجب
 الكبير المنبيّ، عسى أن يكون في تذكرتك الفتح، أو تؤديي الذي
 عليك فيه من حقٍّ فيأتي الله بسبب ذلك بخير من عنده.

(1) التحرير والتنوير (3/190)، الطبعة التونسية، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط. دار سخنون.

رَدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى دِينِهِ رَدًّا جَمِيلًا، وَرَزَقَنَا بِفَضْلِهِ الْعِيشَ فِي
زَمْنٍ يَظْلَمُهُ حُكْمُ الْإِسْلَامِ، وَحَقَّ بِمِنْهُ وَكَرْمِهِ تِلْكَ الْأَمْنِيَّةَ قَرِيبًا.
يَا لُبِّيَّنِي أَوْقَدِي طَالِ الْمَدِي

أَوْقَدِي عَلَّ عَلَى النَّارِ هُدِي
أَوْقَدِي يَا (لُبِّنُ) قَدْ حَارَ الدَّلِيلُ

أَوْقَدِي النَّارَ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ
شَرَّدِي هَذَا الظَّلَامُ الْجَاهِنَّمَا

أَرْشَدِي هَذَا الْفَرَاشَ الْهَائِمَا
لِلْلُّيلِ هَذَا الرَّكَبُ فِي الْبَيَادِ عَسْعَنْ

أَقْبَلِي يَا (لُبِّنُ) بِالنُّورِ الْمَقْدَسِ
هَلَّتِ الْأَنْوَارُ وَالْبَشَرِي عَلَيْنَا

أَرْشَدِي فِيهَا الْحِيَارِي يَا (لُبِّيَّنِي)
أَرْشَدِي كُلَّ الْحِيَارِي فِي الدُّرُوبِ

بِالشَّذَا وَالنُّورِ فِي وِجْهِ الْحَيَّبِ⁽¹⁾

(1) الأبيات الثلاثة الأولى من قصيدة رمزية لـالدكتور عبد الوهاب عزام،
والأخيرة لـالدكتور عبد المعطي الدالاتي، انظر: بحث محمدًا ولم أخسر
المسيح (ص 112)، الدكتور عبد المعطي الدالاتي

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد



أبو الوليد التجيبي

إمام فقد ماله لكنه

لم يفقد علمه

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

أبوالوليد التجبيبي

إمام فقد ماله لكنه لم يفقد علمه

في الأندلس كانت لنا أمجاد، خلافةً ودولٌ ومالك، حضارةً ومدنيةً وثقافةً، علماء وفقهاء وقضاة، ومسلمون بالملائين؛ سطروا تاريخاً ملوءاً بالأمجاد، يؤسفني -ويؤسف كلّ حـ- ألا يعرف غالب المسلمين اليوم عنه شيئاً!

لكننا -أبداً- لن ندع التذكرة به كلما سمحت الفرصة وجاءت المناسبة، وأيضاً بغير مناسبة، فلا نفتأ نذكر علومنا هناك والعلماء، ولا ننفك نحكي معاركنا هناك وبطولات الشهداء، ولا نغادر صغيرة ولا كبيرة في هذا التاريخ وأحداثه إلا أتينا عليها بالذكر وجدنا بها -مع الشبيبة- العهد.

لقد ذكرنا في هذا الكتاب من قبل -ابن حزم الأندلسي-، وها نحن أولاء نذكر الإمام القدوة أبا الوليد التجبيبي، وكلاهما من الأندلس، معدودين في خيرة علمائهما، بل في خيرة علماء الإسلام.

غير أنّ ابن حزم نشأ في كنف والده؛ غنياً بهـ، عزيزاً بجاهـه، و«محمد بن أحمد بن أبي الوليد» -الذي نتناوله بالحديث الآن- نشأ

يتيمًا، وذلك أن والده وجده ماتا معاً، في سنة (٦٤١هـ)، فنكب بموتهما.

ورغم أنه لم يكن فقيراً، بل كان ذا مال جزيل إلى للغاية إلا أن ماله تزق بأيدي الظلمة، حتى يقال عن ابن الأحمر، سلطان غرناطة، أنه أخذ منه -في دفعة واحدة- عشرين ألف دينار^(١) فتمحقق ماله حين صادره ابن الأحمر^(٢).

وكذلك لم تسلم كتبه في تلك النكبة، فقد عدلت له كتب كثيرة جليلة^(٣).

لكن ذلكم اليتيم الذي غُلب على ماله وفقده، لم يلبث أن جاء إليه المال يسعى بأضعاف ما فقد، حتى إننا لنقرأ في سيرته أنه كانت له عدة كاملة من السلاح والخيل، أعدها للغزارة في سبيل الله من ماله^(٤)؛ وقفًا على الجهاد والمجاهدين، وهو أمر ما سمعنا به قط في الأولين والآخرين، وإنه لتفرد نفيس.

(١) الدرر الكامنة (٥/٨٣).

(٢) ذيل تاريخ الإسلام (١٩٧).

(٣) ذيل تاريخ الإسلام (١٩٨).

(٤) الدرر الكامنة (٥/٨٣).

وقد جاءه مع المال منصبٌ رفيعٌ، فعرض عليه نيابة الحكم
فامتنع؛ إيثاراً للعلم، فقد أراد أن يفرّغ نفسه له؛ يأخذ منه ويعطي.
وكذلك عَوْضَ كتبه؛ بل إنَّه كتب بخطه كثيراً من كتب الفقه
واللغة والحديث، كما يقول الذهبي⁽¹⁾.
فسبحان الوَهَّاب الذي يعطي بغير حساب.

ولد محمد سنة (638 هـ)، في بيت علم وفضل، فجده شيخ
الأندلس ومفتياً وقاضي الجماعة، ووالد هذا الجد وجده كانا
قاضيين، كذلك، فهو من بيت علم وفضل، وجلالة وقضاء
وعدل!

فهو الإمام الكبير، أبو الوليد، محمد، بن أبي عمرو أحمد، بن
قاضي الجماعة أبي الوليد محمد، بن القاضي أحمد، بن محمد، بن عبد
الله، بن القاضي أبي جعفر، بن الحاج، التنجيبي، الأندلسي، القرطبي،
ثم الإشبيلي، المالكي⁽²⁾.

وقد ذكره الإمام الذهبي فلقبه: الشيخ، الإمام، الفقيه،

(1) ذيل تاريخ الإسلام (198).

(2) نفسه.

القدوة، بقية السلف⁽¹⁾.

نشأ «محمد» في حجر أمه، وتحولوا إلى بلدة يقال لها: «شريش»، بمقاطعة «قادس»، من بلاد الأندلس، ثم غرناطة، ثم شب وقدم تونس، وسكنها خمس سنين، ثم رحل بولديه إمامي المالكية -بعد- إلى المشرق، واختاروا دمشق فسكنوها، وأمّ بمحراب المالكية بجامع بنى أمية⁽²⁾، وسمعوا من الفخر ابن البخاري وغيره.

كان الإمام «أبو الوليد التجيبي» وقوراً، دينًا، منور الشيبة، حسن الفضيلة، متين الديانة والتأله، وبالجملة فمحاسن هذا الإمام كثيرة جمة.

وكان منقبضاً عن خلطة الناس⁽³⁾، هكذا يصفه مؤرّخوه!

وربما كان انشغاله بالعلم وإقباله عليه بكلّيته -وكان من العلماء العاملين- سبب ذلك الوصف، وما يعين على هذا الفهم أنه لم يقبل بنيابة الحكم كأنه كان يؤثر البُعد عن أبواب السلاطين

(1) نفسه.

(2) انظر: الدارس في تاريخ المدارس (2/5).

(3) ذيل تاريخ الإسلام (198).

والأمراء، ليبتعد عن مواقف الذل والهوان كما اعتذر عما رمي به من الانقباض أيضا القاضي الجرجاني، وبين أسبابه فقال:
يُقُولُونَ لِي فِيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا

رَأَوا رَجَلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَجَهُ
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ
وَمَنْ أَكْرَمَهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرِمَاهُ
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَغْزِنِي
وَلَا كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمًا
وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبْتِ
أُقَلْبٌ كَفَّيْ إِثْرَهُ مُنْتَدِمًا
وَلَمْ أَفْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّهُ
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمًا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
وَلِكِنَّ نَفْسَ الْحُرُّ تَحْتَمِلُ الظَّمَاءَ
وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَجِي
لَا أَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لَا خَدَمَأَا

أَشْقَى بِهِ عَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذَلَّةً
إِذْنْ فَاتِّبَاعِ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْرَمًا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانُهُمْ
وَلَوْ عَظَمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَ
وَلَكِنْ أَذْلُوهُ فَهَانَ وَدَسُّوا
مُحَيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَ

إن عز العالم بعلمه لا يعدله شيء في الدنيا بأسرها، لقد فقد
«أبو الوليد» ماله؛ خلفه وراءه -مكرها- في بلاد الأندلس، ورحل
في البلاد يحمله -في رحلته- علمه، هو الذي يؤويه ويطعمه
ويسقيه، ليس تكسباً به ولكن عرف الناس له فضله فعملوا معه
بموجبه وأنزلوه منزلته، وقدر وحق قدره.

إن العلم جاه من لا جاه له، وعز من لا عز له، ومال من لا
مال له، بل العلم -من كل وجه- خير من المال، وصاحب العلم
-بكل حال- خير من صاحب المال!

ولله در أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إذ يقول: «العلم خير من

المال، العلم يحرُّسكَ وأنت تحرسَ المال، العلم يزكُو على الإنفاق
- وفي رواية على العمل - والمال تُنْقَصُهُ النفقة، العلم حاكمُ المال
محكومُ عليه، ومحبةُ العلم دينٌ يُدانُ بها، العلم يكسبُ العالمَ الطاعةَ
في حياته، وجميلُ الأحداثُة بعد وفاته، وصناعةُ المال تزولُ بزوالِه،
ماتُ خُزانُ الأموالِ وهمُ أحياءٌ⁽¹⁾.

ففر - أخي - بعلمٍ، تعيشُ به حيًّا، عزيزًا، عليًّا.

صنف الإمام أبو الوليد تصانيفَ وصفها تلميذهُ الذهبيُّ بأنها
نافعةٌ⁽²⁾.

وقد مات رَحْمَةُ اللهِ في ثامن عشرَ رجبَ، سنة (718هـ)⁽³⁾،
وكانَت له جنازة مشهودة⁽⁴⁾، وخلفَ ولَدَينَ عالِمِينَ فاضلينَ، صارَا
إمامَيَّ المالكيةِ في زمانِهِما وهمَا اللذانِ كانَا صَحْبَاهُ منَ الأندلسِ،

(1) الجليس الصالح الكافي والأئمَّ الناصح الشافِي (ص 584) أبو الفرج
المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري، ت. عبدُ الكريْم سامي الجندي، ط.
دار الكتب العلمية.

(2) الدرر الكامنة (5/83).

(3) انظر: شذرات الذهب (3/29)، ابن العيَّاد، إنباءُ العَمَر (3/97).

(4) الوافي بالوفيات (2/102).

وقد ذكر ابن بطوطة أنهما كانوا إمامي المالكية زمان مروره بدمشق في رحلته الشهيرة؛ كتب عن هذا في قوله: «كان إمامهم في عهد دخولي إليها: الفقيه أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبي، القرطبي الأصل، الغرناطيي المولد، نزيل دمشق، وهو يتناوب الإمامة مع أخيه، رحمهما الله⁽¹⁾.



(1) رحلة ابن بطوطة؛ تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .(/).



هاجي كانجا
مانسا موسى
الملك العالم الذي كان
يرتحل بأطنان الذهب
ويعود بكنوز الكتب

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

حاجي كانجا مانسا موسى
الملك العالم الذي كان يرتحل بأطنان الذهب
ويعود بكنوز الكتب

ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لقد بنينا بالفعل مجدًا لو
أنصفت الإنسانية لما افتخرت بشيء مثلكما تفتخر به، فإنّ الحضارة
والمدنية التي عاشها بني الإنسان في ظل الإسلام فخر خلائق أن يعتز
به كل إنسان منصف، ولقد خسر الجميع بهذا الانحطاط؛
المسلمون والكافرون، أما الكافرون فخسروا الدنيا والآخرة؛ الدنيا
لأنّ أبرز ما يبحث الإنسان عنه خلاها هو السعادة، وقد طلبها
العالم في المادة: مال ومنصب وشهرة، وقد أثبتت الأيام أنّهم لم
يتوصّلوا إلى السعادة بذلك؛ فلا زال ذوو الثراء وأصحاب النفوذ
والمشاهير فيهم يقضون حياتهم مكتئبين تعسّين وينهونها متّحرّين؛
لأنّهم لم يحصلوا على السعادة.

والآخرة لأنّ البشرية حادت عن نهج خالق السموات
والأرض، الذي لأجله خلقهم، وابتعدت رسّله، وأنزل كتبه، كي
يتسابق الخلق إلى مرضاته ويتنافسون في طاعته، ومن كان بخلاف

ذلك فلن يحظى بهدية الله في نهاية المسابقة التي هي الجنة في الآخرة.
وأما المسلمون فقد خسروا عزّاً ورفة وقيادة، سمعت يوماً إلى
تخليص البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد
والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وأرادت تخليص المجتمع
الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهيار، ومن فوارق
الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان، وبناء العالم على
أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن
المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل
الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في
الحياة.

خسروا كل ذلك عندما تخلىوا عن مبادئ دينهم، ونكصوا عن
تبعاتهم، فانحطوا وانحط العالم معهم.

أينما توجّهت من شرق الأرض أو غربها وجدت آثار أمجادٍ
تذكرك بنا، نحن الآن في قلب أفريقيا، القارة البيضاء، التي أطلق
عليها أعداء الإسلام اسم القارة السوداء أو القارة المظلمة؛ زورًا
وبهتانًا، وتبعهم على ذلك المسلمون جهلاً وغفلة!

فلئن كان المستخربون، الذين نسميهم -جهلاً أيضًا- المستعمرين، قد جهلو تاریخ افريقيا جهلاً تاماً وعميت عليهم أباوها وغمضت عنهم أحواها، فإننا نعرف من تاریخ القارة العظيمة ما يضيء العالم بنوره، لو أدرك العالم قيمته وحقيقةه.

لقد كانت حاضرة افريقيا وهي دولة «مالي» واسطة العقد بين الدول المتقدمة من إسبانيا إلى وسط الهند وكانت معظمها في ذلك الوقت مسلمة، إذ كانت تمبكتو عاصمة مالي تقع وسط افريقيا الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى.

هل أتى «هنري ستانلي» ذلك الصحافي الأوروبي الذي أطلق على افريقيا مصطلح القارة المظلمة، أن افريقيا كانت تعيش الحضارة يوماً في أسمى معانيها؛ تبني المستشفيات، وتوسّس الجامعات، وتحطّط الطرق، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش القرون المظلمة؛ تعاني التخلف، وتحبّط في الرجعية؛ انتشر فيها الجهل والخرافات، وعمّ الفقر، وقتل العلماء وأضطهد البحث العلمي، واعتقد الطبعُ عملاً من أعمال الشيطان؟

إنه لم يضر افريقيا أشجار الغابات الاستوائية المنتشرة خلاها، تستطيل نحو السماء في صراع للبقاء والبحث عن ضوء الشمس،

ما يجعل المنطقة في الأسفل جد مظلمة ومعتمة، فإنّ أنوار المدنية والعلم، من دين، وطب، وإعمار، وحفريات، واستكشافات وغيرها؛ كانت تشعّ على القارة جميعها ضياء، وكانت القارة تصدر النور لما حولها من العالم.

ولم يضرّ أفريقيا كذلك تلك الصخور الكاداء التي لم يستطع أولئكم المستخربون الإحاطة بتضاريسها بفضلها، وكيف تضرّها وقد استطاع التطبيقيون من أبنائها رسّمها بدقة، وتقديمها في ذلك الوقت المبكر إلى العالم في خرائط ما لفت انتباه أوروبا إليهم وطلّوهم لرسم الخرائط الإيطالية والألمانية والإسبانية وبباقي خرائط العالم، لقرنين من الزمان، وذلك هو سبب انتشار اسم بعض ملوك أفريقيا مرتبطاً بكثير من الخرائط الإيطالية.

وبرهانًا على ما قدمنا من معطيات تعالوا بنا نطالع سيرة هذا الملك العظيم والعالم الجليل الذي عرفته القارة البيضاء المنورة ملّاكاً عادلاً، وسلطاناً صالحاً، وعالماً مصلحاً، وذلك في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهو الملك مانسا موسى الذي ولد سنة (1280هـ) الموافق عام (1871م).

كان حاجي كانجا مانسا موسى من أعظم زعماء امبراطورية

مالي، وهو من أشهر ملوك أفريقيا والإسلام في القرون الوسطى.

خلف مانسا موسى -ومعنى مانسا: الملك- أبا بكر الثاني على عرش امبراطورية مالي، عام 1312م، تلك الامبراطورية ذات الشراء الواسع والتي امتدت طوال ألفي سنة من المحيط الأطلسي إلى بحيرة تشاد وكانت تشمل كل أجزاء الدول الحديثة من موريتانيا والسنغال وغامبيا وغينيا وبوركينا فاسو ومالي والنيجر ونيجيريا وتشاد، وتضمنت عقودًا من السلام والازدهار في غرب أفريقيا.

ما إن جلس مانسا موسى على العرش حتى عرفت البلاد سياسياً محنّكاً، استطاع خلال سنوات قليلة أن يضاعف مساحة مملكته، لتضم مناجم الذهب في غينيا بالجنوب، ويدرك أنه بعد أن ضم مملكة سونغاي صارت مملكته واسعة جدًا، إلى أن صارت تضم (400) مدينة، حتى إن الأمر كان يستغرق سنة على السفر من واحدة من نهاية امبراطوريته إلى أخرى!

وذكر ابن بطوطة نحوًا من هذا في رحلته الشهيرة.

لقد صار مانسا موسى الحاكم الإفريقي الأكثر شهرة في القرون الوسطى، بل في العالم خارج أفريقيا، وتقديم إليه الحكم في

الشرق الأوسط وأوروبا باهدايا وطلب العلاقات الطيبة.

ورسم علاقات خارجية للدولة جذبت التجارة من أقصى شمال القارة إلى أقصى جنوبها، وأصبحت عاصمتها «تمبكتو»، في عهده، محطة القوافل التجارية عبر الصحراء، فازدهرت ثروة البلاد فوق ازدهارها الرائد!

فضلاً عن الشركات العملاقة التي كانت تعدد شركات دولية، وليس أدل على ذلك من أنه تم في عهده استخدام الطوب اللبن بعد إحراقه كمواد للبناء، ومن مملكة مالي وبالتحديد من «غاو» عرفه العالم ولم يكن يستخدم من قبل.

إضافة إلى شركات استخراج وتصدير الملح، وكان الملح وقتها، له قيمة الذهب نفسها!

وتقول بعض المصادر التاريخية: إن مملكة «منسا موسى»
كانت تنتج أثناء حكمه نصف الذهب والملح المتاج في العالم.
كما وضع الملك العالم رَحْمَةُ اللَّهِ نَظِمًا ولوائح داخلية ذات خطط
واسعة وقريبة المدى في مجالات كثيرة، اقتصادية وعلمية ومعمارية
وغيرها، فاهتم بإنشاء المساجد والمدارس والمستشفيات وتحطيط
الطرق، كما أسس جامعة علمية، هي جامعة سانكوري، والتي

كانت مركز إشعاع علمي في أفريقيا.

كما اهتم ببعث الدعوة إلى أرجاء الامبراطورية وما حوالها
ينشرون الإسلام في كافة أنحاء امبراطوريته وحدودها، فاستطاع
بذلك كسب أراضٍ جديدة وقلوب من السكان حوله، جاءت
طائعة؛ لتدخل في الإسلام وتدين له بالإذعان!

وكان مانسا موسى عالماً ورعاً وعادياً وجاداً منفقاً وكان على
درائية كبيرة باللغة العربية، وستظل رحلته إلى حج البيت الحرام
قصة من قصص الدهر الخالدة من نواح عديدة!

لقد خرج من بلاده في قلب أفريقيا قاصداً البلد الحرام،
لقضاء فريضة الحج فيبعثة تضم 60 ألفاً، معهم مئات الجمال
المحملة بالذهب والهدايا، وقد وزع في طريقه إلى الحج آلافاً مؤلفة
من سبائك الذهب، خاصة في القاهرة لما نزل على الملك الناصر
محمد بن قلاوون فأهداه منها ووزع على الناس شيئاً عظيماً، وبحكي
المؤرخون أن عمله ذاك تسبب في هبوط أسعار الذهب، بالقاهرة،
وكذلك بالمدينة، واستمر كذلك مدة عشر سنوات كاملة!

وهذه هي المرة الوحيدة التي سجلت في التاريخ أن رجلاً

واحداً كان بإمكانه أن يسيطر بشكل مباشر على سعر الذهب في
منطقة البحر الأبيض المتوسط !

وذكر المؤرخون أنه كان يبني مسجداً كل يوم جمعة في أي
مكان يصل إليه قبلها؛ لإقامة صلاة الجمعة فيه، وبعض أماكنه هذه
اتخذت مدنًا وبنيت حولها ممالك .

ولما حل الملك موسى بالبيت الحرام تصدق بأضعاف ذلك
على أهل الحرم خاصة العلماء وطلاب العلم وال المجاورين به، ثم
فقراء البلد الحرام، وبني مباني في المدينة المنورة أو قفها على طلاب
العلم والمجاورين بالمسجد الحرام !

كم اصطحب هذا الملك معه من أطنان الذهب، كي تكفي
هذه النفقات كلها؟ يقول المؤرخون: إنه خرج في قافلة كبيرة تتكون
من مائة جمل، وألف من العبيد وخمسينيائة من الجواري، وكان كل
جمل محمل بهائة وستين كيلو ذهبًا، وكل جارية أو خادم يحمل
صندوقاً من الذهب .

وقد كانت ملي منجحاً للذهب، غنية جدًا بالثروات، وقد
زادت ثرواتها منه بضم غينيا كما قدمنا .

ولهذا يُعدّ الملك مانسا موسى من أغنى أغنياء العالم على مر

العصور، وفقاً لقائمة «أغنى 25 شخصاً عبر التاريخ» التي أعدها بعض المهتمين بهذا الشأن، وتصدر القائمة الملك مانسا موسى؛ إذ بلغت ثروته تقديرًا 400 مليار دولاراً!

استغرقت رحلة الملك موسى في ذهابه إلى الحج وإيابه منه عاماً كاملاً، قطع خلالها ما يقرب من أربعة آلاف ميل، من مالي إلى مكة المكرمة، وكان قد قام بالتحضير لها مدة سنوات، شارك خلالها الحرفيون والصناع من مختلف المدن في أنحاء مالي، وتمت هذه الرحلة عام (1324 هـ).

وقد عاد بعد الحج إلى دياره، لكنه لم يعد فارغاً، ففي عودته أحضر معه عدداً من العلماء الشرعيين والمدنيين والإداريين، وكان من بينهم مهندسين معماريين، أسهموا في بناء مدینته العظيمة، لتحول إلى حاضرة، تنتشر بها المساجد والمدارس والمكتبات والجامعات، ومن بين ما أسهموا في بنائه مسجدي جاو وتبكتو القائمين إلى يومنا هذا، وقد دعا الملك موسى الطلاب للحضور إلى مملكته فجاء بعضهم معه من الحرم ولحق بعضهم به في طريق رحلته، ثم توافدوا بعد ذلك على حاضرته من كل فج عميق، فعزز بذلك الروح الإسلامية في مالي.

وقد أكمل الملك موسى منظومته الحضارية في رحلته تلك؛ إذ
رجع بالجمال محملة بالكتب، فأحضر معه بدلاً من أطنان الذهب
آلاف الكتب العلمية في كل فروع العلم!

لقد رحل بالذهب وجاء بخيرة العلماء وكنوز الكتب.

إنها أغرب حجة لأغرب حاج في التاريخ!

وهذه الرحلة على سعة أحداثها وعظم وقائعها قصة حقيقة،
ليست من نسج الخيال، بل يرويها موثقو تاريخ مالي وغيرهم من
المؤرخين، وما تزال أصداوتها بل حياة هذا العظيم جميعها محط
اهتمام من عموم شعبه؛ رواية فخر واعتزاز، وكان ولا يزال محبوباً
جداً.

بل إن المؤرخ العمري، الذي زار القاهرة بعد 12 سنة من
زيارة الامبراطور موسى، وجد سكان القاهرة الذين يقدر عددهم
في ذلك الوقت بنحو مليون شخص، لا يزالون يكثرون المديح
للهانسا موسى ويدكرونه بالخير!

ومن آثار هذه الرحلة الكريمة أن شجعت الملك الإفريقي
على قصد البيت العتيق، وتجهيز قوافل الحجيج، وإن كان من

آثارها أيضاً أن لفت نظر لصوص أوروبا إلى ثروة مالي الهائلة، وألهبت حواسهم بعد ذلك لغزوها، بغية الوصول إلى مصدر هذه الثروة التي لا تصدق، فجاءوا يخربونها وينقلون خيراتها وثرواتها إلى بلادهم.

قد تبدو الأخبار مثيرةً للاستغراب وهي كذلك، ولأحدّثك عن الأغرب والأشد إثارة فإنهم في ذلك الزمن بعيد قد أبحروا مرات في المحيط الأطلسي؛ لكي يصلوا إلى آخره أو يعرفوا ما وراءه، حتى إن بعض الكتب تذكر أنهم وصلوا للأمريكتين قبل أن يعرفها كولومبس، واقرأ بعض أخبار هذه المحاولات في كتاب مسالك الأبصار في مالك الأمصار، للعمري المتوفى سنة (749هـ) أي قبل ميلاد كولومبس هذا بقرن من الزمان أو يزيد!

لا عجب! إن القاعدة تقول: من جد وجد ومن زرع حصد،
والله يعطي الدنيا لمن اجتهد!

إلى هذا الحد بلغت فطنة ذلکم الملك الحكيم ومهارته، لقد عرف بعيته وحدد هدفه، فلا غرو أن كانت مملكته مركزاً تجاريّاً وثقافيّاً ودينيّاً، فانظر كيف غيرت همة هذا الرجل وحكمته بلده وأسست حضارتها!

إنني أفكّر الآن في سؤال؛ هل كان هذا الملك سعيداً بحياته
ومنجزاته تلك؟ وهل كان شعبه سعيداً؟

والجواب - بلا ريب-: نعم، كانوا سعيدين غاية السعادة،
وكيف لا؟

ويُستطرد السؤال في تفكيري: فما بال حكامنا هؤلاء يؤثرون
إتعاس أنفسهم وشعوبهم، حين يختارون الاستئثار بخيرات البلاد،
ويسرقون أقوات العباد، فتظلّ شعوبهم حاقدة عليهم، ويظلّون هم
في وجل من غضبها وانتقامها، ويظلّون معًا في حياة تعسة وشقاء
مستديم؟

لكن مانسا موسى عاش راضياً مرضياً ومات كذلك، فإنه
رَحْمَةُ اللَّهِ قَدْ عَادَ إِلَى بَلَادِهِ، عَلَى نِيَّةِ أَنْ يَقْرَرَ لَابْنِهِ الْمَلَكَ، وَيَتَرَكَ لَهُ
بِالْكَلِّيَّةِ، وَيَعُودَ إِلَى مَكَّةِ الْمُعْظَمَةِ، وَيَقْيِيمَ مَجاوِرًا بِهَا، فَأَتَاهُ أَجْلُهُ،
رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ حُكْمِ طَوِيلٍ تَمْيِيزَ بَشِيعَ الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ فِي رَبْوَعٍ
مَالِيِّ، وَفِي تَنْمِيَةِ وَتَرْقِيَةِ التِّجَارَةِ وَالْاِقْتَصَادِ وَالْتَّعْلِيمِ، وَفَوْقَ كُلِّ هَذَا
وَذَلِكَ، فِي جَعْلِ اسْمَ «مَالِيٍّ» مَعْرُوفًا فِي كَافَةِ أَرْجَاءِ الْمُعْمُورَةِ.

هذا ما فعله مانسا موسى لينير حياته وحياة شعبه بالسعادة،

ويؤدي حق منصبه، ويترك أثراً يكون له لسان صدق في الآخرين،
فهل يفعلها حكامنا؟ هداهم الله إلى الحق، وقسم من لم يهتد!

فأللهم ابعث لنا من مثله نفراً، وخذ من عادى طريقته تلك
فقطعهم بددًا.

توفي الملك مانسا موسى عام 1331م، وتولى ابنه مانسا
ماجان حكم الامبراطورية بعده، لكنه لم يحسن سياسة البلاد من
بعده إذ تنازع هو وبقية إخوته الملك والمال، فبددوا الثروة وأنفقوا
جزءاً كبيراً منها في الحروب الأهلية، وأضاعوا الملك.

وانكسرت مالي في أحوالها السياسية والاقتصادية إلى أن صارت
اليوم من أفق الشعوب الإفريقية!

ولكن ما زالت مالي تحتوي على كنز ثمين يحاول العلماء العثور
عليه، وهي الكتب التي جاء بها مانسا واحتفظ ببعضها أهل القرية
إلى الآن في أغلفة من الجلد أو في الكهوف وفي وصناديق تحت
الأرض وقت الاحتلال الأجنبي لمالي.

وقد عرفت القارة الإفريقية الكثير من هؤلاء الرجال الذين

هم على شاكلة مانسا موسى الأول، فالحضارة الإسلامية التي
قامت على نهر السنغال عرفت رجالات كثُر يُعدُّون من المجددين
والمجاهدين الذي ساهموا في نشر الإسلام وبناء أمجاده، تحدثنا عن
عملاق منهم فيما مضى وهو الخليفة عثمان بن فودي، ولعل الفرصة
تسنح في مناسبة أخرى لتحدث عن عظماء آخرين.

هذه بعض أمجادك يا أمتي !

فمتى تفقيين من غفلتك وترجعين رجالات كثُر يُعدُّون !
فقد أضحي الناظر إليك في شكّ أنك على قيد الحياة؛ لطول
عهلك بالسبات، فاللهم شموخاً وعزّة !





الشريفة العفيماء
الأستاذة الأولى
للفقه وأصوله

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

لأريب أنَّ التاريخ الإسلامي قد بخل علينا بأسماء وأخبار
كثير من النساء الفضليات، وهو إن حفل بشيء من ذلك، فما نظنَّ
أنَّ ما حفل به يساوي عشر معشار ما بخل به!

وأيضاً فأولئك اللواتي أخبرنا التاريخ بأسمائهن وفضائلهن قد
 أمسك كثيراً جدًّا من أخبارهن، حتى لتعدُ تلك الأخبار عدًّا
 لقلتها أو ندرتها.

فما بال تلك المخلة في أسمائهن وذكر فضائلهن؟ ليس هذا
 -قطعاً- من جملة ما يخفى أو يُخفي!

ولأحب أن يفهم عنِّي أنِّي أقول: ظلم التاريخ الإسلامي
 المرأة وهضمها حقّها في الشهرة والذكر!

فإنَّ كثيراً من ذخائر هذا التاريخ ما تزال حبيسة الأرفف،
 خطوطة، لم تر النور، ويبقى -أيضاً- أنَّ ما طبع من هذه الذخائر لم
 تلق هذه الناحية منه عنابة الباحثين المعاصرين، هذا إن قلنا إنَّ

الترجم - عموماً ومنها ترجم النساء - قد حضرت في الكتب المتخصصة في هذا الشأن «كتب السير والترجم»، كيف وكتب العلماء ملأى بذكر كثير جداً مما لم تحوه هذه الكتب وبعض من ذكر -أو ذكرن - فيها أفضل بكثير من نقرأ في سيرهم في الكتب المخصصة لذلك!

إن في بطون الكتب الإسلامية العاّمة ما يفوق عدد من ذكرها في الكتب المخصصة للترجم، ونرجو أن يهبّ الله لها من يستخرجها فيتحف بها الدنيا.

وما قلناه عن قلة الأخبار الواردة عن فضليات النساء ينطبق على هذه العالمة المحققة التيتناول سيرتها في هذه السطور، وهي الدّهّماء بنت يحيى بن المرتضى، الحسينية الشريفة، والعالمة النابغة⁽¹⁾.

فالمصادر شحيحة بالأخبار عنها، رغم أنها كانت ذات شهرة من نواحٍ عديدة: فهي أخت ملك، وصاحبة علم، وتصدرت للتدريس فاشتهرت، ولم يكن علمها قاصراً على فرع واحد من العلوم، بل كانت عالمة ومحققة في علوم شتى.

كانت هذه الفاضلة، بارعة في عدة فنون؛ في علم الكلام وقد

(1) الأعلام (5/3).

صنفت فيه، وكذلك صنفت في فروع علم الفقه، بل في أصوله، ومؤلفاتها مشهورة معروفة؛ اشتهرت في زمانها، وقامت هي وغيرها- بتدريسيها.

ومن النادر أن نجد في تاريخ العلوم امرأة برعـت في علم أصول الفقه وصنفت فيه، ولعلها تفردت بذلك، والله أعلم!

بل إنها لـتـعد من أـبـرـزـ الـوـجـوهـ النـسـائـيـةـ التـيـ بـرـعـتـ فـيـ مـجـمـوعـ هـذـهـ الـعـلـومـ مـنـ عـقـيـدةـ وـتـفـسـيـرـ وـفـقـهـ وـأـصـوـلـ،ـ عـبـرـ التـارـيـخـ الإـسـلـامـيـ المـمـتدـ إـلـىـ أـكـثـرـ مـنـ 1430ـ عـامـاـ!

فـقـلـيـلـاتـ هـنـّـ الـعـالـمـاتـ الـلـاتـيـ تـحـفـظـ ذـاـكـرـةـ التـارـيـخـ بـمـصـنـفـاتـ هـنـّـ،ـ وـقـلـيـلـاتـ فـيـهـنـّـ الـفـقـيـهـاتـ،ـ وـنـدـرـةـ مـنـهـنـّـ مـنـ صـنـفـنـ فـيـ الـفـقـهـ،ـ وـأـنـدـرـ مـنـ ذـلـكـ مـنـ جـمـعـ تـرـاثـهـنـ الـعـلـمـيـ هـذـاـ التـنـوـعـ فـيـ تـحـصـيلـ الـعـلـومـ وـالـتـمـكـنـ فـيـهـاـ.

عاشت الدَّهْمَاءُ، المشهورة باسم: «الشريفة دَهْمَاءُ» في مدينة ثلاثة اليمنية من بلاد عمران، وهي أخت الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، إمام الدولة الزيدية في اليمن والمصنف الذي عرف بغزاره الإنتاج، في فروع العلم المختلفة، وترك قدرًا كبيرًا من الكتب في العقائد، والمنطق، والشعر، والنحو، والقانون، ومن أعظم آثاره:

موسوعته الفقهية التي سماها «بحر الأزهار» وهي التي شرحتها الإمام الشوكتاني رحمة الله وسمى شرحتها عليه: «السيل الجرار المتدقق على حدائق الأزهار»⁽¹⁾.



اشتغلت «الشريفة دهماء» بالعلم منذ حداثة سنّها؛ ولم يكن لها شغل غير الاجتهاد في التحصيل، ثم تلقت العلم عن أخويها: أحمد و محمد، وهما من أئمة الزيدية -علماء- ورؤساء دولتهم -حكاماً-.

ويذكر المؤرخون أنها هي التي تولت رعاية الإمام أحمد بعد موت أبيه، وأثناء ذلك درست عليه العلم، وكان من أرأس العلماء في عصره⁽²⁾.

على يدي هذين العالمين تلقت «الشريفة دهماء» العلم وبرعت في فنونه؛ العقائد، والفقه، والفرائض⁽³⁾، والأصول، وغيرها.

ومن طريف ما يُروى في حرصها على تلقي العلم وعظيم ملازمتها للعبادة أنها كانت تجلس للاستفادة من أخويها الإمامين

(1) انظر: البدر الطالع (122/1-126).

(2) خلاصة الأثر (302/1).

(3) معجم المؤلفين (4/146).

أحمد و محمد فكانت إذا طرأة على مجلسهما مذاكرة في مسألة فرأى
أنها تطول و تكثر فيها المراجعة والمناظرة، قامت تصلي حتى يفرغ
تحريرهما تلك المسألة فتأخذها صفوًا.

وكانت إلى جوار ذلك شاعرة مجيدة، تقول الشعر و تنظمه،
ومن شعرها في مدح كتاب أخيها «الأزهار»:
يا كتاباً فيه شفاء النفوس

أنت للعلم في الحقيقة نور
أنتجتـه أفكارـ منـ فيـ الحـبوـس

وضـيـاءـ وـبـهـجـةـ كـالـشـمـوسـ⁽¹⁾

وهي تشير بذلك إلى أن أخاها الإمام أحمد ألف كتاب
«الأزهار» أيام سجنه، وكان ذلك عام (1399هـ)، وقد هرب من
السجن بمساعدة حراس السجن الذين كانوا من أنصاره،
فتعاطفوا معه، وأطلقوا سراحه.

وكانت الدهماء صاحبة عبادة و تقوى، موصوفة بالعفة معروفة

(1) البدر الطالع (1/248)، مؤلفات الزيدية (1/381)، (2/181)،
نقاً عن: «المؤلفات من النساء و مؤلفاتهن في التاريخ
الإسلامي»، (ص 41)، فضيلة الشيخ محمد خير رمضان يوسف.

بالزهد، وقد تزوجت بالسيد العلامة محمد بن أبي الفضائل،
وأنجبت منه ابنًا اسمه إدريس⁽¹⁾.

ومن جميل ما يروى عنها في التعبد أنها لم تكن ترضي أن يعينها أحد على عبادة الله سبحانه بشيء كتقريب الوضوء، وقد أراد ذلك
أنجواها في بعض الليالي، وفعله، فمنعته، وكرهت فعله، كما يذكر
ابن أبي الرجال في كتابه: «مطلع البدور وجمع البحور».

بعدما تأهّلت «الشريفة دهماء» في العلم واقتدرت على
تدریسها تصدرت للتدريس والتصنيف، فدرّست العلوم في مدينة
ثلاث إحدى مدن اليمن، وهناك درس الكثير من طلبة العلم على
يدها، واكتسبت آنذاك سمعة طيبة ومكانة علمية كبيرة.

وكان «الشريفة دهماء» باللغة الكمال في التصنيف والتأليف،
وقد صنّفت كثيراً من الكتب الجليلة المهمة، منها:

- «الأنوار في شرح كتاب الأزهار»، في أربع مجلدات، وهو

(1) الأعلام (5/3).

شرح على كتاب الأزهار، لأنخيها أَحْمَد، وهو على مذهب الزيدية⁽¹⁾.

- شرح منظومة الكوفي في الفقه والفرائض.
- شرح «ختصر المتهى في أصول الفقه»، وهو من مؤلفات ابن الحاج.
- كتاب «الجواهر» في علم الكلام، قيل: إنه يقع في ثلاثة مجلدات.
- كراسة في تراجم شعراء أهل الفضل، لم تكملها. ولها رسائل ومسائل، غير هذا.

وقد أحبّها النّاس وأقبلوا على دروسها ينهلون من علومها، وتعلّقوا بها، حتى إن أخاها الإمام أَحْمَد طلبها لتنقل عنده في مدينة «حرّاز» فارتّاع أهل «ثلاثة» لذلّك، وتوسلوا إليه أن يبقيها لديهم، فلما رأى تمسّكهم بها تركها، فاستمرت في التدريس في هذه المدينة حتى ماتت⁽²⁾.

وقد امتدّ حفظها المؤرخون، وأثنوا عليها بالعلم والفضل، حتى

(1) وقد قال الأستاذ الفاضل محمد خير رمضان يوسف: «أورد الزركلي شرحة «الغيث المدرار» في ترجمته.. فإذاً أن تكون أخته شرحته شرحاً آخر، أو أنه هو»، انظر: المؤلفات من النساء (ص 41).

(2) البدر الطالع (1/ 248).

نُقل عن الإمام علي بن محمد قوله: «لو كانت دهماء بنت المرتضى
ذكراً ودعا إلى الإمامة ما شككت في صحة إقامته».

توفيت «الشريفة دهماء» في عام (837هـ/1434م)⁽¹⁾،
رجَّحَهَا اللَّهُ وَعَفَا عَنْهَا.

(1) البدر الطالع (1/248).



أورنڭ زىب
عالىم كىير
سلطان على
نهج الراشدين



تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

أورنك زيب عالمكير
سلطان على نهج الراشدين

في القرن السادس الميلادي، وبالتحديد عام (1526 م) تأسست في إقليم شرق أفغانستان وشمال الهند سلطنة إسلامية كبرى، أساسها العدل، وقوامها الشع، وطريقها التسامح، عرفت باسم «سلطنة مغول الهند»، وكان ذلك على يد السلطان المسلم ظهير الدين محمد باهير.

وهو أحد أحفاد جنكيز خان -مؤسس الامبراطورية المغولية التي اعتبرت أضخم إمبراطورية في التاريخ- من جهة والدته.

وهو أيضًا سليل تيمورلنك -الملك التوسيعى الذي حاز نصف الدنيا تقريباً- من جهة والده⁽¹⁾.

إلى هذين الملكين ينتسب «ظهير الدين محمد باهير» مؤسس

(1) ينظر: سبط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتولى (75/4)، العصامي، عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

وفي ترجمته للسلطان أورنك زيب تخليط، فلعله اشتبه عليه بغيره، ينظر: (474/4).

السلطنة المغولية في الهند، وقد توسيع هذه السلطنة حتى شملت
معظم أنحاء القارة الآسيوية.

هذه السلطنة التي امتازت بنجاح نادر، واتسم حكامها
بقدرتهم التنظيمية والإدارية التي تستحق عظيم التقدير، وقد تولى
على حكمها (18) سلطاناً، شيدوا مجدًا وتاريخًا ما زال إلى اليوم
يضيء حياة الشرق والغرب بآثاره العظيمة.

وكان آخر هؤلاء الأباطرة الأماجد وأعظمهم على الإطلاق:
السلطان أبو المظفر، محيي الدين، محمد بهادر؛ المعروف تاريخيًّا
باسم «أورنك زيب عالمكير»، وقد عاش هذا السلطان العظيم بين
عامي (1618 م - 1707 م)⁽¹⁾.

و «أورنك زيب عالمكير» ألقابه وليس أسماء، ولها معانٍ
عظيمة في اللسان الفارسي، فـ«أورنك زيب» معناها: زينة الملك،
و عالمكير، معناها: «جامع زمام العالم».

كان أورنك زيب سلطاناً من نوع فريد؛ على المستويين
الشخصي والسلطاني، حتى قال عنه الشيخ علي الطنطاوي رَحْمَةُ اللَّهِ:

(1) الأعلام (46/6).

«بقية الخلفاء الراشدين»؛ إذ تميز عصره بالازدهار، الديني والحضاري لدولة الإسلام، فمن هو ذلك السلطان، وما هي ميزاته؟
ليستحق ذلك اللقب الكبير؟



ولد السلطان أورنك زين في بلدة «دوحد» في كجرات بالهند في عام (1028هـ) الموافق لعام (1619م).

ونشأ في بيت عز وترف وشرف، فأبوه هو «السلطان شاه جيهران»، أحد أعظم سلاطين دولة المغول المسلمين في الهند، وهو باني مقبرة تاج الشهيرة التي تعد الآن من عجائب الدنيا السبع الحديثة.

وقد ظهرت في «أورنك زين» أمارات الفضل والمجد؛ تربية وسلوگاً وخلقاً منذ بداياته الأولى، فقد تربى تربية إسلامية خالصة، فلم تشب تربيته تلك شائبة، فعرف عنه منذ نشأته الأولى التدين ومحبة العلم، وقد تلقى العلم والفقه وبرع في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان.

وعرف عنه -منذ صغره- البعد عن الترف والعزوف عن الملذات.

رزق «أورنوك زيب» بسطة وقوة في العلم والجسم؛ إذ كان فارسًا شجاعًا لا يشق له غبار، وتروى عنه في إثبات ذلك قصص كثيرة.

لقد اكتملت لهذا «الصغير» كلّ أسباب العظمة، كأنّها هو يهياً لأمر عظيم، سيتحقق على يديه، وكذلك كان؛ فقد جدّد شبابه الإسلام في بلاد الهند، وأيّد الله به الدين الحقّ في موطن عظيم كان يحتاج إلى رجل مثله، حتى لو قيل: إن «أورنوك زيب» كان أحد مجدهي الدين في عصره لما كان ذلك بعيدًا.

وإليك قصة ذلك:

كان جدّه «جلال الدين أكبر» الذي عاش بين عامي (1556م) و(1605م)، أحد السلاطين المغول الكبار الذين حكموا الهند فازدهرت إبان حكمه الدولة؛ دينياً وحضارياً لكن «بعد عشرين عاماً من حكمه، مسلماً تقىً، انتهى الأمر به أواخر أيامه إلى وضع دين جديد سماه: «الدين الإلهي»، وهو عبارة عن مزيج من الديانات التي في الهند، ودعا الناس إلى الدخول فيه والالتفاف حوله! وأيضاً منع الجريمة عن الهندوس وغير المسلمين!

وكان رأي «جلال الدين أكبر» هذا في الإسلام أنه يستحق

الاحترام، لكنه صار ديناً عتيقاً لا يصلح لهذا الزمان المزدهر، ويجب أن يعمل على إنشاء دين جديد يناسب عصره، فباشر كل هذه الترّهات التي مضى ذكرها؛ لأجل هذا!

فأتى بذلك أمراً لم يسبقَه إليه أحدٌ من سلاطين المسلمين.

وكان ذلك السلطان في أوج عظمته؛ شديدَ البأس قويَّ المراس، فرغم مقاومة شديدة لقيها من المسلمين، لم يتراجع عن دعوته تلك، بل قام بنفي كثير من علماء المسلمين الذين عارضوا دعوته خارج الدولة، وظلَّ الأمر كذلك فترة طويلة من الزمان، حتى مات عام (1605م)، وخلفه على الحكم ابنُه السلطان «جهانكير».

وكان من بين العلماء الذي عارضوا دعوة «جلال الدين أكبر» بقوةٌ شيخُ جليلٌ يسمى أحمد السرّهنجي؛ أخذ هذا الشيخُ الكريم يدعو الأمراء وقُوّاد الجيش إلى الله ودينه ونبيه، ويدركُهم بالشرع الحنيف، ويحيي في نفوسهم الحمّيّة للإسلام، وكان يفعل ذلك -على الأرجح- سراً، لا جهراً، وقد ظلَّ على حاله تلك مع القادة يذكرُهم ويعظمُهم حتى فاضت روحه إلى ربّه.

ونهض بدعوته من بعده أبنه الشيخ محمد معصوم السر هندي، لكن شاء الله تعالى أن يضاف إلى الشيخ محمد عمل جديد جليل ذو أثر كبير، لم يكن لوالده من قبله، فقد هيأ الله تعالى وقدر للشيخ محمد معصوم أن يقوم على تربية طفل صغير هو ولد للسلطان «جهان كير»، فنشأ نشأة دينية حسنة، ورباه تربية إسلامية خالصة، وقرأ القرآن فجوده، وعلمه اللغات؛ العربية، والفارسية، والتركية، إضافة إلى الأوردية، ودرسه الفقه الإسلامي على المذهب الحنفي، فبرع فيه، وعلمه الخط فأتقنه وكان خطاطاً بارعاً، ونشأ محبّاً للفنون، ومنها الشعر، فكان شاعراً مجيداً، وعلمه القتال فتخلق بأخلاق الفرسان!

لقد اجتمع في شخصية هذا الطفل صفات عدّة رجال، ولم يكونوا أيّ رجال، بل كانوا رجالاً عظماء، اجتمعت له بهم صفات كثيرة من صفات العظمة، ولو قدر له أن ينفرد بواحدة منها، لكن بسببيها عقريّاً لا يفرّي فريه أحد ولا يجاريه في مجاله إنسان، فكيف وقد اجتمعت فيه كلها؟

كان هذا الطفل الميمون هو «أورنوك زينب»، ملك المستقبل

بعد أبيه «جهان كير»، وهكذا جمع كلّ صفات الملوك العظام في سنّ صغيرة.

نعم أبي الله إلا أن يتم نوره؛ تدرج «أورنوك زيب» في مناصب الدولة، فتولى -في سنّ مبكرة- إمارة الدّكْن في وسط الهند، فأظهر الرشد في حكمه، وأفْشى العدل بين رعيته، واكتسب خبرة كبيرة خلال ذلك⁽¹⁾؛ إذ سير أغوار الحكم، وتعلم فنون الإداره وأتقنها، فلما تولى الحكم كان قد نضجت خبراته واستوت ملكاته الإدارية، فظهر أثر ذلك على الغور، وقدم لدولته على طول عمره المديد ما يشهد على ذلك من قوة وإخلاص وعزيمة وصبر، وتطلع إلى المعالي والرقي.

وكان من ملوك المسلمين الذين برعوا في إدارة الدولة. وقد الجيوش بنفسه في عهد أبيه؛ للحفاظ على هيبة السلطنة، ورد الطامعين في أطرافها وداخلها، فحافظ على وحدة البلاد من التفتت، وكانت له هيبة وسمت الملوك.

(1) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (10 / 494).

ظل أورنك في مساعدة والده السلطان «جهان كير» حتى كانت وفاة أمّه «ممتاز محل» التي بوفاتها انشغل السلطان «جهان كير» ببناء مقبرة يُحَلَّد فيها ذكرها، وصرف لذلك الأموال الطائلة، وحمل الناس على العمل الشاق، مهملاً خلال ذلك السلطنة وشئونها، فظهرت بوادر الفتنة والثورات، ولم يكن للسلطان يومها من هم إلا النظر إلى ضريح امرأته وضريحه الذي أمر ببنائه إلى جوارها، مما شجع الابن الأكبر «دارا شوكوه» على الوثوب على ملك أبيه، فاستولى على كل شيء إلا الاسم، فقد ظل يحكم باسم أبيه⁽¹⁾.

ولم يكن «دارا شوكوه» من أهل الحكم؛ فقد كان مائلاً للدنيا، وكان أيضاً على مذهب جده «جلال الدين أكبر»، ويريد إرجاع الهند إلى ما كانت عليه في عهده من ذلك الدين المخترع!

وهنا ظهرت على «أورنك زيب» آثار تربية الشيخ محمد معصوم السرهدني، ومن اختارهم له من العلماء⁽²⁾، وأنتج عطاوهم وتعليمهم إياه؛ إذ قد رفض «أورنك زيب» المسلم الورع التقى ما

(1) نزهة الخواطر (6/738).

(2) نزهة الخواطر (6/738).

عزم عليه أخوه، وأيده في ذلك أخوه الثالث «مراد بخش»، فاستطاع «أورنك زيب» أن يأخذ الحكم لنفسه، وأيده الله فيما أراد، وأظهره على إخوته، فقهراهم، وقمع الثورات التي شنّوها ضده، وكأنّ والده قد مال إلى إخوته فيما عزّموا عليه، فاضطر إلى نقله إلى حصن «أجرا» وألزمـه الإقامة فيه وأحاطـه بكل أنواع التقدير⁽¹⁾، دون أن يكون له يد في مباشرة الدولة، حتى وافته منيـته، فأعلنـ أورنك زيب نفسه سلطـاناً فعليـاً علىـ البلاد، وكان وفـتها في الأربعـين من عمرـه.

وبـتـولي «أورنك زـيب» الملك ابـتـداً عـهـدـ العـدـلـ والـحـقـ، حتـى رـأـيـ المـسـلـمـونـ فـيـهـ مـاـ يـذـكـرـهـ بـسـيـرـةـ الـخـلـفـاءـ الـرـاشـدـيـنـ الـأـوـلـيـنـ؛ـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ وـعـثـمـانـ وـعـلـيـ، رـضـيـالـلـهـ عـنـهـمـ أـجـمـعـينـ.

حـكـمـ «أـورـانـكـ زـيبـ» الـبـلـادـ بـالـحـزـمـ وـالـعـدـلـ مـعـاـ؛ـ فـقـمـعـ الثـورـاتـ،ـ وـقـضـىـ عـلـىـ الـاـضـطـرـابـاتـ،ـ وـأـظـهـرـ التـسـامـحـ وـأـفـشـىـ العـدـلـ وـسـارـ بـالـحـقـ،ـ وـعـرـفـ فـيـهـ النـاسـ حـاكـمـاـ مـنـ أـعـظـمـ حـكـامـ الـعـالـمـ يـوـمـئـذـ.

(1) نـزـهـةـ الـخـواـطـرـ (738/6).

وقد اتسعت البلاد في عهده؛ إذ إنه ما لبث أن قعد على كرسي الملك حتى لبس لأمة الحرب من أول يوم وظل في جهاد عظيم دام (52) سنة؛ من سنة (1068هـ/1658م) حتى سنة (1400هـ/1707م)، فخضعت له شبه القارة الهندية كلها، من مرتفعات الهيمالايا إلى المحيط، ومن بنغلاديش اليوم إلى حدود إيران.

لقد شهدت إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند في عهده أقصى امتداد لها، وذلك أن السلطان أورنك زيب طلق الراحة وترك القعود وبذل الجهود المتنوعة؛ إدارياً وعسكرياً؛ وقد خاض المسلمون في عهده أكثر من 30 معركة، قاد منها (11) معركة بنفسه، وأسند الباقى لقواده؛ لقد بذل جهده فأعطته الدنيا هنالك زمامها، حيث لم يبق إقليم من أقاليم الهند إلا خضع لسيطرته، وبهذا استطاع السلطان المسلم «أورنك زيب» تحويل شبه القارة الهندية إلى ولاية مغولية إسلامية ربط شرقها بغربها وشمالها بجنوبها تحت قيادة واحدة.

لقد سار «أورنك زيب»، في الناس سيرة أحسن الملوك

وأعظمهم⁽¹⁾، من الناحيتين الإدارية والدينية، وأثرت عنه أعظم الأعمال فيهما؛ أما في الناحية الإدارية فإنه:

- وحد البلاد، وقضى على الفتن والثورات الداخلية، وحفظ حدود الدولة الخارجية من المغرين عليها⁽²⁾، ونجح في إحكام قبضته على شبه القارة الهندية بعد جهاد دام (26) عاماً، من جملة ملك استمر (52) عاماً.

- ساوى بين الرعية وجعل ولاته ونفسه كآحدهم، حتى إنه أُعلن في الناس: من كان له حق على السلطان فليرفعه إلى القاضي ليقضي فيه.

- أبطل الضرائب التي كان الملوك قبله أثقلوا كاهل الناس بها⁽³⁾، ومن العجيب أنها كانت (80) نوعاً! وكانت تبلغ ثلاثة ملايين روبية سنوياً⁽⁴⁾، وهي مبالغ لا يتخلى عنها سلطان! لكنه رَحْمَةُ اللَّهِ أبقى نظام الشرع في الزكاة، وترك ما عداه.

- شجع الناس على زراعة الأراضي، وعاونهم على إصلاح

(1) نزهة الخواطر (6/738).

(2) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (10/494).

(3) خلاصة الأثر (3/123)، المحيي، ط. دار صادر.

(4) نزهة الخواطر (6/738).

البور منها، حتى مرت على الناس أيام القحط وال الحاجة سالين،
وازدهرت حياتهم بالرخاء والبناء.

- اهتم بالعمران وبنى الخدمات العامة، فأقام المساجد
ومدّها بالعلماء والوعاظ، وعني بإقامة نظام الحسبة، ودعمه بما
يكفل قيامه بوظيفته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽¹⁾، وبني
الحمامات والفنادق العامة، وأنشأ المدارس بكثرة على نحو لم يسبق
له مثيل من قبله، حتى ازدهر التعليم في عهده ازدهاراً كبيراً، وبني
المستشفيات ودور المسنين، وأصلاح الطرق، وبني الحدائق⁽²⁾، حتى
أصبحت «دهلي» في عهده حاضرة الدنيا.

- عين القضاة، وجعل له في كل ولاية نائباً عنه، وخصص
موظفين يكتبون كل ما يقع من أحوال رعاياه ويرفعونها إليه، حتى
ينظر فيها بما يصلحهم.

- أبطل عادة تقديم المدايا إليه، كما كان يفعل من قبل مع
أسلافه، وأخذ ولاته بهذا.

- كان يجلس للناس ثلاث مرات يومياً بنفسه، دون حاجب؛
يسمع شكاوahم، ويأمر بذلك نوابه وولاته، حتى إنه سمع أن نائبه

(1) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (10/494).

(2) نزهة الخواطر (6/739).

بالبنغال اتخذ مثل العرش يجلس عليه فنهره وعنده وأمره أن يجلس
بين الناس كجلوس عامتهم !!

هذا وغيره في ناحية الإدارة وال عمران، أما الدين فقد أولاه
الملك العالم عناته الشديدة، وكان من آثاره في ذلك أنه:

- أظهر تمسكه بالإسلام والتزامه بشرائعه، على المستوى
الشخصي والعام:

(أ) فعل المستوى الشخصي: حفظ السلطان القرآن
الكريم كله بعد ما أصبح سلطاناً⁽¹⁾، وكان صاحب عبادة
عظيمة⁽²⁾، ويخضع للمشايخ ويقر بهم ويستمع إلى مشورتهم
ويعظم قدرهم⁽³⁾، وأمر قواده أن يستمعوا إلى مشورتهم بتواضع
شديد، وكان يصوم الاثنين والخميس والجمعة من كل أسبوع، لا
يترکهم أبداً، ويأبى إلا أن يصل الفرائض كلها في وقتها، جماعة، مع
المسلمين، بل وكان يصل التراویح إماماً بالمسلمين، ويعتکف
العاشر والأول في المسجد⁽⁴⁾.

(1) نزهة الخواطر (6/738).

(2) سلك الدرر (2/135)، ونزهة الخواطر (6/738).

(3) موسوعة الأعلام (14/2)، وزارة الأوقاف المصرية.

(4) خلاصة الأثر (3/123)، ط. الشاملة.

وبنى مسجد «بادشاه» في لاہور بپاکستان الآن، المسجد الذي
ظل إلى الآن شاهداً على عصر عز المسلمين وتمكينهم وحضارتهم
هناك، وكان يصوم رمضان في شدة الحر⁽¹⁾، ولا يفطر إلا على أرغفة
من الشعير، من كسب يمينه، عن طريق العمل في كتابة المصاحف،
ولا يرضى أن يطعم من بيت مال المسلمين!

ولما لم يستطع أن يحج إلى بيت الله الحرام استعاض بذلك أن
كتب مصحفين بخط يده وأرسل واحداً إلى مكة والآخر للمدينة!
وبسبب ذلك أن والده كان قد منعه من الحج قبل السلطنة،
وبعدها لم يستطع مغادرة البلاد والخروج للحج، في خضم القلاقل
والثورات والعداءات الخارجية لبلاده مع البلاد المجاورة⁽²⁾.
فاستعاض عن ذلك بتيسير سبل الحج وإرسال الهدايا للحرمين
الشريفين؛ علماء وفقراء.

وكان يحيا حياة زاهدة متغشفة، فقضى على الأبهة والفخامة
التي كانت تحيط بالملك في قصره رحمة الله وتقبل منه..

(1) نزهة الخواطر (6/738).

(2) نزهة الخواطر (6/738).

(ب) **وعلى المستوى العام: أبطل الاحتفال بالأعياد الوثنية مثل عيد النيروز⁽¹⁾، ومنع عادة تقبيل الأرض بين يدي السلطان والانحناء له، ومنع الخطب الطويلة التي تقال لتحية السلطان واكتفى بتحية الإسلام، كما منع دخول الخمر إلى بلاده، وصرف أهل الموسيقى والغناء عن بلاطه، ورويت في ذلك قصة طريفة: أنه كان يوماً خارج قصره فرأى الموسيقيين والقينات يلبسون السواد ويكونون ويشملون نعشًا، فسأل ما هذا؟ قالوا: هذا الغناء والمعازف نذهب لدفنها، فقال: إذن أحسنوا دفنها؛ لئلا تقوم مرة أخرى!**

وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا؛ إذ لم يكن يراهم لازم لامة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها⁽²⁾. كانت هذه السياسة ضرورية؛ لإنقاذ الدولة مما أصابها من عوامل الضعف والتفكك، وإصلاح أحوال المسلمين بعد أن ساد بينهم منذ عهد السلطان «أكبر» تهاون شديد في أمور الدين.

وبهذا كان «أورنك زيب» أعظم ملوك الدنيا في عصره، ولم

(1) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (4/99).

(2) انظر: رجال من التاريخ (2/24)

يبعد من قال فيه -بحق-: إنه بقية الخلفاء الراشدين⁽¹⁾.

وقد دخل -إبانَ عهده- ملايينُ الهند في الإسلام، كما وقف
حائلاً ضد المد الصفوی الرافضي على بلاده.

قال المؤرخون: وليس له في عصره من الملوك نظير، في حسن
السيرة، والخوف من الله تعالى، والقيام بنصرة الدين⁽²⁾.

يقول المرادي: وكان موزعاً لأوقاته، فوقت للعبادة، ووقت
للتدريس، ووقت لمصالح العسكري، ووقت للشكاوة، ووقت لقراءة
الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته، لا يخلط
شيئاً بشيء⁽³⁾.



لقد كان أورنوك زيب إلى جوار كونه سلطاناً عظيماً وفاتحًا
كبيراً وقائداً بطلًا، كذلك كان عالماً كبيراً، رأيناه وهو يشب
ويترعرع بين يدي شيخه الجليل محمد معصوم ابن الشيخ أحمد
السرهندي، الذي رباه على العلم ودينه به، وغرس فيه حب الدين،

(1) انظر: رجال من التاريخ (ص 15)، للأستاذ العلامة علي الطنطاوي، دار
البشير.

(2) خلاصة الأثر (123 / 3).

(3) سلك الدرر (135 / 2).

وَفِقْهَهُ فِي مَذْهَبِ أَبِي حِنْفَةِ، فَكَانَ - وَهُوَ صَغِيرٌ - مَشْرُوعُ عَالَمٍ
كَبِيرٍ، بَلْ كَانَ مَرْجِعًا لِلْعُلَمَاءِ⁽¹⁾.

وَقَدْ كَبَرَ هَذَا الْمَشْرُوعُ الْعَظِيمُ وَأَتَى ثُمَرَتَهُ بَلْ ثُمَرَاتَهُ، فَذَلِكَ
الصَّلَاحُ وَالْإِصْلَاحُ الْدِينِيُّ وَالْدُّنْيَوِيُّ مِنْ أَثْرِ تِلْكَ التَّرْبِيَّةِ وَذَلِكَ
الغَرْسُ، فَجَزِيَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْخَ عَنْ عَمَلِهِ وَجَزِيَ مِنْ عَاوَنَهُ فِيهِ
عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرُ الْجَزَاءِ.

وَلَمْ يَكُنْ الصَّلَاحُ وَالْإِصْلَاحُ فَحَسْبٌ هَمَا كُلَّ ثُمَرَةِ هَذَا
الْمَجْهُودِ وَنَتْلَاجُ ذَلِكَ الْمَشْرُوعِ بَلْ ظَهَرَ فِي إِنْتَاجِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ حِيثُ
كَتَبَ «أُورَنِكَ» وَأَلْفَ وَصَفَّ، وَرَسَمَ وَخَطَطَ وَسَاعَدَ فِي تَصْنِيفِ
الْكُتُبِ بِإِشْرَافِ مِنْهُ.

فَمِمَّا أَلْفَ كَتَبَ شَرَحَ فِيهِ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا شَرِيفًا - عَلَى غُرَارِ
الْأَرْبَعِينِ النَّوْوِيَّةِ - قَبْلَ أَنْ يَتَولَّ السُّلْطَانَةَ، وَأَلْفَ أَرْبَعِينَ أُخْرَى بَعْدَ
الْسُّلْطَانَةَ، وَعَلَقَ عَلَيْهَا تَعْلِيقَاتٍ نَفِيسَةً⁽²⁾، وَهُوَ بِالْلُّغَةِ الْفَارَسِيَّةِ،
وَكَانَتْ لُغَةُ التَّأْلِيفِ - وَقَتْهَا - فِي الْآدَابِ وَالْعِلُومِ بِالْهَنْدِ.

وَمِمَّا كَتَبَ بِخُطْهِ: الْمَصَاحِفُ الَّتِي كَانَ يَبْيَعُهَا وَيَتَقَوَّتُ بِشَمْنَهَا؛

(1) سُلَكَ الدَّرَرَ (2/ 1135)، وَالْأَعْلَامَ (6/ 46).

(2) نَزَهَةُ الْخَوَاطِرَ (6/ 739).

زهداً منه أن يعيش من أموال المسلمين!

وكان زاهداً رَحْمَةُ اللَّهِ حَتَّى قَالَ الْمُؤْرِخُونَ: إِنَّهُ بَلَغَ مِنَ الزَّهْدِ
مِلْعَانًا أَنَّافَ فِيهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ⁽¹⁾.

وَمَا تَمَ بِأَمْرِهِ وَاقْتِرَاحِهِ وَسَاعَدَ فِيهِ وَخَطَطَ لَهُ: مُوسَوِّعَةُ قِيمَةٍ
فِي الْفَقَهِ الْخَنْفِيِّ، عُرِفَتْ بِاسْمِ «الْفَتاوَىُ الْهَنْدِيَّةُ» أَوِ الْعَالَمِكِيرِيَّةُ، وَقَدْ
قَامَ بِإِعْدَادِهَا مَعَ نَخْبَةٍ مِنْ كَبَارِ الْفَقَهَاءِ الْأَحْنَافِ، وَاشْتَهَرَتْ فِي
حِينَهَا فِي الْأَقْطَارِ الْحِجَازِيَّةِ، وَالْمَصْرِيَّةِ، وَالشَّامِيَّةِ، وَالرُّوْمِيَّةِ، وَعِمَّ
النَّفْعِ بِهَا، وَصَارَتْ مَرْجِعًا لِلْمُفْتَنِينَ⁽²⁾، وَهِيَ مُوسَوِّعَةٌ عَلَى هِيَةِ
الْقَوَانِينِ، مُجَرَّدَةٌ مِنَ الْأَدَلَّةِ.

وَقَدْ طَبَعَتِ الْمُوسَوِّعَةُ وَبِحَاشِيَتِهَا: كِتَابُ الْفَتاوَىُ الْخَانِيَّةُ،
وَالْفَتاوَىُ الْبِزَازِيَّةُ طَبَعَاتٌ كَثِيرَةٌ، بَعْضُهَا فِي سَتَةِ مُجَدَّدَاتٍ ضَخِّمَةٌ،
وَلَوْ حَقَّتْ لِكَانَتْ (50) مُجَدَّدًا وَزِيَادَةً، وَإِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا مَا
أَلْفُ مَثَلُهَا!

وَهَذِهِ مُحاوَلَةٌ مُبَكِّرَةٌ لِتَقْنِينِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَانَ أُورَنِكُ
زَيْبُ بِهَا أَوْلَى مِنْ عَمَلِهَا، عَنْ طَرِيقِ تَدوِينِ الْأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ

(1) خلاصة الأثر (3/123).

(2) سلك الدرر (4/114)، ونرفة الخواطر (6/743).

في كتاب واحد، يُتـخذـ قـانـونـاـ⁽¹⁾.

وقد اختلف الفقهاء بشأن مسألة تقنين الشريعة اختلافاً واسعاً ومتشعباً؛ حيث ذهب بعضهم إلى جواز التقنين، وساقوا أدلة كثيرة لذهبهم، وذهب آخرون إلى عدم جواز التقنين، واستدلوا أيضاً بأدلة كثيرة، غير أنّ القول بجواز التقنين هو القول الجدير بالترجح⁽²⁾.

إنّ في العمل بشريعة الإسلام صلاح أحوال المسلمين في حاضرهم وفي مستقبلهم، ومستقبل الأجيال التي تأتي من بعدهم، وقد حدث «انقطاع» عن هذا العمل في كثير من بلاد الإسلام -منذ قرنين تقربياً- نتيجة وقوعها تحت الاحتلال الأوروبي، واستيراد القوانين الأجنبية، فمـتـىـ نـعـودـ إـلـىـ الـعـلـمـ بـشـرـيـعـتـناـ وأـصـلـ هـوـيـتـناـ؟

«إن تحكيم الشريعة يتصل بأصالتنا وقوميتنا، والقوانين الوضعية التي تُحـكـمـ بـمـقـضـاـهـاـ فيـ بـلـادـنـاـ العـرـبـيـةـ وـالـإـسـلـامـيـةـ،

(1) الأعلام للزركلي (46/6).

(2) انظر: موقف الفقهاء من تقنين أحكام الشريعة الإسلامية، دراسة مقارنة، د. عبد المؤمن عبد القادر شجاع الدين، مؤسسة البيت القانوني.

قوانين أجنبية عنا دخيلة علينا، لم تنبت في أرضنا، ولم تُستمد
أحكامها من عقائدهنا وقيمتنا وأعرافنا ومسلماتنا».

فمتى يتحقق هذا الحلم؟ فإني أرانا نذوب لذلك الحلم حينياً.

إن نفوس المسلمين -في كل مكان- تُتوق إلى تطبيق أحكام
الشريعة الغراء، وقد طال عليها تتحقق هذا الأمل، وهذا الانقطاع
وإن طال، فمآلُه إلى الزوال، وهذا التعطيل وإن دام حقبة في
الماضي، فلن يدوم -إن شاء الله- في المستقبل⁽¹⁾.

وقد تحدثت فيها سبق عن هذا الموضوع، فليسامحني القارئ
ال الكريم في التكرار، فإني
قيشارتى ملئت بأنات الجوى

لا بد للمكبوت من فيضان

صعدت إلى شفتي خواطر مهجتي

ليبين عنها منطقى ولسانى

(1) انظر: تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة؛ د. إبراهيم البيومي غانم، مجلة الأزهر، الجزء 12 لسنة 84.

ومن عجيب ما ذكر عن هذا السلطان العالم أنه لم يدع طلب العلم حتى بعد السلطنة، وكأنه رَحْمَةُ اللهِ أَحَبُّ أن يلقى الله وهو يزداد كُلَّ يوم علِّيًّا، يقول الندوبي رَحْمَةُ اللهِ: وكان يجلس للمذاكرة في الكتب الدينية، والإحياء والكمياء والفتاوي الهندية وغيرها في كل أسبوع ثلاثة أيام، على السيد محمد الحسيني القنوجي، والعلامة محمد شفيع اليزيدي، ونظام الدين البرهانبوري، وغيرهم من العلماء^(١).



لم يكتف السلطان العالم بهذا، بل كان يعاون العلماء والطلاب على عملهم، فيوظف لهم راتبًا من بيت المال يعيشون منه ويتفرّغون لشئون العلم.

غير أنه اخترت في ذلك لنفسه خطة راشدة، مبدعة، ربّما لم تسمع الدنيا بمثلها عن غيره، تتمثل في أنه لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتبًا إلا طالبه بعمل من الأعمال العلمية؛ تأليف أو تدريس^(٢)؛ وذلك لئلا يأخذ الطالب أو العالم المال ثم يركن إلى الدعة والرّاحة ويتكاسل، فيكونا قد جمعا بين السيئتين؛ أخذ المال بلا حق وكتهان

(١) نزهة الخواطر (٦/٧٣٨).

(٢) نزهة الخواطر (٦/٧٣٨).

العلم⁽¹⁾!

وربما نسبه بعضهم بسبب ذلك إلى البخل، لكن حاشاه⁽²⁾، بل هو فعل الصواب رَحْمَةً لِلَّهِ.

يقول الرادي في سلك الدرر: «أقام في الهند دولة العلم، وبلغ في تعظيم أهله، حتى قصده الناس من كل البلاد»⁽³⁾.

هذا البناء الحضاري العلمي الذي أسسه السلطان العالم «أورنك زيب» لم يشهده التاريخ الإسلامي إلا في فترات ازدهاره وعنهوان مجده، وقد كانت فترته واحدة منها.

غير أن هذا المجد الذي أقامه «أورنك زيب» لم يجد من خلفائه من يحافظ عليه ويقويه، فضعف وانهار، ووقع في قبضة الإنجليز الذين كانوا يتظرون هذه الفرصة؛ إذ عانت البلاد من تعسف «الإنجليز» وظلمتهم وطغيانهم، واستنづفت الشركة البريطانية ثروات هذه البلاد واستعبدت أهلها⁽⁴⁾، في فترة من أصعب فترات

(1) انظر: رجال من التاريخ (2/24)

(2) نزهة الخواطر (6/738).

(3) سلك الدرر (2/135)، والأعلام (6/46).

(4) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (4/101).

دولة الإسلام هناك، تؤكد على أن الحفاظ على المجد مثل تشييده،
في الصعوبة، سواء بسواء!

في بوفاة السلطان أبو المظفر محي الدين محمد أورنك زيب عالمكير، انتهت عظمة دولة المسلمين في الهند فجاء من بعده حكام ضعاف، وظل الأمر كذلك حتى انتهت تماماً بسقوط آخر سلطان «بهادر شاه الثاني» عام 1857 م، بفعل الإنجليز، ولم تقم للإسلام دولة منذ ذلك الزمان في تلك البلاد الشاسعة.

استشهد السلطان «أورنك زيب» في سبيل الله، في عام 1118 هـ/1707 م) وكان موطن استشهاده أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من (1500) كيلومتر.

وعمر (90) سنة كاملة، ومن العجيب أن سنه لم تمنعه خالل هذه المدة من قيادة الجيوش، ليتهي به المطاف شهيداً في سبيل الله، كما لم تمنعه سنه تلك أن ينحط القرآن ويكتب المصاحف ويغزل «الطاقيات»؛ لياكل من عمل يده! ورحل بعد أن حكم 52 سنة⁽¹⁾، وهو -بالمناسبة- من الأقلين الذين دام ملکهم إلى هذه الفترة المديدة،

(1) سلك الدرر (2/135).

ورحل «أورنوك زيب» تاركًا ذكرى عطرة حاكم مسلم لم تشغله دنياه وحروبه المتواتلة عن دينه وآخرته، فقد كان إمبراطورًا لم تشهد الهند مثله في اتساع ملكه وصلاح خلقه، وحسن سيرته وسريرته، بل لم يشهد مثله العالم الإسلامي في القرون الأخيرة حتى يوم الناس هذا.

وقد بلغ من تقواه أنه، حين حضرته الوفاة، أوصى بأن يُدفن في أقرب مقابر المسلمين، وألا يعدو ثمن كفنه خمس روبيات!!
وكان ترك هذه الروبيات الخمس من ثمن «طواقي» كان يغزها بيده ويبعها سرًّا، من ضمن (300) روبية -هي كلّ ما يملك- أوصى بها كلها للفقراء المسلمين⁽¹⁾!

(1) استفدت في هذه المقالة -كثيرًا- من ترجمة «أورنوك زيب» بالموسوعة العالمية «ويكبيديا» وهي منسوبة إلى كتاب «صانعو التاريخ» مؤلفه سمير شيخاني، ولم أتعثر على الكتاب، ثم وجدتها -برمتهها- مأخوذة من كتاب «رجال من التاريخ» للأستاذ الكبير علي الطنطاوي، رَحْمَةُ اللهُ وَكَذَا من برنامج «مشاهير أعلام المسلمين»، لفضيلة الدكتور محمد موسى الشريف، حلقة خاصة عن السلطان أورنوك زيب عالمكير، أذيعت بقناة أقرأ، وهي موجودة على يوتوب.

وكل أخبار ذلك السلطان العالم العظيم هي عظات وعبر
ودروس وفوائد، فلسان حالها مخبر بعظاتها، رحم الله «أورنك زيب»،
ومن كان على شاكلته من علماء الإسلام وحّكامه، ونفع الله بعلمه
وسيّرته شباب الإسلام وأمل غده.



تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد



زيب النساء

أول مفسرة للقرآن
كاملاً

في تاريخ الإسلام ..
ملكة هندية

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

زيب النساء
أول مفسرة للقرآن كاملاً
في تاريخ الإسلام .. ملكة هندية.

هذه امرأة فريدة؛ إنها المرأة الوحيدة من بين نساء العالمين -فيها أعلم- التي أثر عنها تفسير كامل للقرآن الكريم، ولم يعرف أنّ امرأة قبلها، قامت بهذا العمل⁽¹⁾، وقد ظلّ الأمر كذلك بعدها إلى أن جاء عصرنا هذا.

ولذلك كانت المفسرة الوحيدة التي تضمنها «معجم المفسرين» من صدر الإسلام حتى العصر الحديث»، وهذا المعجم يضم أسماء جميع مفسري القرآن في الإسلام ويقع في مجلدين ضخمين⁽²⁾، وقد صنفه صاحبه عام (1395هـ)⁽³⁾، وسأريك - بعد قليل - بزيادة خبر عن ذلك.

(1) معجم المفسرين، من صدر الإسلام حتى العصر الحديث، (1/197)، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان.

(2) صلاح الأمة (7/180، 181)، العفاني، ط. مؤسسة الرسالة.

(3) معجم المفسرين (1/197).

فمن كانت زيب النساء هذه، وما هي أخبارها؟

أما هي فـ«زيب النساء»، ومعنى زيب النساء: أحسن النساء، بنت السلطان، المغولي، المسلم: محي الدين، أورنك، زيب، عالمكير، سادس أباطرة المغول في الهند وأكبرهم وأكرمهم، ذلكم الملك، العالم، الذي مرت بنا ترجمته من قريب، وزيب النساء هذه هي بنته الكبرى.

كانت الملكة «زيب النساء» فاضلة، أديبة، شاعرة، عالمة، خطاطة، حافظة للقرآن، عارفة باللغات العربية، والفارسية، والتركية، والهندية.

وقد اجتمع لها علم الشع واللغة، فحفظت القرآن الكريم وهي صغيرة، وكافأ والدها «السلطان عالمكير» المعلمة التي علمتها القرآن - وهي مريم أم عنایة الله الكشميري - بمكافأة عظيمة؛ إذ أعطاها (30) ألفاً من النقود الذهبية، وهذا كرم فيّاض، وفيه أسوة لأولياء الحفظة، في تعاهد الأولياء لأبنائهم، وحثّهم على مواصلة الدراسة والحفظ لآيات الكتاب العزيز، وإكرام أهل القرآن ومحفظيه، بل دعا بعض الفضلاء إلى تبني الوقف على أهل القرآن، وهي

دعوة تهدف إلى إطلاق وقف قرآنى تذهب عوائده للإنفاق على تعليم القرآن الكريم، والانتقال به نحو الريادة للنهوض بالعمل القرآني من الطابع التقليدي إلى توظيف تكنولوجيات التعليم في تدريس ونشر القرآن، ليشكل رافداً تسير عليه الأمة نحو الريادة، وهي دعوة طيبة رائدة، وفي العمل بها خير عظيم، وفقنا الله لحفظ وفهم القرآن العظيم وجعله ربيعاً قلوبنا، ونوراً صدورنا، وجلاءً أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا.

تعلمت زيب النساء القرآن وتعلمت الكتابة، وقرأت الكتب المدرسية على الشيخ أحمد بن أبي سعيد الأمهوي وعلى غيره من العلماء، وأخذت الشعر والإنشاء وغيرهما عن الشيخ محمد سعيد المازندي، واجتمع عندها من العلماء والشعراء ما لم يجتمع عند أحد.

وهكذا الفضل؛ يتبينى على غرس أساس العلم في الصبا.

ولدت «زيب النساء» في (10) شوال سنة (1048هـ) وقيل قبل ذلك بسنة، من بطن درس بانو شاهور خان، الصفوى، ونشأت في نعمة أبيها السلطان، غير أنّ النّعمة لم تلهها عن لذة

العلم، فقد شبت تحب القراءة والاطلاع، فأكثرت من جمع الكتب وطلبتها، حتى أحرزت الكتب النفيسة في خزانتها، وكانت شاعرة ساحرة تسحر الألباب، وتفلق القلوب، ولا تضاهيها امرأة في الهند في جودة القرية، وسلامة الفكرة، ولطافة الطبع، وقد اهتمت بالقرآن وعلومه.

صنفت «زيب النساء» مصنفات، ولها ديوان شعر، فأما مصنفاتها فهي لا تكاد توجد في الدنيا غير «زيب المنشئات» وهو مجموع لرسائلها، وديوانها كذلك مفقود، وقد نسب إليها ديوان شعر موجود، لكن لم يثبته المحققون، بل أثبتوا أنه لواحد من شعراء الفرس، أما ديوانها فقد ضاع في حياتها.

ويبقى كتابها «زيب التفاسير» أفضل مصنفاتها وخيرها على الإطلاق، ولنفرد للحديث عنه هذه السطور:

مرّ معنا أن معنى كلمة «زيب» هو أحسن، فيكون معنى «زيب التفاسير»: أحسن التفاسير، وهذا التفسير لم يصلنا، ومن المؤرخين من يقول: إنه ترجمة للتفسير الكبير، المسمى مفاتح الغيب الذي ألفه الإمام فخر الدين الرازي رَحْمَةُ اللهُ عَلَيْهِ.

ويقولون إن «زيب التفاسير» ترجم إلى اللسان الفارسي.

ويقولون: إن الذي نقله من العربية إلى الفارسية أو العكس هو الشيخ صفي الدين الأردبيلي ثم الكشميري بأمرها، ولذلك سماه باسمها!

وقد كان الشيخ صفي الدين رَحْمَةُ اللهِ صوفياً، ينتمي إلى أهل السنة والجماعة، على مذهب الإمام الشافعي، وكذلك كان أباً، لكن حفيده «الخوجة علي» هو الذي تولى رئاسة الطريقة الصفوية سنة 801 هـ / 1339 م، وتحول إلى التشيع على المذهب الإثني عشرى، الرافضة؛ لذا تحول الصفويون وأصحاب الطريقة⁽¹⁾!



لم يصلنا «زيب التفاسير» هذا، لنعرف ما إذا كان ترجمة لتفسير الفخر الرازي إلى لغة فارس، أم لا، فنحن لا نملك الكتاب كما لا نملك غير هذا من الأخبار عنه، إلا أنّ من العجيب جدًا أن يسمّي

(1) دفعني لبيان هذا ما تضمنه كتاب بعنوان: «مشاهير شعراء الشيعة»، مؤلفه عبد الحسين الشبستري، وهو صادر عن مركز آل البيت العالمي للمعلومات، إذ ضمنه ذكر «زيب النساء»، ولا ريب أنّه كاذب، فـ «زيب النساء» سنية، جماعية، حنفية، كأبيها وسائر أهل دولتها، وليس هذه أول سطو الروافض على مشاهير أهل السنة ونسبتهم إلى التشيع المزعوم.

الشيخ كتاباً ترجمه من لغة إلى لغة باسم غير اسمه المعروف به، ثم هو حين يسمّيه يعمد إلى اسم «زيب التفاسير» المقتبس -بالطبع- من اسم الملكة «زيب النساء» ليسمّيه بذلك من دون الأسماء!

ولا يبرّر ذلك ما قيل من أن سبب تسميته «ترجمة الكتاب» بهذا أنّ الملكة كانت صاحبة الأمر بترجمته، أو أمّها هي التي أنفقت عليه حتى ترجم!

وهذا يدفعني إلى ترجيح -ربما يكون مقبولاً- وهو أن «زيب التفاسير» هو غير ترجمة الشيخ صفي الدين لتفسير الفخر الرّازي.

وأن يكون للملكة «زيب النساء بيكم» دور في هذا التفسير أكبر من كونها أمرت به، أو أنفقت على مشروعه حتى تمّ، ويرشح هذا ما عرف عنها من خصال العلم وشمائل الأدب التي ذكرناها في البداية، فهذه الخصال خليقة بـالـأـلـأـتـعـصـمـةـ فيـهـ في مشروع كهذا إلا بعد أن يضع بصمته العلمية فيه.

مهما يكن من أمر زيب التفاسير - ترجمة هو أو تأليف؟ - يبقى أنّ الملكة «زيب النساء» رَجَمَهَا اللّٰهُ كانت عالمة، أدبية، حافظة للقرآن، ذات بيان، ولها مصنّفات، وديوان شعر، لكن لم يقدر أن يصلنا من

تلك التصانيف شيء، غير مجموع رسائلها كما أسلفنا، ولعلها مذخورة، مخطوطة، ويأذن الله لها يوماً أن تخرج إلى النور.



توفيت «زيب النساء» سنة (1113هـ) في حياة أبيها، ودفنت بحديقة بناها في مدينة لاهور⁽¹⁾، وقيل: دفنت في دهلي.

ومن فرائد زيب النساء، هذه، - كذلك - أنها أول امرأة رفضت الزواج، وفضلت أن تبقى عزباءً؛ لحجة غريبة عجيبة، قال المؤرخون: «لم تتزوج قط لغيرتها بأن تكون ضجيعة لأحد من الرجال!»⁽²⁾.

تقول هذا، وهي من هي في العلم والحكمة والأدب؟ فسبحان الله! ويكون النقص لا ينفك عن الإنسان، بالغاً ما بلغ من العلم، ولا غرو فمهما علا في العلم والعقل فهو رغم كل شيء بشر.



وفي حياة «زيب النساء» عظات وعبر، لكنني أود الإشارة إلى شبهة تتعلق بأشهر ما ورد بهذه المقالة من معلومات وهي: ذكرورية

(1) نزهة الخواطر (6/724).

(2) نزهة الخواطر (6/724).

مفسّري القرآن الكريم جميعهم، وأنّ امرأة لم تفسّر القرآن!

فقد أخذ ذلك الأمر «الحقيقي الواقعي» تكاءً لرمي الإسلام بالإفك؛ فقال الكاذبون الخرّاصون: لقد انتصر هؤلاء المفسرون الرجال لوجهة نظر الرجل على حساب المرأة!!

جاء ذلك في مؤتمر عقد في مدينة برشلونة، بإسبانيا، تحت عنوان: «التأويل الذكوري للشريعة الإسلامية، والقرآن الكريم»؟

أيُّ إفك هذا وأيُّ سفه؟ بل أية وقاحة!

وقد كفانا واحد من العلماء الرد على هذه الشبهة وهو الدكتور مصطفى الشكعة عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وأفخم هؤلاء المتأمرين، ومن رده نورد هذه القبسات: «نعم إن كل أصحاب تفاسير القرآن رجال، لكن الادعاء بأنهم انتصرت وجهة نظر الرجل على حساب المرأة كذب، بل مؤامرة؛ لإثارة المرأة المسلمة، واحتلال المشاكل بين الرجال والنساء، وهدم الأسرة المسلمة..

«هذا ليس مؤتمرا، وإنما مؤامرة على المجتمع الإسلامي..

«إنه لو أعدّت امرأة مسلمة تفسيراً للقرآن لتم نشره والاستفادة

منه، لكن الغالب أن المرأة المسلمة كانت تهتم ببيتها وتربيتها أبنائها، ورغم أنها كانت تتعلم؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، إلا أن أعمال التفسير والفقه قام بها رجال ...

«إنّ فكرة مؤتمر برسلونة تحمل في طياتها مؤامرة على الإسلام؛ لأنّها تشجع النساء المتمرّدات على هذا الدين، وهن خدم للعلمانية، وأجورات من الشيطان الذي يدس للمجتمع الإسلامي ويسعى لفساده وإشعال الفتنة فيه..»

«إنّ التفسير عملية شاقة، وليس سهلاً على الإطلاق، كما أن المفسر يحتاج لمعرفة عشرة علوم على الأقل، بجانب عدم توافر شروط التفسير لدى الأكثريّة الساحقة من النساء المسلمات...»

«إنّه على الرغم من وجود نساء روی عنهن الحديث إلا أنه لم توجد منهن مفسرات؛ لأن المرأة المسلمة تهاب المواقف الدينية، فتبعد عنها».

«وكما أنه ليس كل عالم مؤهلاً لتفسير القرآن العظيم، وإنما هناك شروط للمفسر لا بد من توافرها فيه، وذلك لأن الإسلام دين سماوي، والحرص على سماويته يجعل الكثير من الأنقياء لا

يُجمون على العلوم الإسلامية، وينأون بأنفسهم عن ذلك»⁽¹⁾.

هذه شبهة أهل الباطل، وذلك ردها، ولن يتوقف أعداء الله عن محاولات تشويه الإسلام بشبهات باطلة وحجج داحضة، هي في الحقيقة أكاذيب يخالقونها لكنها سرعان ما ترتد إلى حلقهم فيغصّون بها، حفظ الله الإسلام، ومصادره، وأهله من كل كيد ومكر، آمين!

ولا يخفى أن الخطاب الإسلامي في أصله الأول (القرآن) قد وجّه للرجال والنساء على حد سواء، فمسؤولية المرأة مثلها مثل مسؤولية الرجل في وجوب تلقى خطاب القرآن تعلماً وحفظاً ومذاكرة وفهمها، وإذا كان التاريخ لم يحفظ لنا سوى اسم زيب النساء مفسرة لجميع القرآن الكريم، فإنه قد حفظ لنا أسماء كثيرات شاركن في تفسير القرآن الكريم مشاركة فعالة، وذلك منذ اللحظات الأولى لنزول القرآن، كأم المؤمنين عائشة وأم سلمة رضي الله عنّهما، وحفصة بنت سيرين، وغيرهن، وقد توالّت بعد عصر النبوة سيدات أفضّل كانت لهن مشاركة متميزة في تأويل بعض الآيات.

(1) من بيان له، منشور على الشابكة.

وقد زخر العصر الحديث بجهود كبيرة في هذا المجال، وكان «من أوائل التفاسير النسائية الجادة ما أثر عن عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، فلها تفسير رائع ذو طابع أدبي يسمى بـ(التفسير البياني للقرآن الكريم)». وبالرغم من كون بنت الشاطئ قد ألفت كتاباً عدداً تعنى بالقرآن (القرآن وقضايا الإنسان) (الإعجاز البياني للقرآن الكريم)، إلا أن التفسير البياني للقرآن الكريم يُعدّ بحق أول تفسير نسوي للقرآن الكريم. ولعل ما يشوب هذا الإنجاز العظيم لبنت الشاطئ هو كونه ليس تفسيراً شاملًا، إذ يركز فقط على أربع عشرة سورة من «جزء عم» متناولاً إياها بالشرح والتفصيل، والتطبيق الدقيق لمنهج أستاذ المفسرة وزوجها الشيخ المجدد أمين الحولي.

وجاءت التجربة التفسيرية النسائية المتكاملة مع الداعية الإسلامية والمجاهدة زينب الغزالى الجبيلي، فصدر لهذه الأخيرة سنة 1994 تفسير بعنوان (نظارات في كتاب الله).

وهو تفسير جليل جليل تنهج فيه الداعية النهج الدعوي الإصلاحي الذي يجعل من القرآن دستوراً للأمة وطريقاً إلى تقدمها وسط ما تعانيه من تقهقر وركود. وصدر هذا التفسير في

مجلدين فسرت خلالها الداعية القرآن كاملاً.

وتتابعت الإضافات النسائية في مجال التفسير فوافق الأزهر الشريف على صدور تفسير للداعية فوقية إبراهيم الشربيني بعنوان (تيسير التفسير) وهو أيضاً تفسير كامل للقرآن الكريم صدر سنة 2008م وجاء في أربعة مجلدات.

وأكثر ما يميز تفسير الأستاذة فوقية الشربيني هي طريقته التبسيطية الراقية التي تصل إلى المسلم العامي دون أن يؤثر ذلك على رصانته وحصافته من الناحية اللغوية وموسوعيته وثرائه من الناحية العلمية.

وفي العام 2010م أيضاً وافق مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف على طبع وتوزيع تفسير يعود لصاحبه الداعية والوجه الإعلامي المعروف فاطمة كريمان حمزة.

وتفسير السيدة كريمان حمزة الذي يحمل اسم (اللؤلؤ والمرجان في تفسير القرآن)، يعد أيضاً إضافة نسائية هامة إلى هذا الحقل المعرفي.

وجاء تفسير الداعية في ثلاثة مجلدات فسرت خلالها الداعية القرآن كاملاً.

ويتميز تفسير المؤلِّف والمرجان بسمات هامة أبرزها تركيزه على تبسيط معاني القرآن وتقديمها بأسلوب سلس وشائق يتتجنب التعقيدات والمحاججات التي قد تدخل القارئ متاهات هو في غنى عنها، كما ينحو هذا التفسير منحى اجتماعياً تحاول الداعية عن طريقه تقديم رؤية إصلاحية شمولية للنهوض بالمجتمعات الإسلامية من خلال التمسك بروح القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

كما يوجد تفسير آخر- عثرت عليه حديثاً - بعنوان (المبصر نور القرآن) للداعية الفلسطينية السيدة نائلة هاشم صبري صدر عام 2003 م.

وهو تفسير هام وعميق رجع فيه المفسرة إلى العديد من كتب التفسير القديمة كجامع البيان للطبراني، والدر المثور للسيوطى، والبحر المحيط لأبي حيان ومفاتيح الغيب للرازى وأيضاً إلى تفاسير حديثة مثل فتح القدير للشوكانى وروح المعانى للألوسي.

وكما هو ملاحظ فقد اعتمدت المفسرة منهجاً يمزج بين التفسير بالتأثر والتفسير بالرأى المحمود فكانت تفسر القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة والسلف.

كما يلاحظ أن المفسرة «كانت تبدي اهتماماً بقضايا المرأة في ثانيا الآيات الخاصة بها كالزواج والطلاق والإيلاء والحيض وغير ذلك⁽¹⁾.

وها هي الدراسات المتخصصة في الكليات والمعاهد العلمية قد شجعت المرأة على طرق هذا المجال بقوة، فعساها تخرج لنا رائدات في التفسير خلال التاريخ المعاصر. وإنما لمزيد من الجهد والاجتهادات، والدراسات والرائدات، في هذا المجال، لمنتظرون.

في سيرة زين النساء عظات وعبر لا تخفي: فهي امرأة ولم يمنعها ذلك أن تكون مؤلفة، وفي تاريخ الإسلام جملة من النساء المؤلفات، وقد أحصى شيخنا الأستاذ محمد رمضان خير عدّة من ألفن من النساء فكن⁽²⁾ (36) مؤلفة، وذلك في كتابه: «المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن»⁽²⁾، هذا، وقد فاته - حفظه الله - بعضهن وهن

(1) انظر: المرأة والتفسير: الحاضر الغائب! مقال بقلم محمد السالك محمد فال، منشور بمجلة آفاق، بتاريخ 26/12/2012م.

(2) المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن، محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم.

قليات، فأجزل الله لشيخنا المثوبة.

فعلام تتقاصر هم نساء زماننا أن يلحقن بركب أولئك
الخيرات؟ ومنهن «زيب النساء» التي لم يمنعها كونها امرأة أن
تكون مفسّرة، بله أن تكون متفرّدة بهذا التفسير من بين نساء
العالمين كما أوضحنا، رَحْمَهُ اللَّهُ، ورحم والدها، ففي مثلها يصدق
قول القائل:

ولو كان النساء كمن فقدنا

لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ

ولَا التذكير فخر للهلال

وأفجع من فقدنا من وجدنا

قييل فقد مفقود المثال⁽¹⁾



(1) انظر: شرح ديوان المتنبي (ص 198)، الواحدي.

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد



خناقة بنت بكار

العالمة المتفنة ...

وزيرة الصدق، وأم

السلطين

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

خُناثة بنت بكار

العالمة المتفتنة ... وزيرة الصدق، وأم السلاطين

لو أنّ امرأة امتازت بين قرياتها من النساء في مجال لكان حريّاً
أن تكون قدوة لهنّ في مجاهن هذا، فكيف لو امتازت على الرجال
أيضاً؟

وكيف لو أن هذا التفوق لم يكن في مجال واحد بل كان في
مجالات متعدّدة؟ لا أعني فنوناً في مجال، إنما مجالات متباude
متفارقة!

لا ريب أنها نموذج مشرف للنساء في كل زمان، وبعلوّ همتها
يقتدي الرجال.

وشخصيتنا التي نتناول سيرتها في هذه السطور ينتظمها هذا
الوصف؛ فقد كانت فقيهة عالمة، ولغوية أديبة، وزيرة سياسية،
وصاحبة الأثر العظيم في التاريخ بمشاركتها السياسية والفكرية في
تأسيس مملكة العلوين العظيمة بال المغرب، تلك المملكة التي بلغت
دولتها أوج الازدهار والاستقرار في عهد زوجها، مؤسس الدولة
العلوية، السلطان إسماعيل بن الشريف -ثالث الإخوة الروّاد

الذين لمع ذكرهم وتألق نجمهم في تاريخ الدولة العلوية⁽¹⁾،
والذي حكم المغرب ما بين (1082 هـ 1139 هـ).

إنها الأميرة خناثة⁽²⁾، بنت الشيخ بكار، بن علي بن عبد الله
المغافري الشنقيطي⁽³⁾.

وكانت زوج السلطان إسماعيل ووزيره ومستشاره، وهي
أيضاً - أم السلطان عبد الله، وجدة السلطان العالم محمد بن عبد
الله العلوي وأستاذته، والمشرفة على تكوينه وتربيته.

حين غزا السلطان إسماعيل صحراء سوس، سنة (1089 هـ)،
قدمت عليه وفود العرب ومنهم عرب «المعقل» فأدوا طاعتهم
للسلطان، وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغافري الشنقيطي،
وكان له ابنة ذات جمال وكمال تسمى خناثة فأهداها الشيخ بكار إلى

(1) مجلة دعوة الحق المغربية، العدد (273)، مقالة الدولة العلوية المغربية
النشأة والاستقرار والاستمرار، بقلم محمد العربي الشاووش.

(2) مفردة (خنث) في اللغة، والانتخاب: الثنّي والتّكسّر، وهي صفة محبّبة عند
الإناث، والخنث من كان فيه تكسّر ولّيونة، واسم خناثة شائع ومحبّب عند
أكابر الناس في الدولة المغاربية.

(3) الأعلام (2/ 324).

السلطان إسماعيل فتروجها، وهي من أسرة نبيلة من إقليم الساقية الحمراء⁽¹⁾.

وكان زواج السلطان بها سنة 1678 م⁽²⁾، بعد زيارته لإقليم شنقيط، في موريتانيا.

وقد استطاعت خناثة أن تميز وسط البلاط العلوي بحظوظها العلمية والفقهية وبنسبتها المغافري، الذي تنحدر منه -أيضاً- أم السلطان إسماعيل «للا مباركة»، فتشربت تربة القصر، وفيه تعلمت وثقفت، فأعطت بثقافتها وسمو فكرها مثلاً صادقاً لنبوغ المرأة المسلمة، بمشاركتها في الحياة الثقافية والاجتماعية إلى جانب زوجها الذي كان يعتمد رأيها ومشورتها ويخصها بمزيد من الاعتزاز والتقدير⁽³⁾.

لقد حفظت القرآن العظيم على أرائك القصر الملكي، على اللوح الخشبي الشهير الذي كان الحفاظ يكتبون عليه القرآن بأيديهم ويحفظونه من خالله، حتى أتت حفظه، غير مكتفية

(1) معلمة الصحراء (ص 57، 98، 197، 200)، عبد العزيز بن عبد الله.

(2) الأعلام (2/324).

(3) مجلة دعوة الحق المغربية، العدد (273).

بحفظه بل جمعت إليه القراءات السبع.

ثم تعلّمت الفقه وتأهّلت للفتوى، وتعلّمت الأدب وبرعت فيه، وطلبت الحديث فعرفت بالإسناد، وإلى جوار هذا كانت صاححة عابدة.

حجّت الأميرة العالمة سنة (1143هـ)، فسئلّت في البلد الحرام عن حكم تملّك العقار في مكة!

فأفتت بجواز ذلك، وحرّر لها الوزير أبو محمد عبد القادر الجيلاني الإسحاقى فتوى بذلك، بطلب منها.

وفي هذه الحجّة قامت بكثير من أعمال الخير والبر والإحسان أقامتها بالبقاع المقدّسة، فاشترت داراً بمكة ووقفتها على طلبة القرآن ومن يدرس صحيح البخاري، غير ما تصدقّت به على طلاب العلم والقراء والمساكين في بلاد الحرمين وأهل الحجّ، قيل: أنفقت في حجّتها تلك (100.000) دينار⁽¹⁾.

وغير ذلك، فقد استثمرت رحلتها إلى الحجاز خير استثمار خدمة لمشروعها السياسي الكبير، الذي كان يستهدف إخراج

(1) الاستقصا (7/58).

المغرب من عنق الزجاجة، وإعادة الأمان والاستقرار إلى ربوعه باستئصال بذور الفتنة والشقاق، وجمع الكلمة على بيعة السلطان المولى عبد الله.

وقد سجل الإسحاقي في رحلتها تلك ما يبين الدور الذي قامت به السيدة المباركة، والذي يمكن تلخيصه في العناصر الآتية:

- حفاوة الاستقبالات الشعبية والرسمية لموكب الأميرة خناثة.

- توسطها في حل الخلافات بين بعض القبائل والسلطة الحاكمة.

- عطفها على الفقراء والأشراف والعلماء⁽¹⁾.

ولما رأى السلطان إسماعيل عظيم همة زوجه في طلب العلم، وأدرك نباهتها وذكاءها وجدها في التحصيل أعنانها لبلوغ غايتها، ففرغها للعلم، وجمع لها من يعينها على ذلك، قال أبو القاسم الزيافي في كتابه «المنزع اللطيف»: «لما أدرك السلطان نباهة وذكاء

(1) الاستقصا (7/58).

زوجته خناثة جعلها في عزلة... وأوقف لها خيرة المدرسين والمعلمين، ففوقت على نساء عصرها».

وقد عرفت للأميرة العالمة تصانيف وتأليف، منها: تعليقات على كتاب الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، وهي محفوظة في الخزانة الملكية بالرباط.

ومن ثم كانت على معرفة بأقدار العلماء، مما جعلها تسعى في نجاة العالم، الفقيه، المفسر: «عمر لوتش التطاواني»⁽¹⁾، وكان قد سجن إثر وشایة بعض المكتناسين، فتقدّمت فيه لولدها السلطان عبد الله، فعفا عنه.

وقد شكلت - خلال ذلك - ملاذاً لأهل الفضل والحياء، من «يأنفون التزاحم على أبواب الملوك، فكانوا يهربون إليها؛ لتشفع لهم في الملمات وقضاء المهمات».

ونظراً لما كان لأم عبد الله بن إسماعيل، وجلة السلطان المصلح محمد بن عبد الله (1171هـ-1204هـ)، من استعداد وقدرة على التجاوب مع قضياتهم، فقد كانت ألسنة أهل الفضل والحياء

(1) ت (1149هـ)، انظر ترجمته في «معجم المفسرين بتطوان»، للدكتور قطب الريسيوني.

«تطلق لشكرها والدعاء لها».

ونستنتج مما ذكرنا وما أشار إليه الكتاب النا布ون⁽¹⁾ أن خناثة إنما كانت نموذجاً لما كانت عليه المرأة المسلمة - في ذلك الزمان وما بعده - من ثقافة عربية أصيلة ونشاط اجتماعي ملحوظ⁽²⁾.

وليس العلم بالعجب ولا الغريب من الشناقطة، وهم هم!



ولهذه العالمة الوزيرة، في تاريخ المغرب، أدوار سياسية كبيرة، فقد كانت «خناثة» مستشار زوجها السلطان إسماعيل، وكان «يعهد لها بتحرير الرسائل التي يخفي أسرارها عن كتابه»، فكانت بذلك مشاركة له في تدبير أمور الدولة، وملمة بالكثير من خبايا الحكم.

وكانت موضع ثقة السلطان إسماعيل الذي كان يستشيرها في أمور الحكم ويطلب رأيها في القضايا المستعصية، فتشير عليه بالرأي السديد والتدبير الحكيم، مما أكسبها خبرة وحنكة كبيرة في أمور

(1) منهم: عبد الرحمن ابن زيدان في إتحاف أعلام الناس ج 3، وعبد الله كنون في النبوغ المغربي ج 1، وعبد الهادي التازي في: جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، والناصري في: الاستقصاص ج 7 وسماها حناثي.

(2) مجلة دعوة الحق المغربية، العدد (273).

السياسة والحكم، ساهمت بهما في تثبيت الحكم⁽¹⁾.

وهي أول امرأة تتولى الوزارة في المغرب، كان ذلك إثر وفاة السلطان إسماعيل؛ سيما الفترة التي حكم فيها ابنها السلطان عبد الله، فقد ذكرها المؤرخون بأنها أعظم أميرة أدارت الحكم وخدمت الشعب.

وقد عرفها المغرب سياسية محنكة وعالمة فقيهة شجاعة إبان أزمة الثلاثين سنة التي عاشتها إثر وفاة زوجها السلطان إسماعيل وسقوط حكم ابنها عبد الله وكان ذلك ما بين (1757 و 1727 م)، فخبرت حياة السجن هي وحفيدها محمد بن عبد الله. فما إن آلت البيعة لأبي الحسن علي بن المولى إسماعيل بمكنا، حتى «قبض عليها وعلى حفيدها وسجينها»، وجردها من ممتلكاتها.

لكن إرادة التحدي والقدرة على المواجهة، اللتين ظلتا سمتين بارزتين في حياتها، رغم كبر سنها، لم تدعها لاستسلام أو ضعف «بعثت للعلماء تطلب الشريعة... وطلبت منهم أن يتكلموا للعلماء بشأن حفيدها... على أن يخرجها من السجن لأنها امرأة مسنة، واتّقت أن يكتشف عليها من أجل الضيق، وذكرت أيضًا أن

(1) الاستقصا (7/ 58).

حفيدها المذكور صغير السن، وما فعل ذنباً يستحق عليه العقوبة والسجن والضيق... ثم بعد ذلك تكلموا مع السلطان مولاي علي الأعرج على ذلك، فسرح حفيدها المذكور من السجن».

وهكذا نراها في هذا الموقف سياسية تبحث عن المخرج من الأزمة وتسعى في فكاك نفسها من قبضة الأسر، وأيضاً نراها عالمة فقيهة تسوق الحجج التي يسلم لها الخصم ويساندتها في الاستجابة لطلبه المعاون والمساعد، وقد تمّ لها ما رامت.

وقد تحدّث الإسحاقى مبيناً مكانتها فكتب يقول: «فما نعلم واحدة من الحرائر التي دخلت دار الخلافة من أزواج السلطان إسماعيل، رَحْمَةُ اللهِ، تشبه هذه السيدة ولا تدانيها همة وصيانة وعفافاً ورزانة وحصانة عقل ومتانة دين، فهي من المسلمات المؤمنات القانتات المستجمعات للأوصاف التي أعد الله لهن عليها مغفرة وأجرًا عظيماً، وكان لها كلام ورأي وتدبير مع مولانا أمير المؤمنين رَحْمَةُ اللهِ، ومشاورة في بعض أمور الرعية، وكانت له وزيرة صدق وبطانة خير، تأمره بالخير وتحرضه عليه، وتتوسط في حوائج الناس، ويقصد بابها أهل الحياة والمحشمة وذوو الحاجات، وكانت في ذلك ركناً من الأركان، جزها الله بالخير، ومع كثرة مبادرتها للسلطان أمير المؤمنين رَحْمَةُ اللهِ واتصالها به، لم ترزق معه من الولد

إلا مولانا السلطان أمير المؤمنين نصره الله⁽¹⁾.



توفيت العالمة الفقيهة والمستشاررة الوزيرة «خنانة بنت بكار»
-رحمه الله عليها- عام (1159هـ / 1730 م)، ودفعت بروضة
الأشراف، في المدينة البيضاء، بفاس الجديد⁽²⁾.



لا يزال اسم «خنانة» شائعاً في البلاد المغاربية كلها، ويعني
اللّذنة التي تتطوى وتتكسر في مشيتها.



.(1) الاستقصا (7/58).

(2) للاستزادة من أخبارها: «المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي»، تأليف عبد
الهادى التازى، «الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي»،
أحمد أمين العمرانى، «المرأة الأمازيغية عبر التاريخ»، مقال منشور بجريدة
بيان اليوم 9/23/2005م، النسخة المخطوطة من كتاب الإصابة التي
تتضمن تعليقات السيدة خنانة بنت البكار، توجد بالخزانة الحسينية تحت رقم
5932، «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية»، محمد
الأخضر.



عثمان بن فوادي

ال الخليفة العالم ..

مجد الدين في

القرن الثالث عشر

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

عثمان بن فودي
الخليفة العالم ..
مجد الدين في القرن الثالث عشر

التمكين في الأرض وعد الله للمؤمنين، وحنين المؤمنين إلى
هذا التمكين وسعيهم إلى تحقيقه لا ينقطع، كيف لا، وهو حلم
يراود خيال كلّ عامل للإسلام في كلّ زمان ومكان؟
ومنذ قرن أو يزيد من الزمان سقطت آخر خلافة جامعة
للمسلمين - وهي خلافة بنى عثمان -، وقد ظنّ الناس أن سقوطها
سقوط لآخر دول الإسلام الممكّنة، العاملة بالخلافة، المقيمة
للسريعة، الرافعية للواء الجهاد في سبيل الله لنصرة هذا الدين!
وقد اتخذ أعداء الإسلام سقوط الخلافة العثمانية ذريعة
لغراس أفكار خبيثة في عقول الأجيال المسلمة بطرق شتى، وأعظم
هذه الأفكار خطراً إشاعةً أن التمكين قد صار بعيد المنال أو هو
مستحيل، وأن التفكير في إقامة خلافة مسلمة جامعة هو أمر ينبغي
أن يكون ميؤساً منه من قبل المسلمين!
وبالفعل فقد تأثرت جماهير المسلمين بهذه الأفكار، بل ربما

تأثر بها بعض العاملين للإسلام، سيما بعد تلك المحاولات الكثيرة
–النظرية والعملية– التي بذلت لعودة الخلافة العثمانية ولم تفلح في
تحقيق شيء!

لكن لا تلبث هذه الأوهام أن تتبدّد فتتجدد الآمال، وذلك
حين تثمر بعض الجهود المسلمة في إقامة دولة أو إمارة إسلامية
تقيم نظام الإسلام هنا أو هناك، وقد حدث هذا كثيراً في العصر
الحديث، لكن المؤسف أن معظم المسلمين وربما كثير من العاملين
للإسلام الراجين لتمكينه لم يسمعوا بهذه الدول أو الإمارات.

وحين يثبت عملياً في أرض الواقع أنّ دولة إسلامية صغيرة
ناشئة قد صار لها عز وتمكين في أرض الله، حتى بات أعداؤها
يخشونها ويعملون لها ألف حساب، بل حين تحقق هذه الدولة
الناشئة على هؤلاء الأعداء –الذين ظنهم المسلمون أقوىاء لا
يقهرون– انتصاراً هي أشبه شيء بالمعجزات وخارق العادات:
إن هذا الأشد أثراً وأصدق نبأ في إقناع القلوب والعقول المؤمنة أنّ
التمكين للإسلام ممكن، وأن الحلم به جائز بل واجب، وأن السعي
في سبيل تحقيقه فرض وحتم، وأن الجهود المبذولة في سبيله لا

تضييع عبّا، وإنما هي جهاد، بل أعظم المجاهد!

وقد شعّ هذا الأمل مع نشأة الدولة الإسلامية التي أقامها الإمامان محمد بن سعود و محمد بن عبد الوهاب، وتم خضت عن قيام دولة للإسلام في الجزيرة العربية⁽¹⁾، ثم اشتد هذا الأمل وقوى حين قامت إمارة إسلامية عظيمة على يد الأمير المجاهد والبطل الكبير عبد الكريم الخطابي، هذه الإمارة الناشئة التي لو بقيت لغيرت مسار التاريخ!

وكان هذا من وقت قريب إلى منتصف سنة ١٩٢٦ م⁽²⁾.

ولن تخبو تلك الآمال، ولن تنقطع تلك المحاولات لتحقيق وعد الله أبداً، لما علم المسلمون من ضرورة وجوده وضرورة تحقيقه.

إن للخلافة في حياة الأمة أثراً لا يقوم إلا بها، وبها حاجة لا تسد إلا من خلاها، وعليها دور لا يؤدى من دونها، لذلك كانت انتصارات الإسلام، وقمة عزه وسموّه، ورفعه جنابه وعلوّه،

(1) راجع كتاب محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره، تأليف الدكتور عبدالله الصالح العثيمين، دار العلوم الرياض.

(2) راجع في سيرته: مائة من عظماء الإسلام غيروا مجرى التاريخ (ص ١٦ - ٢٢) جهاد الترباني، ط. التقوى.

وحفظ مكانته وعزته، حين كان يصبح ويُضحي، ويُمسي ويُبَيِّت، تظلله رأية الخلافة الخفافة، وبها خضع له كل شبر أحرزه من أرض المعمورة، وما ضاع ما أحرزه الأُسُلُوف -في ظل الخلافة- على أيدي الأخلاف إلا يوم أضاعوا قبل ذلك رأية الخلافة، فتفرق شملهم، وتشرد ملتهم وحدتهم، وأمسوا لقمة ساعنة لعدوهم؛ إذ انفصمت عروتهم التي كانوا بها يعزون، ووحدتهم التي كانوا بها إيهاد يقهرون.

والاليوم والأمة لا زالت تسام من أولي الذلة والمسكنة ومن كتب الله عليهم الخسار والبوار وسوء العذاب، وتضرب من أحسن الناس على أم رأسها بالنعال، وأصبح حالها شر حال، إن أرادت الخروج من هذه الصحراء المهلكة، وأرادت أن تستظل من لفح الهاجرة القاتل، وأن تصل إلى نهاية الطريق الذي أرهقها فيه طول المشي في التيه والظلم، فلا خلاص لها من ذلك أجمعه إلا برفع رأية الخلافة من جديد، لتجتمع الأمة تحت لوائها، وتستعصم بحبل ربها تحت رايتها، لتعود إليها من جديد سالف انتصاراتها وماضي عزها ومجدها.

ألا قد آن للأمة أن تفيق وتستيقظ من هذا السبات العميق

ولتعرف الأمة حجم الأزمة التي تعيش، والمهانة التي تحيا، والذل الذي تُسام، ولتعمل في ابتداء طريقها ونهايته على إقامة الخلافة التي أضاعتها فضاعت، وفرطت فيها فانفرط عقدها، وفي السطور التالية نلتقي مع شخصية عظيمة فريدة حققت ذلك الأمل في يوم من الأيام، وطول قرن من الزمان، حين أنشأت خلافة إسلامية في قلب أفريقيا أعادت للإسلام حيويته وجددت شبابه، ربها لا يعرفها كثير من المسلمين ولا يسمعون بها!

هل يعرفون أن خلافة راشدة على منهاج النبوة قامت في أفريقيا في أواخر القرن (19)، واستمرت إلى القرن الـ (20)، حتى أسقطها الإنجليز سنة (1903م)، بعد أن حكمت (100) عام، وقد عاش الناس خلالها قرناً يشبه القرن الأول بعد رسول الله ﷺ، في حكم مثل حكم خلفائه الراشدين؟

وقد عرفت باسم «مملكة سوكوتو الإسلامية»، وكان مقرها بلاد الموسا «نيجيريا»، وكانت دولتها تلك دولة ضخمة، مساحتها تقربياً (150) ألف ميل، وتضم (30) ولاية، وسكنها قرابة عشرين مليوناً !!

وكان إنشاؤها وقيامها على يد خليفة عالم، عرف بالزهد

والورع وألف مؤلفات علمية عظيمة لا زالت الأمة الإفريقية
تنتفع بها حتى الآن!

فما هو نبأ هذا الخليفة العالم؟

هذا الخليفة العظيم الذي أنشأ هذه الدولة هو أمير المؤمنين
الإمام الرباني شيخ الإسلام «عثمان بن فودي» رَحْمَةُ اللَّهِ

ولد عثمان في قرية (طقل)، وهي قرية تابعة لمملكة (غوبير)،
وتقع اليوم شمال نيجيريا، وذلك في حوالي عام (1169 هـ الموافق
1754 م).

نشأ الشيخ عثمان في أسرة متدينة تميزت بثقافة علمية عالية،
وحين نظر في شيوخه نجد معظمهم كانوا بين الآباء والأجداد
والأعمام، فوالده الشيخ محمد فودي - وكلمة فودي تعني الفقيه -
هو الذي علمه القرآن الكريم، إلى جوار والدته حواء بنت محمد بن
عثمان، وجدته رقية بنت العالم محمد بن سعد.

وأخذ عن عمه وخاله الشيخ عثمان المعروف بيدور بن الأمين
بن عثمان في الفقه المالكي.

وعن عمه الشيخ الحاج محمد بن راج بن مودب أخذ علم الحديث.

وهناك معلمون وشيوخ كثرا غيرهم⁽¹⁾.

ولعلنا نخص بالذكر من بين هؤلاء الشيخ شيخاً كان عظيم الأثر فيه؛ تعليماً وتربيه، ثم تأييداً ومساندة، ذلك الشيخ العظيم الأثر في حياة الإمام عثمان هو الشيخ الفاضل جبريل بن عمر، شيخ شيوخ زمانه، وأهمّ أستاذة الإمام عثمان بن فودي على الإطلاق؛ إذ قام الشيخ جبريل بواجبه تجاه تلميذه عثمان مرّتين: الأولى عندما قَدَّم لعثمان علوماً مفيدة ساهمت في تكوين شخصيّته العلمية والسياسيّة، والثانية عندما كان أول منْ بايعه على الجهاد في سبيل نشر الإسلام في تلك المنطقة، واعترف له بالولاية وعقد له الرأية.

وفي المقابل لم يكن عثمان أقلّ سموّاً من معلميه؛ فقد كان يُرَدِّد

بشكل دائم هذا البيت من الشعر:
إن قيل في بحسن الظن ما قيل

فموجة أنا من أمواج جبريلا⁽²⁾

(1) إنفاق الميسور (ص 34) للشيخ محمد بللو.

(2) راجع: التاريخ الإسلامي، (ج 8)، محمود شاكر.

وإن كان ذلك لم يمنع التلميذ أن يرد بعض غلوّ شيخه في
التكفير حين رأى في كتبه وكلامه بعض الشطط⁽¹⁾!

كان عثمان -منذ صغره- مشتغلًا بالدعوة إلى الله، معروفاً
بالجد والاجتهاد، صلباً في الدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم
بالقسط والعدل ولو في القربي، لا تأخذه حمية الجاهية، بل لا يزيغ
عن الحق.

وقد رأى الشيخ عثمان في أثناء جولاته الدعوية مظاهر ساءه
أن توجد في بلاده كانتشار الفسق والجهل، وابتعاد عامة المسلمين
عن تعاليم الدين الحقيقة؛ بل وقف بنفسه على أنواع من الكفر
والعصيان على أمور فظيعة، وأحوال شنيعة، حتى لا يكاد يوجد
فيها من صحّ إيهانه إلا النادر القليل، ولا يوجد في غالبيها من يعرف
التوحيد ويحسن العبادات⁽²⁾.

فقام الشيخ يجدد الدين في قلوب الناس ويسعى لإرشادهم
إلى طاعة الله تعالى، بتصحيح عقائدهم، وتعليمهم أصول وأحكام
دينهم، وهدم العادات الرديئة، وإخناد البدع الشيطانية، وإحياء

(1) عظام منسيون (ص 40) لفضيلة الدكتور محمد موسى الشريف.

(2) انظر: تزيين الورقات (ص 33) عبدالله بن فوديyo.

السنة المحمدية، وفي ظل هذه الخلافة أصبح الإسلام هو القوة السياسية العليا في نيجيريا، وتم تطبيق الشريعة في أنحاء السلطنة، فسارع إليه الناس، وجعلوا يدخلون في الإسلام أفواجاً.

وقد كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ صَبُورًا لَا يضجر ولا يسام، مع أنَّ كثيراً من مدعويه كان من العوام وربما أوذى منهم أذى شديداً. كما أنه ما كان يستحيي من أحد في الحق، وإن كانوا شيئاً جلة أو علماء حسدة، بل يتكلم ويوجه الجميع إلى الحق! وكان يعقد مجلسين للعلم؛ أحدهما للتدريس والآخر للوعظ والإرشاد.

فأما مجلس التدريس، فكان يقوم فيه بتفسير القرآن الكريم وبث علوم الحديث والفقه والتصوف وغيرها، وذلك يومياً بعد صلاتي العصر والعشاء.

وأما مجلس الوعظ والإرشاد، فإنه كان يخرج له ليلة كل جمعة، أو في بعض الليالي، وكان يحضره جمٌّ غفير؛ رجالاً ونساء، وكان كثيراً ما يخرج إلى القرى القريبة والبلدان المجاورة ويمكث فيها أيامًا أو شهوراً ثم يرجع إلى قريته⁽¹⁾.

(1) انظر: الإسلام في نيجيريا، (ص 104-105) آدم عبد الله الإلوري.

وقد كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ متصوّفاً، صاحب دعوة نقية، كثير الحث على اتباع السنة واجتناب البدعة، وقد شغلت الدعوة كل حياته؛ إذ قضاها جميعها في الجهاد العلمي والعملي، أما الجهاد العلمي فقد استولى عليه في الغالب شيئاً أساسياً: التحذير من الغلو في التكفير لدى طائفة من المسلمين، وإخناد البدع والخرافات الشيطانية لدى العوام والفرق الصوفية، إضافة إلى اشتغاله ببث العلوم الشرعية، وتحرير المشكلات فيها.

وبذلك كانت أصول دعوة الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تقوم على أهداف أساسية عظمى هي العوامل الرئيسة لكل دعوة إصلاحية صادقة، والمنهج الذي يجب أن يتبعه كل أمر بالمعروف وناء عن المنكر.

وقد اهتم الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ بتعليم أولاده؛ ذكوراً وبنات، ويدرك التاريخ أولاده العلماء النابحين الذين نبغوا في العلوم، كما يذكر ابنته «نانا أسماء» فقد حفظت القرآن، وكانت عالمة ومؤلفة، ترجمت أعمالها إلى عدة لغات، وتدرّس سيرتها في الجامعات الغربية كمثال عظيم للمرأة الإفريقية المسلمة، وكانت أيضاً شاعرة، وكاتبة!



ظلَّ الشَّيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى حَالِهِ تِلْكَ فِي الدُّعَوَةِ وَكَانَتْ دُعَوَتِهِ تَصِلُّ إِلَى الْبَلَادِ الَّتِي تَجَاوِرُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَكَانَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَيَتَرَكُونَ دِينَهُمُ الَّذِي نَشَأُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ زَارَ فِي سَنِّ مِبْكَرٍ مَدِينَةً «أَغَادِيز» الصَّحْرَاوِيَّةَ فَاسْتَقْبَلَهُ سُلْطَانُهَا اسْتِقْبَالًا حَارِّاً وَبَقَيَ فِيهَا لِلْدِرَاسَةِ بَضْعَ سَنِّينَ، وَأَثْنَاءَ عُودَتِهِ مِنْ أَغَادِيزِ اسْتَقْبَلَهُ مَلِكُ «غُوبِير» وَعَاشَ هُنَاكَ أَيْضًا بَضْعَ سَنِّينَ فِي ضِيَافَةِ الْمَلِكِ، وَعَمِلَ مَعْلِمًا لِأَبْنَاءِ الْبَيْتِ الْمُلْكِيِّ، وَكَانَ عَلَى عَلَاقَةِ طَبِيعَتِهِمْ، غَيْرَ أَنْ ذَلِكَ الْمَلِكَ مَاتَ وَوَلَّ مَكَانَهُ ابْنَهُ الْأَكْبَرَ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى دِينِ بَلْ إِنَّهُ ارْتَدَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَاخْتَارَ دِينَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ آبَائِهِ، وَعَمِلَ عَلَى وَقْفِ انتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَأَعْطَى أَوْامِرَهُ بِأَنْ يَمْنَعَ مِنْ يُولَدُونَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ بِالدُّخُولِ فِيهِ، وَفَرِضَ عَلَى كُلِّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ⁽¹⁾.

وَحَرَمَ هَذَا الْمَلِكُ وَاسْمُهُ «نَفَاتَا» عَلَى الرِّجَالِ أَنْ يَعْتَمِّوا، وَعَلَى النِّسَاءِ أَنْ يَغْطِيْنَ وَجْهَهُنَّ!

فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيخِ عُثْمَانَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ رَفَضَ ذَلِكَ كُلَّهُ،

(1) حركة الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي (ص 21) أحمد محمد كاني.

وقف راجعاً إلى قريته «دِغْل» رافضاً كفر نفata.

ونتيجة ذلك فرض عليه هذا الملك الكافر حكم الإقامة الجبرية، ولم يلبث ذلك الوضع إلا قليلاً حتى هلك ذلك الكافر وولي بعده ابنه وكان على دين أبيه، ثم هلك هو الآخر وجاء ملك آخر اسمه «يونفا»، وكان تلميذاً للشيخ عثمان، فما إن ولي الملك حتى قام بزيارة خاصة لقرية دِغْل؛ ليحيي معلمه الكريم!

وقد تشجّع الشيخ عثمان بهذه الزيارة فبدأ من وقتها يجوب البلاد داعياً إلى الحق؛ يحث الناس على الالتزام بتعاليم الإسلام وقوبلت دعوته بنجاح واسع، سيماء بين رجال قبيلته، وبسرعة تجمّعت حوله عصابة صغيرة من المتحمّسين الذين تعلقوا بكلّاته واعتبروه رئيسهم.

ومع زيادة أعدادهم بدأ «يونفا» -على محبته الشيخ وعرفانه بجميله- يشعر بالخطر من جراء نمو حركته، وتزايد شعوره هذا بحادث يبيّن له مدى القوة التي وصل إليها شيخه عثمان حين اعترض الشيخ على الملك بشأن أسره بعض المسلمين واعتبارهم رقيقاً، وقام الشيخ بنفسه إلى فك وثاقهم، مسائلاً الملك وجنته: «بأي حق جعلتم مِن هؤلاء المسلمين عبيداً؟»

وبسبب ذلك أراد الملك أن يقتل الشيخ عثمان، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك، ولا على أن يفرده من بين الناس فأرسله -مكرّماً في الظاهر- إلى دغل، وبعدها أعطى أوامر سرية بذبح كل الفولانيين -قبيلة الشيخ- في مملكته.

لكن ذلك السر تسرّب فوراً، وأنذر به الشيخ وأتباعه فهربوا إلى «غودو» حيث التف حوله الفولانيون كواحد من أفضل جنسهم، وهناك أعلن أنه لن يختفي وأنه سيواجه الموت وأنه سيواجه الملك وجنته، وكذلك دعا الملك «يونفا» قادة جيشه لحمل السلاح، وفي 1804 م التقى الجيشان وكان النصر حليف الشيخ وجنته وذاق الملك هزيمة نكراء، ومن وقتها اختار الفولانيون الشيخ عثمان قائداً لهم وجعلوه «أمير المؤمنين»، وظل يحمل هذا اللقب ويحمله كل سلطان لخلافة سوكوتو يأتي من بعده⁽¹⁾.

وكان هذا النصر فاتحة انتصارات عظيمة تلته، إذ مكّن للشيخ وأتباعه في الأرض، فانطلقا يفتحون البلاد المشركة وينخضونها للإسلام وينشرون العدل في الناس ويؤمنون حياتهم وحدودهم حتى دانت لهم كل ولايات الهاوسا، وعاش العالم الجليل طويلاً

(1) إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (ص 96) محمد بيللو.

ليرى نتيجة عمل حياته، وليرى رأية الإسلام التي عمل تحتها ترتفع
عالية خفاقة بفضل سعيه وجده، فلقد كان - كما يشهد مؤرخو
عصره - مخلصاً في إيمانه، صاحب اعتقاد قوي، وثقة لا يعترها
شك، وشخصية أثرت في أتباعه حتى إنهم ورثوها.

وبهذه الصفات الإسلامية نجح الإمام عثمان بن فودي في بناء
قاعدة عريضة من المجاهدين والقادة والأمراء الذين قادوا الأمة
ال المسلمة في قلب أفريقيا، وأقاموا أعظم الممالك الإسلامية في هذه
البقعة الغامضة عن ذهن أبناء المسلمين الآن.

وقد كان أمير المؤمنين عثمان بن فودي رَحْمَةُ اللهِ يعيش عيشة
عادية بسيطة زاهدة جدًا، إذا ما قورنت بحياة الحكام الوضعين
البرايرة المتأثرة بمظاهر الدنيا وإغراءات المنصب والسلطان.
وكان الخليفة العالم متواضعاً غاية التواضع، وكان شديد
الإيمان يرجع الأمر في كل انتصاراته ونجاحاته إلى الله، ولا ينسب
إلى نفسه من الأمر أي شيء!

وقد ظل في كرسي الملك حتى إذا اطمأن على سير الأمور في
ملكته أوكل إلى ابنه الملكة واعتزل أعمالها، وسخر نفسه لحياة
العلم والدراسة في مدن المملكة إلى أن مات رَحْمَةُ اللهِ في سنة

(1233هـ/1818م)، وما زال قبره مثابة، معروفاً، يؤمّه الناس للزيارة⁽¹⁾.

وبقيت امبراطوريته مائة سنة، حتى احتلت القوات البريطانية البلاد وأسقطت الخلافة، وكانت قد ضعفت في أواخرها ضعفاً شديداً.

لكن بقيت فيها قلوب حيّة، مجاهدة، تقاوم الأعداء، وتحافظ على دينها وعزّتها، فترة طويلة، بل لقد أصبحت (الدولة الفودية) الإسلامية في جسم الأمة المسلمة في شمال نيجيريا محرّكاً قوياً يوّقظها كلّ مرّة اعترتها خلاّلها غفوّة الزّمن وأخذها سبات الغفلة⁽²⁾.

وهكذا إن كان «كثير من الكتاب والمؤرخين يرون القرن التاسع عشر عصر انحطاط فإن هذه العبارة إن صحت من الناحية العلمية على قلب العالم الإسلامي وأطراوه الشرقيه والجنوبية والشمالية، إلا أنها لا تنسحب على ما يتعلّق ببلاد السودان الأوسط

(1) للاستزادة من حياة هذا الإمام العظيم والتعرّف على دعوته ودولته، راجع: الإسلام في نيجيريا ودور الشيخ عثمان بن فودي في ترسّيخته، تأليف محمد لواء الدين أحمد، وإنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، للأمير محمد بيلوبن عثمان السوداني الفولاني، وغيرهما.

(2) الشيخ عثمان بن فودي والطريق لاستعادة الهوية، مقال بقلم د. محمد الثاني عمر موسى.

والغربي، أو ما اصطلح عليه جغرافياً في الآونة الأخيرة (غرب أفريقيا)، فهذا القطر من العالم قد شهد في أوقات متعددة قيام عديد من مالك حكمت شعوبها باسم الإسلام، وأقامت نظم حكمها على أسسه ومبادئه وتعاليمه، ومن بين هذه المالك (ملكة سوكوتوا الإسلامية) في القرن التاسع عشر الميلادي، فقد قاد هذه الخلافة رجل اتسم بكل معاني الشهامة والشجاعة مع الدين والورع والتقوى، وقام بمحاربة الفساد العقدي والسلوكي والسياسي، وواجه عدداً من المشكلات التي يعيشها مجتمع بلاد (الموسا) آنذاك.

وسواء صح ما قيل من أنّ السلطان عثمان بن فودي تأثر بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب⁽¹⁾، وأن هنالك وجوهاً كثيرة للتلاقي بين دعوتيهما، أو لم يصح، فإن شيخ الإسلام عثمان بن فودي يظلّ مجدداً من مجددي الإسلام في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وتظل خلافته التي تبنت الحكم بما أنزل الله، وإقامة شرائعه، والدعوة إلى الاجتهاد، ورفض التقليد،

(1) انظر بحث ذلك في كتاب: أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب أفريقيا، مصطفى مسعد، مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

والتمسك بثوابت الإسلام ومحاربة البدع؛ خلافة راشدة على منهاج النبوة، لقد كانت دعوته ودولته رحمة من الله تعالى بالأمة المسلمة بأفريقيا، ونصرة عظيمة للإسلام والمسلمين إذا نظرنا إلى الجهود التي قامت بها لخدمة الدين والأمة في أفريقيا، من بعد ما زاغ قلوب فريق كبير من الناس عن الإسلام وتمسك آخرون به اسماً فقط ولم يكن بأيديهم منه -في الحقيقة- شيء.

ومن الآثار التي تركتها دعوة الإمام عثمان رَحْمَةُ اللَّهِ وَدُولَتُه:

١- القضاء على الوثنية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي، وهذا إنجاز ضخم جدًا.

٢- أعادت كثيراً من الناس إلى حظيرة الشرع والالتزام بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً، وقضت على كثير من البدع.

٣- أنشأت دولة قوية متaramية الأطراف يهاها أعداء الإسلام، واستمرت شامخة (100) عام بين (1803-1903)، ووضع لها دستوراً محكماً قوياً.

٤- أنتجت نتاجاً ثقافياً ضخماً، فقد ترك خليفتها الشيخ عثمان فودي وحده (140) مؤلفاً تقريباً في الجوانب العقدية والسياسية والاقتصادية والفقهية وغيرها، وخرج على يديه (100) عالم مجتهد

في المذهب المالكي، وهذا عمل عظيم على كثرة مشاغله وتشعب اهتماماته.

٥- ضبط مسألة الغلو في التكفير، وقد ألف هذا الخليفة حسين مؤلفاً تقريرياً في الرد على من ذهب إلى التكفير بالعصبية^(١).
نحن أمة لها أمجاد... لكنها أمجاد مجهولة، أو أقول: لكتننا أمة جاهلة بأمجادها!

ذلكم هو أمير المؤمنين عثمان بن فودي الذي يجهله كثير من المشارقة والمعاربة، لكنه في أعين ملايين كثيرة من سكان السودان الغربي يُعدّ بطلاً قومياً وقائداً روحيّاً يأتي -عندهم- بعد النبي محمد نفسه، وما تزال ذكراه تمثّل لهم دافعاً قوياً للعمل على حرية بلادهم ورفعتها حتى إنهم في نيجيريا منذ يونيو 2004م ابتدأوا الاحتفال بالذكرى الـ200 لميلاد «خلافة سوكوتو» وزعيمها الخالد الذكر العالم عثمان بن فودي، رَحْمَةُ اللهِ، وجزاه الله عما قدّم للإسلام والمسلمين خير الجزاء، ورزق المسلمين في هذا العصر أمثاله.

(١) انظر: عظماء منسيون (ص 39، 40).



صَيْقَ حَسَّلَنْ خَانْ

بَرِ الأَقْطَارِ الْهَنْدِيَّةِ .

مَلَكًا وَعَلَمًا

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

صديق حسن خان بدر الأقطار الهندية .. ملكاً وعلماء

من هذا الملك العالم الذي جلس على كرسي الملك يدير ويسوس، ويقضي شطراً كبيراً من وقته في فصل الخصومات وسماع النزاعات وإصدار الأحكام، ومع هذا كله أقبل على العلم درساً واطلاعاً وتأليفاً وتصنيفاً، بجد دائم ودأب متواصل، فلم تشغله السياسة والإدارة عن الدرس والتأليف؟

من هذا الملك العالم الذي تدرج في أعمال الملكية؛ كاتباً ومحرراً، ثم وزيراً، ثم نائباً للوزراء، ثم جلس مجلس الملك، وهو - إلى جوار ذلك - عالمة محقق، وأديب شاعر، وصاحب تصانيف وتأليف ذاتعة مشهورة؟

إن ذلكم الأمير الملك والعلامة المحقق هو «صديق حسن خان»، صاحب «الروضة الندية» و«الدين الخالص»، وغيرها من المؤلفات التي تربو على المائتين.

إنه الرجل الذي وظف بحبوحة العيش وجهود الدولة في خدمة العلم وأهله، واستفاد - بثاقب فكره - من هذه النعم؛

لتحقيق هدفه السامي وغايته الغالية، ليس العلم فحسب، بل
العلم والعمل وإصلاح دنيا الناس بدین الله!

أول مرة طرأ فيها ذكر العلامة «صديق حسن خان» سمعي؛
حسبته عالماً من علماء القرون الأولى في الإسلام، ثم لم ألبث أن
اكتشفت أنّ فضيلته ما غادر الحياة تاركاً دنياناً إلا منذ قرن واحد
من الزمان!

فلما اطلعت على كتبه وقرأت آثاره عدت إلى الشك في التاريخ
الذي قرأته في ترجمته؛ إذ أذهلني أن يكون لأحد من المؤخرين ذلك
الإنتاج في التصنيف؛ كثرة، وتحريراً، وجودة، وتنوعاً، وطرافة، مع
علوّ كعب في العلم والمعرفة، وسعة اطلاع على الألسن والثقافات،
مع ميزات أخرى لا تحصى!

ثم ازداد ذهولي وعظم انبهاري حين تتبع سيرته، فإذا رجل
كنت حسبته -لإنتاجه هذا- عاكفاً في دارٍ أو كوخٍ على التأليف
والتصنيف، ليس له من هم إلا هذا، فإذا الحقائق تخالف الحسبان
وتفوق الخيال؛ لأنني وجدت العالم الكبير رجل عامة؛ «وقف نفسه

على الناس، وكان حاضرًا بينهم بوضوح؛ يعلمهم وينصح لهم، ويحمل همومهم، وساعيًّا لتفعهم، ومتصردًا لخدمتهم وحل مشكلاتهم، يعمل ذلك جميعه بكل رحابة صدر وبشاشة وجه».

وهو أيضًا رجل دولة؛ تقلد كثيرًا من المناصب، فقد ولي تحرير الواقع للوزير جمال الدين الصديقي الدهلوi بـ (بهبالي)، ثم تولى منصب نظارة المعارف، ثم نظارة ديوان الإنشاء، ثم حاز لقب (نواب) -يعني نائب الملكة-، وغدا ساعدها الأيمن في إدارة الدولة !

ثمٌ كانت مفاجأة كبيرة جدًا لي أن علمت بأن هذا الرجل العظيم والعالم الكبير قد توفي رَحْمَةُ اللَّهِ وَلُهُ من العمر (59) عامًا فقط !

فسبحان من يبارك الأعمار، حتى إن (59) عامًا من الزمن لتساوي (590) عامًا من العطاء، قد وضع الصفر وراءها، فصارت الخمسون خمساً وصارت التسع تسعينًا !

فمن هو صديق حسن خان هذا؟

ماذا عن نشأته وسيرته، ما أخبار حياته العامة، والعلمية؟

ذلك ما تنبئك به السطور التالية⁽¹⁾:

في بلدة بانس بربيليا -أقدم بلاد الهند وأعظمها، وتقع في الشمال - ولد «صديق خان» لأسرة عظيمة، قَدَّمُها في الشرف راسخ، وأصلها في النسب ثابت، وفرعها يضرب بالعلم والمعرفة في السحاب!

فنسب صديق خان ينتهي إلى الإمام الشهيد السعيد الحسين بن علي بن أبي طالب؛ السبط الأصغر لرسول الله ﷺ.

وكانت صنعة أجداده العلم، وعملهم الدعوة والإرشاد والإصلاح.

فهي أسرة شريفة فاضلة، إلا ما عَگر على فضلها في فترة طرأ فيها التشيع والرفض، ثم شاء الله أن يكون بدء انجلائه على يد «حسن» والد عالمنا «صديق»؛ إذ خرج حسن هذا يطوف البلاد في

(1) للاستزادة من أخبار صديق حسن خان انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسافع والنواظر، عبدالحفيظ الحسني، وحلية البشر، عبد الرزاق البيطار، وكتاب «ما ثر صديقي»، بقلم ولده أبو نصر سيد محمد حسن خان، ونشر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، د. يوسف المرعشلي، ومجلة المعهد العلمي الهندي، عدد رقم 1/ 2 يونيو 1981، بقلم محمد اجتباء الندوبي، ونشرت في كتاب، وغيرها.

طلب العلم ولقي أفضـلـ العـلـمـاءـ، فـكـانـ ذـلـكـ سـبـبـاـ فيـ تـبـصـرـهـ، فـخـلـعـ
الـتـشـيـعـ وـالـرـفـضـ، وـاتـجـهـ إـلـىـ اـتـبـاعـ السـنـةـ وـلـزـومـ سـبـيلـهـاـ.

بلغ حسن والد صديق درجة رفيعة في العلم، وكذا في العمل؛
فقد عرض أمراء بلاده -الرافضة- عليه أن يحل محل أبيه الذي
توفي، وكان أبوه في منزلة عالية فيهم؛ إذ كان يلقب بلقب الأمراء،
ويسكن في قصر شامخ، ويقطع إقطاعاتٍ كبيرةً تدرّ عليه دخلاً
واسعًا ورزقاً وفيرًا، وكان له نحو من ألف جندي يسرون تحت
قيادته!

فرض «حسن» الاستجابة لمطالبهم تلك، ورفض كذلك أن
يأخذ من ترثة والده شيئاً؛ لكونه شيعياً⁽¹⁾!

فيما لها من همة في التزام السنة، ويا لها من ورع كريم؛ لقد
رفض المنصب ورفض المال!

وقد فضّل على ذلك كله صحبة إمامين كريمين من أهل العلم
والفضل في الهند كان لدعوتهم الإصلاحية أثر عمّ نفعه بلاد الهند
وامتدّ إلى بلاد الإسلام جميعها، فجاهد معهما، وكان من أكبر

(1) انظر: مجلة المعهد العلمي الهندي، عدد رقم (1-2/ 1 يونيو 1981)، بقلم
محمد اجتباء الندوبي.

خلفائهم في نشر التوحيد والدعوة ورد البدع في تلك الديار، وهذان الإمامان العظيمان هما المجاهدان: أحمد عرفان، وإسماعيل الشهيد⁽¹⁾.

وكان حسن إلى جوار ذلك زاهداً، ورعاً، وقد ترجمه «صديق خان» في موضع من كتبه⁽²⁾، ووصفه بـ«العلامة»، وأثبتت له من الفضائل العلمية، والفوائل العملية، والآيات والكرامات شيئاً كثيراً⁽³⁾.

وقد توفي رَحْمَةُ اللَّهِ سَنَةُ (1253 هـ).

هذا هو «حسن» والد صديق خان.

(1) انظر بعض أخبارهما في: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، المسمى الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (7/899-902)، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (المتوفى: 1341 هـ). ط دار ابن حزم، وأيضاً كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» ذلك الكتاب الفذ الذي ألفه الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوبي - رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَغَفَرَ لَهُ - عن تاريخ الدعوة والجهاد في الهند في القرن الثالث عشر الهجري، وأضواء على حياة قائد هذه الدعوة والحركة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وسيرة أصحابه ورفاقه وأخلاقهم، في أمانة تاريخية وأسلوب قصصي.

(2) منها أبجد العلوم (ص 26 و 92)، وانظر ترجمته في حلية البشر (1/486)، ونزهة الخواطر (7/102).

(3) انظر: لقطة العجلان (ص 121-123) ط الجواب.

أما أمّه فهي «تاج النساء بيكم»، ابنة مفتى بانس بريلي «الشيخ محمد عوض العثماني»، فهي من أهل بيت عرف بالعلم والفضل والشرف، كذلك.



لذين الأبوين الكريمين، ولد «صديق خان» عام (1248هـ / 1832م)، وكانت ولادته في بيت جده لأمه، ثم نقله أبوه إلى «قِنوج» موطن الآباء؛ ليصنعه على عينه ويربيه في كنفه، وفي قنوج تلقى «محمد صديق» القرآن الكريم، وبعض علومه الأولى.

ولم يلبث الوالد أن توفي ولما يدخل «صديق خان» عامه السادس، فقدر له بذلك أن ينشأ يتيمًا في حجر أمّه التي انتقلت به بعد وفاة أبيه إلى «بانس بريلي» مرة أخرى، وهناك -في بيت جده المفتى- اعنت به أمّه وربته، وعيّنت له مدرّسًا للقرآن، وتعلّم مبادئ اللغة الفارسية، وهيأ الله له أخاه الأكبر «أحمد» -وكان عالماً أدبياً⁽¹⁾ - مع صفة من العلماء؛ فدرّسوه العلوم النقلية والعلقية.

وكان جميع من أخذ عنهم من أهل هذه النواحي يقرّبه ويُدّنيه

(1) انظر: نزهة الخواطر (7/27).

وينزله منزلًا حسناً ويكرمه؛ رعاية منهم لكان أبيه رَحْمَةُ اللَّهُ.

في الأقطار الهندية إذن كان مولد «صديق خان» ومسكنه،
ومحتجده، ومرباه، و بدايات طلبه العلم، ومطلع نوره!



كان صديق خان على الهمة في طلب العلم؛ رحلة إلى العلماء
واطلاعًا على الكتب، فلما كبر وترعرع ارتحل إلى «دلهي» حاضرة
الهند، ودار على أعيان العلماء ونبلاء الفقهاء، فقرأ سائر العلوم
والفنون، وتنقل بين أرجاء الهند متبعًا أهل العلم والفضل، حتى
حصل له قسط وفير ونصيب كبير من العلم؛ تميز به عقله وظهر
بسببه فضله وذاع صيته.

ولم تقتصر استفادته على لقاءات العلماء، فقد لقي عدداً من
رجالات الحكم، ومنهم آخر سلاطين المغول «محمد سراج الدين
بهادر جاه»⁽¹⁾.

وقد التقى «صديق حسن خان» بعد ذلك شيوخاً كثيرين من

(1) انظر: «ترجمة الأمير العالم المصطفى... صديق بن حسن خان القنوجي»،
بقلم الشيخ محمد زياد التكلا، مقال منشور في موقع الألوكة، على الشابكة،
وقد استفدت منه في مواضع.

خارج الهند، بمكة واليمن وغيرهما، فشهاد له كُلُّ من لقيه وكلّمه وطاعمه العلم أنه «ذو فهم راسخ، وطريقة مستقيمة... وبأنه متمكن من علوم الآلات، واسع الاطلاع»⁽¹⁾، وغير ذلك من الثناء الجميل.

وكان أيضًا على الأهمية في الاطلاع على كتب العلم، فقد كان يطالع «بفرط شوقة وصحيح ذوقه كتبًا كثيرة ودوافين شتى، في العلوم المتعددة والفنون المتنوعة، ويمر عليها مرورًا بالغاً، على اختلاف أنحائها، ويأتى عليها بصميم همته وعظيم نهضته بأكمل ما يكون، حتى حصل منها على فوائد كثيرة وعوائد أثيرة»⁽²⁾.

وكان صاحب همة عالية في شراء كتب العلم، جماعًا لها، ويكفي أن نعلم جدّه في أثناء رحلة الحج، حيث نسخ في الباخرة ذهاباً فقط كتاب الصارم المنكي في الرد على السبكي، لابن عبد الهادي، وهو مطبوع في قريب من (350) صفحة، وقال: «لم أضيع زمن ركوب البحر عبثًا»⁽³⁾.

(1) انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص 245)، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دار الياءمة.

(2) أبجد العلوم (217/13)، صديق حسن خان، دار الكتب العلمية.

(3) رحلة الصديق إلى البيت العتيق (161) صديق حسن خان، ط أوقاف قطر.

بل ولما نزل من الباحرة وأقام في دار شيخه القاضي حسين بن مُحْسِن الأنصارى، وأخيه زين العابدين، مكث هنالك يراجع كتب الحديث، ويكتب منها بيديه ما استطاع، واستعار أيضًا رسائل الأمير الصناعى فطالعها، واتسخ جملة من الرسائل المختصرة والمطولة بيده، وما نسخه هناك: السياسة الشرعية لابن تيمية، واشتري عدًّا كبيرًا من الكتب النفيسة.

ومما اشتراه: فتح الباري لابن حجر، بخط ابن علان الصديقي، اشتراه بستمائة دينار ذهبي، وهي النسخة التي طبع عليها الكتاب بعده، على نفقته⁽¹⁾.

وهكذا استغل رحلته جماعها في العلم، إلا ما كان منها في أداء المنسك، حتى إنه ليقول: «ومن غاية الشغف بعلوم السنة لم أترك كتابة العلم بعَرْفة ومنى في أيام إقامتها، لكن في غير أوقات المنسك»⁽²⁾.

وفي أثناء عودته نسخ - وهو على البحر - سنن الدارمي من نسخة نفيسة استعارها من المرزا أمير بك، صهر مجىزه الشيخ

(1) انظر: ترجمة الأمير العالم المصطفى.

(2) رحلة الصديق إلى البلد العتيق (ص 166).

المحدث يعقوب الدهلوi، وكانت عليه تعليقات للشاه ولـي الله الـدهلوi، وطبع الكتاب بعد ذلك على منسوخته.

واستغرقت رحلته تلك ثانية أشهر، كانت مثـالـاً لاستغلال الوقت وتحصـيلـ العلم وكتـبهـ.

أثـمـرتـ تلكـ المـطـالـعـاتـ ثـمـرـتـهاـ فـكـانـ «ـصـدـيقـ خـانـ»ـ وـاحـدـاـ منـ الطـلـابـ،ـ ثـمـ منـ الشـيـوخـ الـذـيـنـ يـشارـ إـلـيـهـمـ بـالـبـنـانـ؛ـ روـاـيـةـ وـدـرـايـةـ؛ـ رـحـلـةـ إـلـىـ الـبـلـدـانـ،ـ وـلـقـيـاـ بـالـعـلـمـاءـ،ـ وـأـخـذـاـ عـنـهـمـ.

ولـاحـتـ أـمـارـاتـ ذـلـكـ كـلـهـ فـيـ نقـشـهـ؛ـ تـأـلـيفـاـ،ـ وـتـصـنـيـفـاـ،ـ وـاـخـتـصـارـاـ،ـ وـشـرـحـاـ،ـ وـتـصـحـيـحـاـ،ـ وـتـنـقـيـحـاـ.

وـقـدـ بـدـأـ التـأـلـيفـ مـبـكـرـاـ،ـ فـهـاـ هـوـ ذـاـ يـخـطـ أـوـلـ مـصـنـفـاتـهــ وـكـانـ تـرـجـمـةـ كـتـابــ وـهـوـ بـعـدـ لـمـ يـجاـوزـ الثـانـيـةـ وـالـعـشـرـينـ،ـ وـكـانـ كـتـابـهـ هـذـاـ الـأـوـلـ:ـ «ـتـرـجـمـةـ المـراـحـ فـيـ التـصـرـيفـ»ـ⁽¹⁾ـ،ـ وـالـمـراـحـ كـتـابـ لـلـإـلـمـامـ بـدـرـ الدـيـنـ الـعـيـنـيـ،ـ وـهـوـ مـنـ الـكـتـبـ الـمـهـمـةـ فـيـ عـلـمـ التـصـرـيفـ.

ثـمـ تـوـالـيـ خـيـرـ اللـهـ عـلـىـ صـدـيقـ خـانـ وـكـثـرـ وـطـابـ،ـ فـصـنـفـ

(1) التاج المكمل (537).

بثلاث لغات؛ العربية، والفارسية، والأوردية، تأليفاً وترجمة؛ بين اختصار وشرح وابتكار، وغير ذلك، إلى أن صار جملة ما ألفه يربو على (200) كتاب؛ بين مجلد، ورسالة، وعدة مجلدات؛ في فنون عديدة شملت: التفسير، والحديث، والمصطلح، والترجم، والفقه، والرقائق، والنحو والصرف والبلاغة⁽¹⁾.

وكانت له موهبة عظيمة في التأليف؛ حتى قيل: إنه كان يكتب عشرات الصفحات في يوم واحد، ويكمel كتاباً ضخماً في أيام قليلة، ومن ذلك: الاختصار والتهذيب والترجمة التي كثرت في مؤلفاته كثرة ملحوظة.

وقد «كتب إليه علماء الآفاق، ومحروها، ومحثثو الديار، ومفسروها، كتباً كثيرة أثنوا فيها على تلك التواليف، ودعوا له بإخلاص الفؤاد لحسن الدنيا والأخرى»⁽²⁾.

ومن فضل الله على صديق خان أن ذلك كله «طبع، واستهير وشاع، وسارت به الركبان إلى أقطار العالم، من العرب والعجم،

(1) حسب ما ذكر، جميع مؤلفاته عددها (222)؛ منها (54) بالعربية، و(42) بالفارسية، و(107) بالأوردية.

(2) أبجد العلوم (3) 274.

كالحجاز واليمن وما إليها، ومصر، والعراق، والقدس، وطرابلس، وتونس، والجزائر، ومدن الهند والسندي، وبلغار، و مليبار، وبلاط الفرس»⁽¹⁾.

و «صديق خان» أديب -أيضاً- عُرف بالثر و الشعر، وله ديواناً شعر؛ أحدهما بالعربية، والثاني بالأوردية، وكان ينهر في شعره بالعربية نهر الخليل بن أحمد الفراهيدي⁽²⁾، وكان له ما يشبه الصالون الأدبي⁽³⁾، يعقده دورياً، ويحضره الأدباء من لغوين وشعراء.

في الحادية والعشرين من عمره انتقل «صديق خان» إلى مدينة بہو بال، ووصل إلى وزيرها العالم السلفي «جمال الدين»، الذي توسط له عند الملكة «سكندر جهان بيكم»، فقررت، وتعين في ديوانها الخاص كاتباً، مع الوعظ والإرشاد كل جمعة في مسجد

(1) انظر: موقع «معجم البابطين».

(2) نفسه.

(3) درس الدكتور سعد الله المحمدي بن محمد عالم حياة صديق خان الأدبية، في رسالته للماجستير، بعنوان: «الأمير صديق حسن خان وجهوده في الأدب العربي»، وهي محفوظة بمكتبة الجامعة الإسلامية العالمية -إسلام آباد.

ابراهيم خان⁽¹⁾.

وقد استقرّ في «بهوبال» مدة من الزمان، ثم حدثت قلائل دفعت به إلى مغادرتها، لكنه لم يلبث أن عاد إليها ثانية، وهذه المرة لم يأتها طالبًا بل مطلوبًا، حيث رغب إليه الوزير المذكور في تأليف تاريخ لمدينة بهوبال، وزوجه ابنته الصغرى «ذكية بيكم»، التي كانت أمًّا أولاده⁽²⁾.

وشاء الله أن تكون تلك السفرة فاتحة خير عليه، فترقى في المناصب حتى صار في أرفع مكان، وتحسن أحواله جدًّا إلى أن تزوج بـ«شاه جهان بيكم» التي وليت العرش بعد وفاة والدتها، فعمل وزيرًا لها، ثم نائباً عنها في الملك، ولقب بـ«النواب» عالي الجاه، والملك المؤيد⁽³⁾.

وكان زواج صديق خان من الملكة نقطة تحول في حياته العلمية بل في النشاط العلمي والوعهد التأليفي في الهند كلها، فقد أتاح المنصب لصديق فرصة عظيمة من فرص الدهر النادرة؛

(1) انظر: ترجمة الأمير العالم المصنف.

(2) انظر: مجلة المعهد العلمي الهندي، عدد رقم (1-2/ 1 يونيو 1981) (ص 71) بقلم محمد اجتباء الندوي.

(3) السابق.

ليجمع بين العلم والعمل، والدعوة والإصلاح، وليمزج بين الدنيا والدين، السياسة والشرع، وقد أفاد العالم الملك إفادات عظمى وقدم خدمات جلّى.

■ منها أنه قام على توزيع الأراضي على الفلاحين، وإلغاء كثير من الضرائب، وتنظيم جباية الزكاة على الوجه الشرعي، وإقامة المحاكم الشرعية، وإنشاء إدارة للحساب، وتحريم الربا والرشاوة والمسكرات التي كانت فاشيةً من قبل، حتى كانت من قبل تتعاطى في مساجد بهو بال!

■ ومنها أنه جمع ببلاده من نفائس العلوم والكتب وجلب المخطوطات النادرة، ومواد التفسير والحديث، ما يسر عده ويطول حده، حتى اجتمعت بلده مكتبة علمية، رائدة، مملوأة بالكتب القيمة.

■ ومنها أنه بدأ يطبع الكتب العلمية التي تمس الحاجة إليها، فبذل المال الكثير في طبعها، وتوزيعها، على الأفراد، والهيئات، والبلدان، شرقاً وغرباً؛ فطبع «فتح الباري»، و«تفسير ابن كثير»، و«نيل الأوطار» وغيرها، على نفقة، في الهند، ومصر، وتركيا، وزعها مجاناً، جزاء الله خيراً.

- ومنها أنه وضع خطة لترجمة كتب الحديث إلى اللغة السائدة في الهند، فترجمت كتب كثيرة، وكذا طبعت على نفقته ووزعت.
- ومنها أنه «صرف مما آتاه الله من المال والجاه في خدمة الإسلام والدين، وفي نشر علم الحديث والدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والعمل بالكتاب والسنّة»⁽¹⁾ الشيء الكثير، وإن زكاة ماله في كل حول تصل إلى ألوف كثيرة⁽²⁾، فظهر أثر ذلك، وعمّ، وجاءته كتب العلماء من كل قطر تشكره، وبالخير تثنى عليه وتدكره.
- ومنها أنه استقدم العلماء إلى مملكته من نواحٍ وبلاد كثيرة، بل ونصبهم في المصالح العلمية والعملية، وإدارة الشؤون الدينية، مثل الفتيا، والقضاء، والتدريس، والحساب.
- ومنها أنه وضع خطة في إعانة العلماء، والأدباء، وذوي الفضل في كل وجه، فرتب لهم إعانات مالية؛ من أجل أن يتفرغوا لعلومهم، ويباشروا مهامهم، ويمضوا في سبيلهم، للمذاكرة والدعوة والتدريس والتصنيف، حتى في خارج بهو باه.
- ومنها أنه قام بإنشاء المدارس والمعاهد الشرعية، والمكتبات،

(1) انظر: الإمام صديق حسن خان القنوجي مفسراً، وجهوده في علوم القرآن، مقال بقلم أبي محمد الظاهري، بملتقى أهل التفسير.

(2) نزهة الخواطر (8/ 1249).

«لم يقتصر على المدارس الشرعية، بل فتح مدارس عصرية، وأخرى صناعية، ومنح الرواتب والجوائز للطلبة، فكان من يحفظ صحيح البخاري يأخذ ألف روبيّة، ومن يحفظ بلوغ المرام يأخذ مائة روبيّة».

وغير ذلك من الإفادات والخدمات الجليلة في شئون العلم والدين، بل وفي شئون الدنيا كذلك؛ إصلاحًا وتقويمًا.

لقد كان «صديق خان» آية من آيات الله في العلم والفهم، والتمسك بالكتاب الكريم والسنّة النبوية، والتحلي بالأخلاق الكريمة الفاضلة، وكان لهذا كله أثر عظيم في أعماله كلها، فتكللت مساعيه هذه بنجاح منقطع النظير، واستحق بها أن يكون من رجال النهضة الإسلامية المجددين.

فازدهرت به وبالجهود، «وصارت كعبة لطلبة العلم، وراجت فيها سوقه، ورحل إليها الطلبة من أنحاء الهند ومن خارجها، وانتشر العلم والعمل بالسنّة في البلاد، حتى وصفها شيخنا العلامة أبو الحسن الندوبي في كتابه شخصيات وكتب بأنها صارت مدرسة

لل الحديث تضاهي شيراز واليمن، وأن مسجدها «موتي مسجد»
كان مثل الأزهر⁽¹⁾.

وصار هو «سيد علماء الهند في زمانه، وابن سيدهم الذي برع فضلاً في عصره وأوانه، فخضعت له النواصي، وشهد بكماله الداني والقاصي⁽²⁾.

جلس «صديق خان» مجلس السلطنة في الأمور الدولية، وقام مقام الملكة في إنفاذ الأوامر، فعاد إلى مملكته ماء الشيبة بعد المشيب، ذلك لأنه كان مليئاً بالعلوم، متضلعًا منها بالمنطوق والمفهوم، مجتهداً في إشاعتها، مجدًا لإذاعتها»⁽³⁾

وكانـت ولايـة المـنصـب كـما قـيلـ: إـن الـولـاـية لـيـس فـيـهـا رـاحـة

إلا ثلات يبتغيها العاقل

(١) شخصيات وكتب (ص ٧٧)، أبو الحسن الندوبي، دار القلم.

(2) حلية البشر (1/329)، عبد الرزاق البيطار.

.(331/1) نفسه (3)

حكم بحقّ أو إزالة باطل

أو نفع محتاج سواها باطل

وهو قد زاد على ذلك وأفاد، فأحيا السنة وأعزّها، وقمع البدعة وقتلها، وانتفع الناس بجوده وبذله، وعلمه وحكمه وفضله، ليس في مملكته فحسب بل في مدنٍ غيرها كثيرة، وببلاد سواها قرية بعيدة، وكان فضل الله عليه كبيراً، وعلى عباده المؤمنين.

عاش صديق خان أواخر سنواته مظلوماً مضطهداً؛ إذ كان الصراع بينه وبين حاكميه قد بلغ أوجهه، وكانت مقاومته لسلطة بريطانيا الاستعمارية في الهند قوية، بسبب حركته الإصلاحية الواسعة الشاملة التي اتخذت خطوات جريئة هددت المصالح الإنجليزية في الهند، فلم يأل المستعمر في الكيد له، ونصب الأشكاك بطريقه، وإبعاده عن مناصبه، ومصادرة نياته وألقابه وأمواله وضياعه، فبقي وحيداً فقيراً، وقد أصيب بالاستسقاء في أواخر أيامه! ومن عجيب ما يذكره عنه المؤرخون لهذه الفترة أنه في أثناء اشتداد المرض كانت أنامله تتحرك كأنه مشغول بالكتابة⁽¹⁾!

(1) نثر الجواد والدرر في علماء القرن الرابع عشر (ص 1245)، د. يوسف المرعشلي، ط دار المعرفة.

فسبحان الله العظيم الملهم هذه الهمم !

وصدق الشيخ علي بن عبد الله شارح البخاري رَحْمَةُ اللَّهِ إِذْ
قال له - يوم لقيه أثناء رحلة الحج- : « وجود مثلكم في هذا الزمان
من نعم الله تعالى ، لو كانوا يعقلون »⁽¹⁾ .

توفي الإمام ، العالمة ، المحقق ، محبي السنة وقاصي البدعة ، أبو
الطيب ، محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله ، القِنْوَجِي ،
البخاري ، في سنة (1307 هـ) .

ومن بشارات الخير أنه ليلة وفاته فاضت على لسانه كلمة:
أَحِبُّ لقاء الله ، قالها مرتين ، وطلب الماء ، واحتضر ، وفاضت
نفسه ، وله من العمر تسع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .
وكانت وفاته وفاة عالم كبير ، محدث جليل ، مؤلف عقري ،
محبي الكتاب والسنة ، داعية عظيم ، إداري محنك ، حاكم عادل ،
محب للخير ، والصبر والإحسان ، وحرirsch على الرفاهية والازدهار ،
والرخاء للإنسانية والبشرية جماء ، فلم تكن وفاته خسارة لفردٍ
دون فردٍ ، وجماعة دون جماعة ، وفترة دون فترة ، بل كانت خسارة
لالأمة الإسلامية كلها .

(1) رحلة الصديق إلى البلد العتيق (ص 162) ، وصلاح الأمة في علو الهمة
(6/271) ، العفاني ، ط مؤسسة الرسالة .

فما كان قَيْسُ هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ

ولكنه بنيانٌ قومٌ تهَذَّما

رحم الله روحه الطاهرة، وأمطر عليه شأبيب رحمته ورضوانه،

وأدخله فسيح جنانه⁽¹⁾.

وفي النهاية، لا يسعنا إلا أن نردد مع صاحب حلية البشر: إن
مثله لا يكون في هذا الزمن، مع ما هو فيه من الامتحان، والكلام
فيه بحرٌ تيارٌ وعيابٌ زخار، وفيما ذكرنا كفاية لأولي الألباب، والله
الموفق لإصابة الصواب⁽²⁾.



وبعد، فإن في حياة صديق خان، ذلكم الإمام المجتهد والملك
المصلح لعظامٍ وعبراً، أولاًها بالتأكيد أنَّ من رزقه الله المنصب من
أهل العلم كان الواجب عليه أن يعمل فيه بعلمه وألا ينسيه
المنصب واجبات العلم، إن هناك علماء كانوا يتمنون أن لو قدرروا
على نفع أمتهم، وإسداء الخير إليها، والسعى إلى تيسير الطريق أمام

(1) مجلة المعهد العلمي الهندي (ص 125).

(2) حلية البشر (1/ 329).

الشرع الحنيف لظهور كلمته، فلما تبّأوا المناصب وارتّفت درجاتهم، وكثّرت -تبعاً لذلك- أموالهم؛ فتنّوا بالمنصب والمال، ونسوا العلم الشريف الذي يحملونه، وظلّوا في غمرتهم تلك ساهين، فلّما سحب منهم المنصب وذهب من أيديهم ندموا وتنّوا أن لو كانوا قدموا للدين شيئاً، ولات ساعة مندم!

كم من عالم تنّى أن يهيأ له الموضع الذي تصل فيه كلمته إلى أذن السلطان، والموقف الذي يتهيأ له أن يجهر فيه بكلمة الحق، والمكّنة التي بها يستطيع أن ينفع بها الدين، فلما حانت هانت، وحانوا العلم والأمانة الملقاة على عاتقهم، وكانوا ظهيراً للمجرمين على المؤمنين! صاروا مشايخ السلطان وعلماء البهتان، وكتّموا الحق وتكلّموا بضده وعملوا على صدّه، فلا هم نفعوا بموعظتهم، ولا هم عملوا بمناصبهم ما ينفع في هذه السبيل.

فيما أخي -طالب العلم- إنك لا تدرّي ما يكون من أمرك مستقبلاً، ولا ما الذي يصير إليه غدّك، فإن أدرك الله يوماً ورفعك إلى منصب أو وظيفة تقدر بها على نفع العباد وإصلاح الأحوال، فلا تنس العلم وقوانينه وأحكامه؛ اجعل منه حاكماً على

المنصب، ولا تجعل العلم وسيلة إلى المنصب فمتى حصلت المنصب
أهميته، فإن فعلت فإنك إذاً من الخاسرين، وبئس المورد نفسك
أوردت وأهلكت! فهل تستبدل بالعيير بعراً وبالشريا ثرى وبالرحيق

المختوم حريقاً محروقاً مدمرًا؟

يَا جَاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بَازِيَا

يَضْطَادُ أَمْ—وَالْمُسَاكِينُ

اَحْتَلَتَ لِلْدُنْيَا وَلَذَّاتِهَا

بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالْدِينِ

وَصِرْتَ مَجْنُونًا بَعْدَمَا

كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِينَ

أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فِيمَا مَضَى

عَنِ ابْنِ عَوْنَى وَابْنِ سِيرِينَ

أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فِي سَرِدَهَا

فِي تَرْكِ أَبْوَابِ السَّلاطِينِ

إِنْ قُلْتَ أُكْرِهْتُ فَمَا ذَا كَذَا

زَلَّ حَمَارُ الْعِلْمِ فِي الطَّيْنِ

إِنَّ عَلَى الْعَالَمِ الَّذِي تَبُوا مَنْصِبًا أَنْ يَحْذِرْ تَمَامَ الْحَذْرِ وَيَرَاجِعْ
قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ كُلَّ سَاعَةٍ وَيَسْأَلُهَا: فَيَمْ كَانَ ذَلِكُ؟ وَلِأَجْلِ أَيِّ غَايَةٍ
وَهَدْفٍ؛ وَهُلْ يَلِيقُ بِمَنْ فِي مُثْلِ عِلْمِهِ أَنْ يَلْعَبْ بِهِ الْمَنْصِبُ أَوْ يَلْعَبْ
بِهِ مِنْ نَصْبِهِ إِلَيْهِ، كَمَا يُفْعَلُ بِالْجَهَّالِ وَطَلَابِ الدِّينِ وَشَذَّادِ الْخَلْقِ!
وَهُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ غَايَتِهِ، وَالْجَنَّةُ هَدْفُهُ، وَالْإِصْلَاحُ
وَسَلِيلُهُ، وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ؛ 《وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَنِّيهِ مِنْ أَجْرٍ》 》 [الشعراء من

الآية: 109]

فِيَا طَالِبَ الْعِلْمِ! تَذَكَّرْ، لَا تَكُنْ مِنْ «الَّذِينَ يَهُونُ عَلَيْهِمْ
الْعِيشُ فِي السَّهُولِ، وَبَيْنَ الْحُفَرِ، وَيَسْتَصْبِعُونَ الْعِيشُ فِي الْجَبَالِ،
وَالْأَرْتِقَاءِ إِلَى الْقَمَمِ الْعَوَالِيِّ»!

تَصُورْ كَلْمَاتِكَ لِلنَّاسِ أَنَّ الْعِلْمَ عَزٌّ وَجَاهٌ، بَيْنَمَا هُمْ يَرَوْنَ
فَعَالَكَ وَحَالَكَ ذَلِّاً وَصَغَارًا، فَتَهَتَّرْ صُورَتِكَ وَتَضَيِّعْ هَيَّبَتِكَ
وَيَسْقُطْ كَلَامُكَ، مِهْمَا كَانَ مَنْمَقًا وَجَمِيلًا، وَأَسْوَأُ مَنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِدُ
البعضُ السُّوءُ فِي الدِّينِ وَأَهْلِهِ بِسَبِيلِكَ، فَتَكُونُ مِنْ دُعَاءِ جَهَنَّمِ؛
عُلَمَاءِ السُّوءِ، الَّذِينَ «جَلَسُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، يَدْعُونَ إِلَيْهَا النَّاسَ
بِأَقْوَالِهِمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَالِهِمْ، فَكَلِمَا قَالُوا: أَقْوَالُهُمْ لِلنَّاسِ
هَلْمُوا، قَالَتْ أَفْعَالُهُمْ: لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ؛ فَلَوْ كَانَ مَا دَعُوا إِلَيْهِ حَقًّا

كانوا أَوْلَى المستجيبين له، فهم في الصورة أدلة وفي الحقيقة قطاع
طرق»⁽¹⁾.

فيما طالب العلم!

احذر، والله حسينا وحسينك في كل أمرٍ، وهو على كل شيء
وكيل.



(1) الفوائد (61 / 1).



تأليف/ أحمد الجوهري عبد الجواد



شاهجهان

ملكة تدير أمور الحكومة
من وراء حجاب ...
وتعلم العلم أيضاً.

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

شاهجهان

ملكة تدير أمور الحكومة

من وراء حجاب ... وتعلم العلم أيضاً.

هذه ملكة هندية أخرى في سماء السلطنة والعلم، إنها ملكة بهوبال التي عرفها زمانها ملكة ذات تاج، وعالمة صاحبة تصانيف، فكانت رَحْمَةُ اللَّهِ جامعة للفضائل الدينية والدنيوية، التي قلما تجتمع في رجل، فضلاً عن امرأة.

إنها الملكة «شاهجهان» بيكم بنت نواب «سكندر» بنت الملك جهانكير، وأمها نواب «قدسية» بيكم، سليلة الملك، فهي ملكة، بنت ملك، حفيدة ملك⁽¹⁾.

ولدت «شاهجهان» بحصن «إسلام نكر» في مدينة بهوبال سنة (1254 هـ)، وكانت الابنة الكبرى لوالدها.

وقد توفي أبوها ولها من العمر (9) سنوات فقط، فورثت «شاهجهان» حكم مدينة بهوبال، ولما بلغت من العمر (22) سنة

(1) ينظر: هدية العارفين (1/ 415) إسماعيل باشا البغدادي، ط. المكتبة الإسلامية.

فَوَضَتْ عَنْانَ الرِّئَاسَةَ إِلَى أُمِّهَا، وَاكْتَفَتْ لِنَفْسِهَا بِوْلَاهِ الْعَهْدِ⁽¹⁾.

ثُمَّ لَمَّا تَوَفَّتِ وَالدُّتْهَا حَكَمَتْ هِيَ الْمَدِينَةَ وَاعْتَلَتْ كَرْسِيِّ الْمَلَكِ، فَسَارَتِ فِي رَعْيَتِهَا سِيرَةُ حَسَنَةٍ؛ وَكَانَتْ مَلَكَةً فَاضِلَّةً كَرِيمَةً؛ إِذْ يَحْفَظُ التَّارِيخُ أَنَّهَا قَامَتْ بِإِصْلَاحَاتٍ دِينِيَّةً، وَسِيَاسِيَّةً، وَعُمْرَانِيَّةً، وَاقْتَصَادِيَّةً كَثِيرَةً، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا عَمِّرَتْ نَوَاحِيَ الْمَلَكَةِ، وَأَحْيَتْ الْمَدَارِسَ الْعُلُمِيَّةَ، وَبَنَتْ الْمَسَاجِدَ الْعَظِيمَةَ، وَقَرَرَتْ الْوَظَائِفَ الْفَخْمَةَ، وَحَفَرَتِ الْآَبَارَ، وَغَرَسَتِ الْحَدَائِقَ وَالْأَشْجَارَ، وَأَحْدَثَتِ الْعَمَائِرَ الْكَبَارَ، وَأَحْيَتِ السَّنَنَ، وَأَمَّاتِ الْبَدْعَ، وَقَلَعَتِ أَسْبَابَ الْفَجُورِ وَالْفَسُوقِ، وَطَهَّرَتِ الْدِيَارَ عَنِ الْأَنْسَاسِ الْإِشْرَاكِ وَالْمَحْدَثَاتِ⁽²⁾.

فَأَدَارَتِ إِمَارَةُ بَهْوَالِ إِدَارَةَ صَالِحةٍ وَسَاسَتِهَا سِيَاسَةً رَشِيدَةً، فَرَعَتِ الْبَلَادُ فِي بَحْبُوْحَةٍ مِنِ الْعَدْلِ وَالرَّفَاهِيَّةِ⁽³⁾، وَكَانَ زَمَانُهَا زَمَانَ سَعَادَةِ، وَأَوَانَ تَرْقِيِ الْعِلُومِ، وَمَوْسِمَ مَسْرَةِ وَرَفْعَةِ لَبَنِي

(1) أَبْجَدُ الْعِلُومِ (732/1)، أَبُو الطَّيْبِ مُحَمَّدٌ صَدِيقُ خَانِ الْقِنْوَجِيِّ، دَارُ بْنِ حَزْمٍ.

(2) أَقْوَمُ الْمَسَالِكَ فِي أَحْوَالِ الْمَلَكِ (280/3)، خَيْرُ الدِّينِ التُّونِسِيِّ، ط. دَارُ الْكِتَابِ الْلَّبَنَانِيِّ.

(3) أَعْلَامُ النِّسَاءِ فِي عَالَمِ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ (283/2)، لِعُمَرِ رَضَا كَحَالَةِ الْمَطْبَعَةِ الْهَاشِمِيَّةِ بِدَمْشِقِ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ، 1377هـ - 1958م.

عصرها ورعيه مملكتها⁽¹⁾.

ولا أدل على ذلك من أنها في مرض وغياب والدتها بمكة لأداء فريضة الحج؛ انصرفت إلى إنجاز جميع القضايا المتراءكة في السلطنة، وكان عددها (4086)⁽²⁾، واستطاعت بحكمتها وسياساتها إنجازها جميعاً في هذه الفترة وكانت فترة قصيرة جدًا.



حصلت «شاهجهان بيكم» الفنون، وتعلمت الخط، والكتابة، واللغة الفارسية، والإنشاء، والشعر، واستفادت أدب الرئاسة والسياسة حتى بَزَت في ذلك الأقران، وامتازت بينهم بالقدرة على ترجمة القرآن، وتحرير الرسائل الدينية، وتقرير المسائل الدولية، وكان يضرب بها المثل في الذكاء والحفظ والكرم والجود⁽³⁾.

وعرف عنها حُبُّ العلم وإكرام أهله، واهتمامُ بالجانب العلمي والفكري عظيم، ويظهر ذلك من أنها جمعت من نفائس

(1) أبجد العلوم (3 / 284 - 286).

(2) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (2 / 283).

(3) نثر الجوادر والدرر (ص 291).

الكتب - على اختلاف أنواعها وتبالين علومها- ما يعظم قدره
ويجلّ وصفه.

وأهدت الطلبة ألوفاً من المصاحف والكتب الدينية مجاناً⁽¹⁾.

وأنفقت على طبع المصحف، والتفسير، وال الحديث، واللغة،
وغيرها من العلوم والفنون، وأسست المدارس العلمية وعمرتها،
ومنها المدرسة الجهانكيرية على اسم أبيها، بدار ملكه.

ودعت العلماء من كلّ صوب وحدب للإشراف على هذه
المدارس ورعاية مسيرتها وتولي التدريس بها.

وأنفقت على طلاب العلم - لا سيما المحتاجين - مالاً عظيماً.

فساهمت بدور عظيم في رفد الحركة العلمية في مدينة بهو بال
 خاصة، وبلاد الهند عامة.

كما أن الملكة «شاهجهان بيكم» كانت جوادة كريمة أيضاً على
المستوى العام، فلم تحرم من نوافها وجودها إنساناً، وأوقفت أرزاقاً
كثيرة على الفقراء، وقررت لهم رواتب من النقود والغلات، بل
كانت تنفق على الحجاج، والغزاة، والمسافرين، والطلبة، والمساكين؛

(1) أبجد العلوم (ص 734).

أموالاً كثيرة، بل وتهدي الأقمشة وتبني البيوت⁽¹⁾.

تزوجت الملكة العالمة «شاهجهان بيكم» مرتين؛ كان زوجها الأول هو نواب باقي محمد خان ولما مات تزوجت بالسيد العالمة صديق حسن خان القنوجي، وكان ذلك سنة (1288)⁽²⁾.

مهرت «شاهجهان بيكم» في علوم الشرع، وفي الأدب؛ فكتبت النثر، ونظمت الشعر، باللغتين؛ الفارسية والهندية، وجمع لها ديوانُ شعر، «ونظمها مضبوط في ديوان الشعر، وفي تذكرة الشعراء»⁽³⁾ ولها كتب مشهورة، منها:

- تاج الإقبال في تاريخ بهو بال، بلسان أردو، في مجلد، مطبوع.
- كتاب «تهذيب النسوان»⁽⁴⁾.
- خزينة اللغات⁽⁵⁾.

(1) أبجد العلوم (ص 734).

(2) نفسه (ص 733).

(3) أبجد العلوم (ص 734).

(4) نزهة الخواطر (1245/8).

(5) هدية العارفين: 2/ 415، ينظر: إيضاح المكنون: (1/ 209)، إسماعيل باشا البغدادي، ط. المكتبة الإسلامية.

و كانت من العابدات - كما يشهد بذلك زوجها العالم صديق

حسن خان-⁽¹⁾.

و من شهادات المؤرخين فيها ما قاله ليل غرفن: إنها أميرة تدير أمور الحكومة من وراء حجاب لكنها تعلم كل صغيرة وكبيرة من أخبار البلاد، وهي بلا استثناء أقدر امرأة في الهند في عصرها، وبالحقيقة إن مقدرتها الطبيعية تفوق مقدرة كثيرين من الأ النساء الرجال الذين يحكمون اليوم، وهي سريعة الخاطر جداً حتى إن من يخاطبها يجب أن يكون على جانب عظيم من الذكاء ليستطيع مجاراتها في الحديث⁽²⁾.



ماتت الملكة «شاهجهان بيكم» لليلتين بقيتا من صفر سنة (1319هـ)، بدار ملكها، بيهوبال⁽³⁾.

و قد ترجم لحياتها جمُعٌ من المؤرخين والأدباء.



(1) أبجد العلوم (ص 734).

(2) ينظر: أعلام النساء (2/ 284).

(3) نزهة الخواطر (8/ 1245).



تجوّت نجاحك دين

ملكة الجناد

و ملكة القرآن

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

﴿ تجوتْ نجاك دين ﴾ ﴿ ملکةُ الجهاد وملکةُ القرآن ﴾

في تاريخنا الإسلامي عظماء لا يحصون عدداً، ومن الواجب علينا أن نظهر هؤلاء السيدات والسادة للناس، عسى أن يكون في بروزهم تحفيز للأجيال الحاضرة لتحفيي فيهم الاعتزاز بهذا الدين، فচنعوا به حاضراً على غرار التاريخ الذي صنعه أولئك!

إننا أحوج ما نكون إلى استعادة ذلك التاريخ المشرق المضيء، بل العالم كله يحتاج إليه والإنسانية كلها متغطشة إلى رؤية نماذجه من جديد، فهل يكون تحقيق غايتها تلك عند أحق الناس بضرب النموذج والمثل عند أهل الإسلام؟

وفي هذا التاريخ الجليل مئات من العظيمات اللاتي يمثلن قدوة وأسوة لأجيال الأمة المسلمة إلى يوم الدين، وقد أسهمن في كل مجالات الحياة.

ومن بين المجالات التي أسهمت خلالها المرأة المسلمة بل ضربت فيها أعظم المثل وكانت للمسلمين رجالاً ونساء خير قدوة؛ مجال الجهاد في سبيل الله، لا يحسن أحداً أنّا نعني مجاهدات

الصدر الأول فحسب؛ سمية بنت خياط وعائشة وصفية ونسيبة وأم حرام بنت ملحان وأختها أم سليم، وسواهنٌ كأسماء بنت يزيد وليل الغفارية وأم سليمان وأم عطية والربيع بنت معوذ وغيرهنّ، من شاركن مع النبي ﷺ في الجهاد؛ قتالاً للعدو بالسيوف، ورصدًا لفأرّهم، وتشجيعًا لجنود المسلمين على الصبر والثبات، إضافة إلى عملهنّ الرئيس في الحرب من سقي الجاهدين، ومداواة الجرحى، وحمل القتلى، وصنع الطعام للمقاتلين، وغيرها من الأعمال التي تثبت بطولاتهنّ وتشهد لهنّ بالصبر والمصايرة في هذا الميدان الجليل.

بل لم يخل عصر من عصور الأمة المسلمة من نساء عظيمات يحتذبن حذو هؤلاء المجاهدات وهن موجودات في تاريخنا كله في طوله وعرضه، قديمه وحديثه، وبين أيدينا حديث عن عظيمة فاضلة من هؤلاء المجاهدات العظيمات اللاتي كان لهن في مجاهدات الصحابيات أسوة طيبة وقدوة حسنة.

هل سمعتم عن «تجوّت نجاك دين»؟

إنها سيدة جليلة من سيدات التاريخ الإسلامي العظيم .
إنها ملكة «الجهاد» التي قاومت الاحتلال الهولندي في

إندونيسيا لسنين عديدة، مع والدها وزوجها الأول، ثم الثاني، وبعد استشهاد الجميع واصلت الجهاد طوال سنين.

كانت البرتغال أولى الدول التي احتلَّت إندونيسيا، وخرج أول أسطول هولندي إلى الهند سنة 1590م، وبلغ الجزائر الإندونيسية ثم عاد إلى هولندا، وكان هذا سببًا في تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية 1602م، التي أعلنت في بادئ الأمر أن غرضها ليس إلا التجارة، ولكنها ما لبثت أن أخذت تحكم الغلال والمنتجات الزراعية، ومتلك الأراضي مقابل دخل تدفعه الشركة للسلطين.

ولم يكن البرتغاليون والهولنديون وحدهم هم الذين حاولوا استعمار إندونيسيا، بل انضمت بريطانيا إليهم؛ فأقامت قلعة لها في (بان كولن) على الشاطئ الغربي لسومطرة في سنة 1714م وظلت هناك حتى سنة 1825م.

فسقطت إندونيسيا بذلك تحت حكم الشركة البريطانية للهند الشرقية في الفترة (1811 - 1816م) أثناء حرب نابليون التي تمكَّن فيها من احتلال هولندا، ولكن بريطانيا وهولندا عقدتا معاهدة في لندن في 13 أغسطس سنة 1814م قَضَتْ بإعادة

المستعمرات إلى هولندا عام 1803م، وبذلك استرداًت هولندا
الجزر الإندونيسية من بريطانيا.

وظلت هولندا وحدها في إندونيسيا منذ مطلع القرن السادس
عشر؛ حتى احتلتها القوات اليابانية في مارس 1942 بعد
استسلام الجيش الهولندي أمام اليابان.

وقد عرف الاحتلال الهولندي في شعب إندونيسيا المسلم
الإباء والعزة والكبرياء، فقد حارب الشعب لنيل حريةه وبذل
لأجل ذلك الغالي والنفيس، ليس الرجال فحسب، بل والنساء
أيضاً، وكان من بين أولئك النساء الكريمات المجاهدات تلك
السيدة «تجوت نجاك دين» وكانت ابنة ملك إحدى الجزر
الإندونيسية وكان أبوها الملك يجاهد الاحتلال بشعبه وسقط في
المعركة شهيداً وسقط معه زوج تاجاك الذي استشهد أيضاً، ولم
تلبث تاجاك أن تزوجت أحد المجاهدين الذي سقط هو الآخر في
أرض المعركة شهيداً.

وعلى طريق الشهداء مضت تاجاك -التي قعدت على عرش
أبيها- فتولّت قيادة المجاهدين ونظمت العمليات الحربية ضد
الاحتلال الهولندي بنفسها، سنين عديدة، حتى لقبت بملكة
الجهاد!

** وأيضاً هي «ملكة القرآن» التي علمت القرآن في المنفى حين استطاع الإنجليز القبض عليها بعدها كف بصرها وأقعدت عن الجهاد لكبر سنها وإصابتها بمرض المفاصل، الأمران اللذين لم يمنعها أن تغرس خنجراً في قلب أحد الجنود الذين أتوا للقبض عليها، فعلم الإنجليز أن روح الجهاد لم تشخ في جسدها الواهن، وخافوا من تأليبيها الناس وشحنتها عليهم، فنفوها إلى بلد ناء لا يعرف أهله لغتها ولا تعرف هي لغتهم، لكنها استطاعت أن تواصل معهم بالقرآن وجاهدت فيهم بنوع آخر من الجهاد يليق بشيخوختها؛ إذ علمتهم الكتاب العزيز، وكانت من أنعم الله عليهنّ بكمال الحفظ وجمال القراءة، وكانت عالمة بالقرآن الكريم، وقد كان أهل القرية التي نفيت إليها يتسائلون متعجبين: كيف تكون امرأة كبيرة بالعمر وعمياء منفيةً لأسباب سياسية؟ فحاولوا التحدث معها، وتوصلوا إلى حقيقتها، وعيّنوها مدرّسة للقرآن الكريم، ولقبوها بلقب (أبو بربو) يعني ملكة القرآن⁽¹⁾.

(1) انظر: نساء عظيمات من العالم الإسلامي (ص 25) تأليف ناتالي ما يدل، ترجمة غادة محمد محمود، دار الشروق.

توفيت «تجوتو نجاك دين» في عام 1908م، أي قبل أن تحصل إندونيسيا على استقلالها بـ (37) سنة فقط؛ إذ نالت إندونيسيا استقلالها عام 1945م، وكان تحقيق هذا الاستقلال على يد «حركة المجاهدين» بقيادة أحمد سوكارنو، ومحمد حتا، والزعيم سوتان شهيرير، والذين عملوا جاهدين حتى نالت إندونيسيا استقلالها، وكانت «تجوتو نجاك دين» بذلك حلقة في سلسلة هذه الحركة التي نالت إندونيسيا استقلالها بسبب جهادها.

ولم يكن أحد يعلم حقيقة من سموها (آبوا بربو) حتى عام 1960م حين اكتشفت الحكومة الإندونيسية معلومات من الحكومة الهولندية.

وعرفوا أن ملكة القرآن كانت أيضًا ملكة الجهاد.

هذه الملكة تذكرنا بأمجادنا الأولى، والتي لم تقطع على مرّ الدهر، إنها تعيد إلى الأذهان سيرة من ذكرنا من المجاهدات الأوائل مع رسول الله ﷺ!

إنها تعيد على أذهاننا سيرة خولة بنت الأزور الأسدية، المجاهدة المسلمة التي ذكر الواقدي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ فَتوْحِ الشَّام

شيئاً عظيماً عن جهادها، من ذلك أنها كانت تتنكر في زي فارس، وتحارب إلى جانب الصحابي الجليل خالد بن الوليد.

وتذكر الأجيال بالخنساء المجاهدة التي لم تكتف بتقديم نفسها للشهادة بل أخذت معها بناتها الأربعه ولما استشهدوا جميعاً في حرب القادسية، وبلغها الخبر رضي الله عنهم مع الجيش العائد محملأ بالظفر، قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربِّي أن يجعني بهم في مستقر رحمته»، قالتها ولم تزد عليها.

وتذكر بأم البنين بنت عبد العزيز أخت الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز والتي كانت تحمل على فرس تجاهد في سبيل الله عزوجل!

وأقرب الناس شبهها بها الملكة تركان خاتون، بنت طغراج، تلك الملكة الجلالية صاحبة أصبهان، التي قادت جيش المسلمين يوماً، وهي زوجة السلطان ملکشاه، وكانت سيدة جليلة من ربات العقل والرأي والدين والصلاح والنفوذ والسلطان، وقد شاركت زوجها في الملك، وبعد وفاته دبرت الأمور فاتخذت المستشارين والوزراء، وقادت الجيوش، وحفظت أموال التجار، وأثرت تأثيراً عظيماً في بلاد فارس، فأصلحت كثيراً من عادات البلاد وأخلاق

أهلها، وبذلت لهم العطاء والإنقطاعات، فأحبها الأمراء والرعيه، وهي التي صاهرت الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله حيث تزوج بابنتها، ماتت رحمة الله سنة (487هـ)⁽¹⁾.

وأخيراً - وليس آخرًا - يذكرنا جهاد الملكة «تاجاك» بجهاد السيدة العظيمة فاطمة سيد أحمد (الله نسومر) تلك المجاهدة الجزائرية التي أرعبت الفرنسيين وأذاقتهم مر العذاب، وسطرت أعظم الآيات في الجهاد في سبيل الله ضد الاحتلال لسنوات طويلة رغم أنها توفيت وعمرها لا يتجاوز (33) سنة!

وكم وكم يحفل تاريخنا بالنساء العظيمات، فهلا عرف المسلمون عظماءهم؟

وهلل عرف النساء المسلمات قدواتهن في التاريخ فيعتززن ويفتخرن بهن ويتخذنهن قدوات وأسوات؟

(1) انظر في سيرتها: أعلام النساء (1/169).



عِبْر وَعَذَّاتٍ

مُجْتَمِعَةٌ

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

عبر وعظات مجتمعة

وفي نهاية هذه الرّحلة الماتعة أشير إلى بعض العظات في حياة هذه الثّلة الكريمة يشترك فيها أفرادها جميعاً، فها هم قد مضوا وما زلنا نذكرهم ونذكر آثارهم، وما ذلك إلا لقيمة حياتهم ولأياديهم الجميلة علينا، ودور كل قارئ أن يسائل نفسه: وأنا ما هي قيمة حياتي؟ ومتى أبني مشروع؟ سأموت؟ فبم سيدركني الصالحون بعد موتي؟

* إنّه لحقيقة بمن كان لديه اعتزاز بماضيه أن يكون له هو عمل في حاضره يعتزّ اليوم به، ويفخر من يأتون بعده به أيضاً، وها نحن أولاً قد تحدّثنا عن عظام لنا مضوا، بنوا بجدّاً مؤثّلاً، أفلّيست لنا فيهم أسوة؟ فهل من مشمر؟ إنّ الحاضر ينادينا لنقوم به كما قام أMagdنا بحاضرهم!

* إننا في كلّ مرة ذكرنا فيها مولد ماجدٍ من هؤلاء الأماجد كنّا على يقين من إتيان ذكر وفاته، منها طالت الصفحات، ولك أن تخيل كم استغرقت أطول سيرة فيها؟ بعض دقائق!

ولو أفردنا سيرته بكتاب ذي مجلدات، فهل تأخذ قراءته منّا
ساعة؟ هبه أخذ منا يوماً أو بضعة أيام، هذه حياة إنسان!

* ومن اللافت للنظر أننا في كلّ مرة لم نكتب خلال سيرة
حياة عالم منهم: أكل وشرب كذا، أو اضطجع ونام، وما سوى
ذلك من الأمور التي تشغل الإنسان في يومه، فإذا مضى ذلك اليوم
عدها شيئاً تافهاً؛ إذ يسْتُو فيها من طعم اللحم والخلّ!

ولله در الإمام أحمد إذ ردّ عطية الخليفة المتوكّل على الله،
وكان شيئاً كثيراً، فلما عاتبه ولده في ذلك وذكره بشدة حاهم
سكت، حتى إذا مرّت سنة دعاه فسألته: أي بنى! أرأيت إلى ذلك
الذي رددناه على المتوكّل، لو كنا أبقيناه، أفكان يبقى شيء منه اليوم
عندنا؟ فقال ابنه: لا، قال: فهل جعنا حتى لم نجد ما نأكله؟ قال:
لا، قال: أفعطشنا فلم نجد ما نشربه؟ أفعرينا فلم نجد ما نكتسي
به؟ وأسئلة نحو هذه، وابنه يجيب عليه فيها جميعاً بقوله: لا،
والحمد لله، ثم قال الإمام رحمة الله: هكذا الدنيا! تأتي وتذهب، يا
بني! إنما هو طعام دون طعام، وشراب دون شراب، ولباس دون
لباس، وإنما هي أيام قلائل فهي عشرون سنة، ثلاثون سنة، مائة
سنة، إنما هي أيام قلائل، تبلغ بها حتى نلقى الله تعالى!

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بِأَنْعَمَ أَهْلَ الدِّنِيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبِغُ فِي النَّارِ صِبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا بْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطْ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطْ؟ فَيُقَوْلُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبَّ!

ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصْبِغُ صِبْغَةً في الجنة، فيقال له: يَا بْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطْ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شَدَّةً قَطْ؟ فَيُقَوْلُ: لَا، وَاللَّهِ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطْ، وَلَا رَأَيْتَ شَدَّةً قَطْ»⁽¹⁾.

فأُجدر بالمؤمن أن يحتاط لدینه، وإن مسه من الشقاء في الدنيا ما مسه.

* والعظات في حياة هؤلاء العظام غير ذلك كثيرة، ولا يخفى على الليبب إدراكه، وإنما هذه إشارات، أسأل الله أن ينفعني وإياك - أخي الكريم - بها.

(1) آخر جهه مسلم (2807).

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

لذة العلم

تأليف/ أحمد الجوهرى عبد الجواد

لذة العلم

وفي النهاية: ثمة سؤال يطلب جواباً؛ ما الذي جعل هؤلاء النفر الكرام يغلّبون لذة العلم على سائر الملذات؟

إنّ فيهم الملوك، ومعلوم أن شهوة الملك إنما هي في الحكم والترأس والتوسيع، لا في الاطلاع على المعرفة والعلوم وجمع الكتب والدفاتر!

وفيهم الوزراء، ومعلوم أن شهوة الوزراء هي في التجويد والإتقان لما يناظر بهم من أعمال؛ كي ينالوا بذلك رضا السلطان، فيرقّوا في درجاتهم، أو يثبتوا -على أقلّ تقدير- في أماكنهم، ولن يستشعرون في التوفّر على المطالعة والسهر للمذاكرة!

وفيهم التجار، ومعلوم أنّ شهوة التاجر هي في الكسب والربح وتمير المال وتوسيعة التجارة، لا في ثني الركب بين يدي الشيوخ وملء الكيس بالكتب والكراريس للدرس والتدوين!

هذه شهواتهم وملذاتهم، لا تلك!

فما الذي حوّلهم وغيرّهم، حتى تركوا ما شأنه أن يشغلهم

ويلذهم وعليه يحسدهم الناس ويغبطونهم، إلى ما يُظنّ أنه ليس كذلك؟

والجواب:

إنه العلم، الذي تفوق لذته كل لذة، أدركها هؤلاء الرؤساء فراحوا العلماء عليها ونazuوهم فيها، ولو لم يظفروا بها إلا عن طريق المجالدة بالسيوف لفعلوا!

وهذا الوزير ابن العميد يحدّث عن بعض ذلك فيقول: ما كنت أظن أنّ في الدنيا حلاوة أللّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شاهدت مذكرة سليمان بن أحمد الطبراني، وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه، وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هات، فقال: حدثنا أبو خليفة الجمحي، حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بحدث.

فقال الطبراني: أنا سليمان بن أيوب، ومني سمعه أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو فيه إسنادك، فخجل الجعابي.

يقول ابن العميد: فوددت أن الوزارة لم تكن، و كنت أنا الطبراني، في هذا الموقف، و فرحت كفرحه⁽¹⁾.

و صدق ابن العميد، فهذه هي السعادة، و بمثل هذا يكون الفرح!

وَلَلَّهِ دَرْ أَبْنَ الْقِيمِ إِذْ يَقُولُ: «السعادة الحقيقية الروحية النفسية هي سعادة العلم، فهي الباقي على تقلب الأحوال، في دار الدنيا، و دار البرزخ، و دار القرار، و بها يترقى معارج الفضل، و درجات الكمال، ولو لا جهل الأكثرين بحلوته هذه اللذة، و عظم قدرها، لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفْت بحِجَابٍ من المكاره، و حُجِبوا عنها بأسوار من الجهل؛ ليختص الله بها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم⁽²⁾.

سَهْرِي لِتَقْرِيبِ الْعُلُومِ الْذُلِّيِّ

مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَ طِيبِ عِنَاقٍ

وَ صَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى صَفَحَاتِهَا

أَخْلَى مِنَ الدَّوْكَاءِ وَالْعُشَاقِ

(1) السير (16/124).

(2) مفتاح دار السعادة (107/1)، ابن القيم، ط. مكتبة الفاروق الحديثة.

وَالَّذِينَ نَقْرَى الْفَتَاهَ لِدُفَّهَا
نَقْرِي لِأَقْيَي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
وَتَمَائِيلِ طَرَبَاحَلٌ عَوِيصَةٌ
فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِي
وَأَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيَّهُ
نَوْمًا وَتَبِغِي بَعْدَ ذَلَكَ لَحَاقِي؟⁽¹⁾

إنه العلم؛ الملك الحقيقي، الباقي بعد زوال ملك كلّ إنسان،
والسلطان الحقيقي، الواسع العميق!

إنه يمتد في سعاته حتى يشمل الزمان كله والمكان كله، فيدين
له العرب والعجم والأحر و الأسود، في غابر الزمان وحاضره
ومستقبله.

ويمتد في عمقه؛ ليشمل حكمه الظواهر والبواطن، الجوارح
والفؤاد، على سواء!

(1) هذه أبيات الزمخشري، ونسبت خطأ إلى الشافعي؛ وضعها في ديوانه من
جمه، انظر الديوان: (ص 74)، وحولها تحقيق، تجده إن شاء الله في كتابي:
«مقولات ذاتعة نسبت لغير أصحابها».

ففُرْ بعلمٍ تعيش حيًّا به أبداً

الناس موتى وأهل العلم أحياءٌ

إنه العلم الذي ينقاد النّاس له حباً لا كرهًا، وطوعًا لا غصباً،
ويذكر النّاس أصحابه فيثنون عليهم سرّاً وجهراً، ويدينون الله
بحبهم والقرب منهم، حتى إنّهم يكثرون ذكرهم أكثر مما يذكرون
آباءهم وأمهاتهم، ويفدّونهم بالأباء والأمهات بل بالبنين والبنات!

وخذ لهذا بعض أمثلة وراءها ألف مثلها؛ قال عبد الرحمن
بن مهدي: ما أصلى صلاة إلا وأدّعو للشافعى رَحْمَةُ اللهِ فِيهَا⁽¹⁾.

وقال أحمد بن حنبل: إني لأدعو لمحمد بن إدريس -يعني
الشافعى- في صلاتي منذ أربعين سنة، فما كان فيهم -يعني
الفقهاء- أتبع لحديث رسول الله ﷺ منه⁽²⁾.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: «أي رجل كان
الشافعى، فإني أسمعك تكثّر من الدعاء له؟»، فقال لي: «يا بني،

(1) طبقات الشافعيين، فصل في ذكر فضائله وثناء الأئمة عليه، رَحْمَةُ اللهِ أجمعين.

(2) منازل الأئمة الأربع (ص 221).

كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل هذين من خلف أو منهما عوض؟⁽¹⁾.

وهذا أبو حنيفة يقول: «ما مددت رجلي نحو دار أستادي حمَّاد؛ إجلالاً له، وكان بين داري وداره سبع سُكُوك، وما صللت صلاةً منذ مات حمَّاد إِلَّا استغفرت له مع والديَّ، وإنِّي لاستغفر لمن تعلَّمت منه أو عَلِمْتني علِّي». .

ويأتي أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة ليقول لنا: «إِنِّي لادعو لأبي حنيفة قبل أبي». .

إِنَّهُ الْعِلْمُ، الَّذِي أَدْرَكَتْ حَقِيقَةَ سُلْطَانَهُ عَلَى النَّفُوسِ أَمْ وَلَدُ هَارُونَ الرَّشِيدَ، وَقَدْ أَشْرَفَتْ يَوْمًا مِنْ نَافِذَةِ الْقَصْرِ عَلَى مَوْكِبِ الْإِمَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَيَارِكَ، وَقَدْ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ صُوبٍ وَجَاءُوهُ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسُلُونَ، فَقَالَتْ قَوْلُتُهَا الْذَّائِعَةُ الشَّهِيرَةُ: «هَذَا وَاللَّهِ الْمَلِكُ، لَا مَلِكٌ هَارُونٌ»!

ولننط السمع لأنس بن شعبة المصيصي، يحكي لنا الموقف

(1) منازل الأنئمة الأربع (ص 222).

بحذافيره، يقول أشعث: قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين الرقة، وقدم وقتئذ عبد الله بن المبارك، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، حتى تقطعت النعال، وارتقت الغبرة، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس، قالت: ما هذَا؟ قالُوا: عالمٌ من أهل خراسان قدم الرقة، يقال لَهُ: عبد الله بن المبارك، فقالت: هَذَا وَاللهِ الْمَلِكُ لَا مَلِكَ هَارُونَ الَّذِي لَا يَجْمِعُ لِهِ النَّاسُ إِلَّا بِشَرْطٍ وَأَعْوَانٍ⁽¹⁾.



إِنَّهُ الْعِلْمُ وَلِذْتَهُ الَّتِي تَفْوَقُ كُلَّ لَذَّةٍ، وَلَا يَنْبَئُكَ مُثْلُ خَبِيرٍ،
فَاسْمَعْ إِلَى هُؤُلَاءِ النَّفَرِ الْكَرَامِ يَصْفُونَ لَكَ بَعْضَ ذَلِكَ، عَلَى أَنِّي
أَصْدِقُكَ الْقَوْلَ بِأَنْهُمْ مِمَّا اجْتَهَدُوا فِي إِخْبَارِكَ عَنْهَا فَلَنْ يَنْقُلُوا لَكَ
الْحَقْيَقَةَ كَمَا هِيَ، بَلْ يَقْنِي الْأَمْرَ كَمَا قِيلَ: لَيْسَ مِنْ ذَاقَ كَمْنَ عَرْفٍ،
وَلَيْسَ الْمَخْبَرُ كَالْمَعَايِنِ، وَلَكِنْ اسْمَعْ، فَمَا لَا يَدْرِكُ كُلَّهُ لَا يَتَرَكَ قَلْهُ،
وَلَعْلَكَ تَتَشَوَّقُ!

يَنْبَئُكَ عَنْهَا أَعْلَمُ أَمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ؛ مُعاذُ بْنُ
جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ بَكَى عِنْدَ مُوْتِهِ لِفَقَدِ هَذِهِ الْلَّذَّةِ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَبْكَيَ

(1) تاريخ بغداد (10/156)، ووفيات الأعيان (3/33).

على ظمأ المهاجر، وقيام ليل الشتاء، ومحاصرة العلماء بالركب عند حلق الذكر⁽¹⁾.

وينبئك بها شيخ الإسلام ابنُ تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ وَقَدْ عَرَضَ لَهُ بعْضُ الْأَلْمِ، فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ: أَصَرُّ مَا عَلَيْكَ الْكَلَامُ فِي الْعِلْمِ وَالْفَكْرِ فِيهِ وَالْتَّوْجِهِ وَالذِّكْرِ، فَقَالَ: أَلَسْتُمْ تَرْزَعُونَ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا قُوِيَتْ وَفَرِحْتَ أَوْجَبَ فَرْحَهَا لَهَا قَوَّةٌ تُعِينُ بِهَا الطَّبِيعَةَ عَلَى دَفْعِ الْعَارِضِ؛ فَإِنَّهُ عَدُوُّهَا، فَإِذَا قُوِيَتْ عَلَيْهِ قَهْرَتْهُ؟ فَقَالَ الطَّبِيبُ: بَلِ!

فَقَالَ: إِذَا اسْتَغْلَطْتَ نَفْسِي بِالْتَّوْجِيهِ وَالذِّكْرِ وَالْكَلَامِ فِي الْعِلْمِ وَظَفَرْتَ بِهَا يُشْكِلُ عَلَيْهَا مِنْهُ، فَرَحْتَ بِهِ وَقَوَيْتَ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ دَفْعَ الْعَارِضِ!⁽²⁾.

وهذا ابنُ الجوزي لما نال لذة طلب العلم، وذاق حلاوته، سطَرَ ذلك بِقَلْمَهُ، فاسمع إِلَيْهِ يَقُولُ: وَلَقَدْ كُنْتُ فِي حَلَاوَةِ طَلَبِ الْعِلْمِ أَلْقَى مِنَ الشَّدَائِدِ مَا هُوَ أَحْلَى عَنِّي مِنَ الْعَسْلِ فِي سَبِيلِ مَا أَطْلَبُ وَأَرْجُو!

(1) رواه الإمام أحمد في الزهد ص (181).

(2) مفتاح دار السعادة (250/2).

و كنتُ في زمان الصّبا آخذُ معي أرغفةً يابسة، ثم أذهب به في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، ثم آكل هذا الرّغيف، وأشرب الماء، فكلي أكلت لقمةً شربتُ عليها، وعَيْنٌ هَمَتِي لا ترى

إلا لذة تحصيل العلم⁽¹⁾.

الله أَسْأَلُ أَنْ يُطَوَّلَ مُدْتِي

وَأَنَّا لَبِالْإِنْعَامِ مَا فِي نِيَّتِي

لِي هِمَةٌ فِي الْعِلْمِ مَا مِنْ مِثْلَهَا

وَهِيَ الَّتِي جَنَّتِ النُّحُولَ هِيَ الَّتِي

كَمْ كَانَ لِي مِنْ مَجْلِسٍ لَوْ شُبِّهَتْ

أَجْوَاؤُهُ لَتَشَبَّهَتْ بِالْجُنَاحَةِ⁽²⁾

إِنَّ لِلعلم لذة لا توازيها لذة في الدنيا بأسرها؛ في طلبه ومعاناته، وفي حفظه ومطالعته، وفي مدارسته ومذاكرته، وفي تأليفه وتصنيفه، وفي الأنس بكتبه وقضاء الوقت بين دفاترها، وبعض هذا يهتز له القلب طرباً، والنفس فرحاً، والروح سعادة، فكيف بجمعيه؟

(1) صيد الخاطر، ص (177).

(2) السير (21/379).

إذا اعتلت فكتُبُ العلم تشفيسي

فيها نزاهةُ الحاطي وتنزييني

إذا اشتكيتُ إليها الهمَّ مِنْ حَرَنِ

مالتُ إلىَّ ثُعُزِيني وُشَلِيني

حسبِي الدفاترُ مِنْ دُنْيَا قنعتُ بها

لا أُبتغي بَدَلًا مِنْهَا وَمِنْ دِينِي⁽¹⁾

أفيصح -بعد هذا - أن يسأل لم آثر الملوك وأصحاب الأموال

العلمَ على جميع المللَّات؟

إنَّ السؤالُ هو العجب؛ فالفائدة الواحدة عند المحب للعلم
خير من الدنيا وما فيها، ولخلوة مع كتاب تفسير، أو حديث أحسن
من مناصب الدنيا جميعاً!

ولله در ابن الجوزي إذ يلخص ذلك كله بقوله: والله ما أعرف
من عاش رفيعَ القدرَ باليَّغاً من اللذاتِ ما لم يبلغُ غيرُه، إلَّا العلَّامُ
المُخلصين؛ كالحسَن وسفيان، والعبَّاد المُحقّقين كمُعْرُوف؛ فإنَّ لذة
العلم تزيد على كُلِّ لذة، وأمّا ضرُّهم إذا جاعوا أو ابْتُلُوا بأَذى، فإنَّ

(1) الكتاب في الحضارة الإسلامية، (ص 12، 13)، تأليف د. يحيى وهيب الجبوري، ط. دار الغرب الإسلامي.

ذلك يزيد في رفعتهم، وكذلك لذة الخلوة والتعبد⁽¹⁾.

ويقرر أن من حصل لذة العلم لم يفته شيء من لذات الدنيا،
فيقول: فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن
الشيخوخة يحمد جنى ما غرس، ويلتذب بتصنيف ما جمع، وما يرى
ما يفقد من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذات
العلم.⁽²⁾.

وغير خاف - قبل هذا كله - ما ورد به القرآن والسنة عن
العلماء؛ ما لهم من الفضل والشرف والمنزلة الرفيعة العالية، ما
يطمع كُلُّ أحد - الملوك وغيرهم - أن يحصله ويفوز به.

وهذا - جميعه - هو الذي حدا بهؤلاء النفر من الملوك
والوزراء وذوي المناصب والثروات أن يزاحموا على مجالس العلم
بالركب والأكتاف، فسلام عليهم، بما فهموا وعقلوا، في الحياة وفي
الممات.

(1) صيد الخاطر (ص 219).

(2) صيد الخاطر (ص 165).

خاتمة نفثة مصدور عن منزلة العلم اليوم بين المسلمين

هكذا، لا يُعرف -مثُل الإسلام- دين جاء بنبذ الجهل ومعاداته والتنفير منه، والدعوة إلى العلم وموالاته والترغيب فيه، وقد وصل الإسلام في ذلك إلى حدّ أن أوجب على أبنائه جميعاً طلب العلم.

وهم في ذلك أمام منظار الشرع العظيم فريقان: أما المُتَخَصِّصُونَ فلا يسعهم إلا التبُّحُرُ في العلم، ومعرفة تفاصيله وتفارييعه، والاجتهاد في تحصيل دقيق شوارده، وتقيد عزيز مسائله.

وهو لاء عليهم أن يذلوا وسعهم وطاقتهم بجد واجتهاد.

وحقٌّ على الأمة أن تعمال على إيجادهم، ثم إعانتهم، ويلزمها
تهيئة السبل التي تيسّر لهم القيام بمهمتهم، وهذا النوع من الطلب
فرضٌ كفائيٌّ، تقوم به عن الأمة فرقٌ منها، نيابةً ووكالة، بشرط أن
يكفواها هذا الجانب، فلا تحتاج فيه بعدهم إلى أحد.

والفريق الآخر «غير المختصين»، وهم عموم المسلمين؛ فهؤلاء أوجب الإسلام عليهم طلب العلم؛ بمعنى أن يلمُوا بجملة منه تكفيهم في تأسيس عقيدتهم، وتأدية عبادتهم، وتركيبة نفوسهم، وتحميم أخلاقهم وسلوكهم على الوجه الذي يُرضي الله ويرضى به عنهم.

ويعبّر العلماء عن هذه الجملة من العلم بعبارة: ما لا يسع المسلم جهله، أو ما يجب على المسلم علمه، وهذا النوع من الطلب فرضٌ عينٌ على كل مسلم وMuslima، لا يعني فيه قيام فردٍ من أفراد الأمة عن غيره، ولا يسد فيه أحد منهم مسدةً سواه؛ فلأجل أن يصح عمل المسلم، لا بدَّ أن يكون مبنياً على علم، فإنَّ من عمل بغير علم. كان ما يفسده أكثر مما يُصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق⁽¹⁾.

بل إن العمل على علم يجُبر قليل العمل، ولا يوزن به كثير عمل على غير علم.

وقد غاب هذا المعنى اليوم عن حسٌ جماهير المسلمين، إذ

(1) السير (4) / 583.

فَرَّطُوا فِي إِعْدَادِ الْعُلَمَاءِ الْمُجَتَهِدِينَ، وَفَرَّطُوا فِي تَعْلُمِ مَا يَصْلَحُ بِهِ أَمْرُ دِينِهِمْ وَدِنَاهُمْ.

فَلَا تَجِدُ فِي الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ أَعْمَلُ عَلَى إِعْدَادِ الْجَيلِ الْوَرِيثِ الَّذِي سَيَحْمِلُ الْأَمَانَةَ عَنْ جَيلِ الْعُلَمَاءِ الْقَائِمِ، وَيَحْلِّ مَكَانَهُ غَدَّاً، وَلَا تَجِدُ جَاهِيرَ الْمُسْلِمِينَ يَتَعَلَّمُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِلْمَهُ؛ لِيَقِيمُوا بِهِ دِينِهِمْ!

أَيْنَ جَاهِيرَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ مِنَ الْعِلْمِ بِالْإِسْلَامِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالسَّنَّةُ؟

مَا مَصْدِرُ ثِقَافَتِهِمْ؟ وَمَا مَنْبَعُ مَعَارِفِهِمْ؟ وَمَا قِيمَةُ مَا يَعْتَقِدُونَ أَمَامَ مَا يَنْبَغِي عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ أَنْ يَعْتَقِدُوا؟ وَمَا شَبَهُ عِبَادَتِهِمْ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي شَرَعَ اللَّهُ وَيَسَّرَ رَسُولُهُ؟ وَمَا مِيزَانُ أَخْلَاقِهِمْ إِلَى أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ الَّتِي أَرَادُهَا وَطَالَبَ بِهَا؟

هَلْ يَهْتَمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ بِعْدِ الْعَمَلِ مِنَ الْأَعْمَالِ؛ بَيْعٌ أَوْ شَرَاءٌ أَوْ نِكَاحٌ أَوْ طَلاقٌ أَوْ رِهْنٌ أَوْ سِبَاقٌ أَوْ وَكَالَةٌ أَوْ حَوَالَةٌ... إِلَخَ أَنْ يَتَعَلَّمُ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ فِيهِ؟ أَمْ هُوَ يَسِيرُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ الْعَرْفُ وَجَرَتْ بِهِ الْأَوْضَاعُ، دُونَمَا نَظَرَ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ؟

ذلك في جانب المعاملات.

بل قبل ذلك:

هل اعنى المصلي قبل أن يُصلِّي أن يتعلَّم الصلاة التي شرع الله، وعلى الصفة التي صلَّى بها رسول الله ﷺ؟ أم اكتفى أن يفعل -حين أراد الصلاة- كما يفعَلُ المُصلُّون؟

وَحِينَ وَجَبَ عَلَيْهِ الصِّيَامُ، وَحِينَ وَجَبَتْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ، وَحِينَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْحَجَّ؟ إِلَى آخِرِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَؤْدِي الْمُسْلِمُونَ شَكْلَهَا وَظَاهِرَهَا، وَتَبَوَّءُ عَنْهُمْ حَقِيقَتُهَا وَجَوَهْرُهَا.

مع أن «كل عبادة أوجبها الشرع على كل واحد؛ يحب عليه معرفة علمها، مثل: علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحج إن وجب عليه»⁽¹⁾.

وهذا -أيضاً- في جانب العبادات.

بل قبل ذلك حين نشتَّنا: هل عُلِّمنَا العقيدة الصحيحة النقية الصافية؟ ورُبِّينا التربية السليمة الزاكية؟ أو حكمتنا العادات سليمةً أو خاطئة - فحَكَّمناها، ونشَّأنا عليها فنشَّأنا، وتربيتنا على

(1) تفسير البغوي (4 / 113).

التقاليد - شرعية أو جاهلية - فربّتنا؟

الحقيقة، إن الجواب تغص به الحلوق، ولكن ما منه بدُّ، قبل أن يسَدِّها فتخنق الروح وتخرج، وهو صراحة: لا، بل ألفُ ألفِ لا.

وهو جواب مرُّ، نَعَمْ، ولكن أمرُ منه وألمَ أن نتغافلَ عن رصد الداء وأسبابه، وتشخيص الدواء ووصفه، ولا شكَّ أنَّ ذلك لا يقضى بكلمات عابرة، بل يحتاج إلى دراسات تعالج هذا الوضع المتردِّي.

ولعل فيما مضى من كلمات إضاءة في هذا الطريق!

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
5	تمهيد
11	مقدمة
17	حاكم مصر وشيخ الإسلام
39	كبير التجار وسيد العلماء
58	رأس الأثرياء وياقوطة العلماء
79	التاجر الثري والعالم الملي
105	رأس الخلفاء والفقيhe المصنف
123	الوزير الأكمل والإمام الحافظ
135	الوزير الذي جدد الإسلام في القرن الخامس
163	أمثل وزراء الإسلام
191	الملك العالم الذي شغف بالكتب حباً
205	عاشق الكتب.. أهداه الناس الكتب تهنئة بالوزارة
223	إمام فقد ماله لكنه لم يفقد علمه

233	أغنى رجل في العالم.. كان يرتحل بالذهب ويعود بكنوز الكتب
249	الأستاذة الأولى للفقه وأصوله
259	سلطان على نهج الراشدين
287	أول مفسرة للقرآن كاملاً في تاريخ الإسلام ملكة هندية
305	العالمة المتغيرة وزيرة الصدق وأم السلاطين
317	الخليفة العالم مجدد الدين في القرن الثالث عشر
337	بدر الأقطار الهندية .. ملكًا وعلمًا
365	ملكة تدير أمور الحكومة من وراء حجاب وتعلم العلم أيضًا
373	ملكة الجهاد وملكة القرآن
383	عبرٌ وعظاتٌ مجتمعة
389	لذة العلم
400	خاتمة: نقشة مصدورة عن منزلة العلم اليوم بين المسلمين
406	فهرس المحتويات